"النساء كائنات عجيبة. لديهن القدرة على ارتكاب أي حماقة!"

دكان الساري

روبا باجوا

ترجمة: ريم داوود



روايات مترجمة



دُكَّان الساري

دكان الساري

روبا باجوا

ترجمة: ريم داوود

مراجعة وتحرير: هدى فضل

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

طبعة: نوفمبر 2017

الغلاف: آلاء هيكل

رقم الإيداع: 2017/11577

الترقيم الدولي: 9789773193577



60 شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Published April 3rd 2004 by Penguin Books India (first published 2004)

روبا باجوا

دُكَّان الساري

رواية من الهند

ترجمة: ريم داوود



بطاقة فهرسة

باجوا، روبا

دكان الساري: رواية من الأدب الهندي/ تأليف روبا باجوا، ترجمة: ريم داوود.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2016،

ص؛ سم.

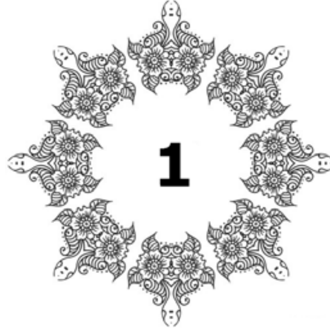
1- القصص الهندية

أ- داوود، ريم (مترجم)

ب- العنوان 1.493

الجزء الأول





استيقظ "رامتشاند" متأخرًا، من نومٍ عميق. لم ينجح في إيقاظه إلّا أصوات شجار أتته مـن الشارع، في الأسـفل. فـرك عينيـه، وغـادر الـسرير. سـار باتجـاه النافـذة. حـدَّق عـبر القـضبان الحديدية الصدئة في الشخصين المتشاجرين. كان أحدهما بائع حليب انتهـى لتـوِّه مـن جولـة التوزيع اليومية، وقد علَّق على جانبي درَّاجتـه آنيتـين كبيرتـين مـن الحديـد المغطَّـى بالزنـك؛ اصطدمت إحداهما برجلٍ كان يمشي في الزقاق الضيِّق. اندفع الاثنان في تبادل الصياح بغـضب شديد، احمرَّ على أثره وجهاهما.

وقف "رامتشاند" ينظّف أسـنانه بالفرشـاة، بجـوار النافـذة مـستندًا إلى الحـائط. وراقـب الشجار حتى النهاية. بعد أن بدأ الملل يتسرّب إلى نفوس المراقبين مـن المـارّة، قـاموا بالتـدخّل وتهدئة الطرفين، وهو الطقس المعتاد في مثل هذه المواقف، فالمتشاجرون يـشعرون بـالخزي ـ عادةً ـ إذا اضطروا لإنهاء صياحهم قبل تدخّل الآخرين.

أخيرًا، غادر الرجلان. بعد ذلك نسي "رامتشاند" أن ينظر إلى الساعة، فظلّ واقفًا في مكانه محملقًا في فراغ الشارع الضيِّق. كان ذهنه لا يزال ملبدًّا بآثار النوم، وقد تجمدت أطرافه، كعقله تمامًا، بفعل برد الصباح الباكر. تحرّك ببطء.

وحين نظر إلى الساعة الحمراء الصغيرة فوق الطاولة، أدرك ـ أخيرًا ـ أنه قد تأخّر كثيرًا. استحم وارتدى ثيابه على عجل. راحت الأشياء تتساقط منه خلال ذلك. أربكه التأخير، فتساقطت عليه قطرات الماء المغلي وهو يرفع القدر من على موقد الكيروسين؛ ثم زرّر قميصه بشكل خاطئ. بعدها انسكب زيت الشعر على الأرض القذرة. وأخيرًا، لم يستطع تذكّر المكان الذي وضع فيه القفل الحديدي الخاصّ بباب حجرته. راح يبحث عنه وعن المفتاح الذي بداخله.

وجدهما على الطاولة، بعد أن أمضى ربع ساعة من البحث الدؤوب في كل أنحاء الحجرة.

اندفع خارجًا من غرفته، واتجه إلى الدكّان مهرولًا في الدروب والأزقّة الضيّقة للسوق المزدحم. اخترق جموع المشاة، في مناورة دائمة مع عربات الـ"توك توك"، ومحاولات متكررة لتفادي الاصطدام بعربات الخضراوات. شعر بعرق غزير بين أصابع قدميه، داخل الجوارب الصوفية الرمادية.

رغم أن الساعة لم تكن تتجاوز العاشرة صباحًا، فإن السوق كان يفيض بالحيوية. وقف الحلواني أمام محل "ميتشان للحلويات"، يسقط بمهارة قطع "الزلابيا" المتشابكة، في الزيت الساخن، فتطفو على سطحه داخل وعاء القلي الحديدي الكبير.

كانت جميع المحلّات في السوق قد فتحت أبوابها، وأحسّ "رامتشاند" بالذنب وهو يلاحظ أن جميع الباعة في الدكاكين المختلفة قد بدأوا في اجتذاب الزبائن، وهم يرسمون ابتسامات مرحّبة على وجوههم النظيفة اللامعة.

الجانب القديم من "آمريتسار"، أو الجزء المسوّر من المدينة، مليءٌ بالأسواق. أسواقٌ صغيرة لا يعرفها إلّا السكّان المحلّيون. أماكن لبيع الأساور الزجاجية والمعدنية، والأقمشة الرخيصة. أسواق لا يمكن الوصول إليها إلا سيراً على الأقدام.

وأسواق أخرى كبيرة، حيث الشوارع أوسع بقليل، وأنظف أيضًا بقليل. أسواق "آمريتسار" تموج بالبشر، كل يوم، طوال العام. بشرٌ يعقدون الصفقات، ويفاصلون في الأسعار، ودكاكين تفتح صباحًا وتغلق مساءً، وتبدو كما لو أنها تسير وفق ذلك النظام منذ بدء الخليقة، وكما لو أنها ستستمر عليه إلى الأبد.

ليس هناك مساحة خالية في هذه الأسواق. خليط من البيوت العتيقة المبنية بالطوب الأحمر، ومبانٍ أسمنتية قديمة بلونها الرمادي.. حوانيت.. لافتات.. بضعة معابد صغيرة على النواصي.. طرقات مزدحمة بالناس والأبقار والكلاب الضالة، وعربات الفاكهة والخضراوات. ليس للمنازل بوّابات، مجرّد عتبات ضيقة تفصل بين باب كل منزل والشارع. مبانٍ مفتّتة، متجاورة ومتلاصقة، كما لو أنها صناديق من الورق المقوّى لصقت ببعضها بقليل من الصمغ. شرفاتها مركّبة فوق بعضها بعدم انتظام. لا أسوار تحيط بالبيوت. ولا يمكن أن تعرف أين تبدأ حدود هذا البيت، أو تنتهي حدود ذاك..

في وسط تلك المباني المتداخلة، تلمح فتحة ضيّقة، حيث يبدأ زقاق يحاول أن يجد لنفسه مكانًا بين تلك الجدران، وينتهي بحارة صغيرة في الجانب الآخر. قد تستغرق أعوامًا لتألف شبكة متاهات أزقّة وحواري ودروب المدينة القديمة. هنا

يرقص المال والازدحام والضجيج، رقصات خالدة.. مجنونـة.. لا تـترك فراغًـا أو فرصـة لأيّ شيء آخر أكثر هدوءًا.

الأسوار الفعلية التي كانت تحيط بالمدينة في زمنٍ مـضى، انهـارت وتـساقطت منـذ وقـت طويل؛ لكن أشباح تلك الأسوار لا تزال تفصل المدينـة القديمـة عـن تلـك الجديـدة الآخـذة في الازدهار على حدودها الخارجية.

يُعَدُّ الدكان الذي يعمل به "رامتـشاند" واحـدًا مـن أقـدم الـدكاكين التجاريـة في المدينـة. يتوسط "تـالوار" للمفروشـات والـستائر، وأقمـشة "تـشاندورام". يقـع في واحـد مـن الأسـواق الرئيسية التي تتمركز في قلب المدينة، ويتميز بوجود موقف لسيارات الزبائن أمامه.

المحلّات في هذا السوق تحديدًا، أكبر من غيرها وأكثر قدمًا، وتتمتع بالسمعة الطيّبة، ولهـا زبائن قدامى. كما أن أصحابها جميعًا أشخاصٌ محترمون وينحدرون من عائلات تمتهن التجارة منذ زمن طويل.

تعلو مدخل الدكّان لافتة ضخمة بلون أخضر فاتح، كُتِبَ عليها "سـيفاك ـ بيـت الـساري"، بحروف حمراء منمقة باللغتين الإنجليزية والبنجالية.

لم تكن اللافتة دقيقة تمامًا، فالدكان لم يكن فقط يبيع "الساري"، فالدور الأرضي منه يبيـع أقمشة رجالي كذلك. أقمشة كئيبة بدرجات البنّي والأزرق، وباللون الأسود. لكن القليـل فقـط من الزبائن هم الذين يأتون لـ"سيفاك ـ بيـت الـساري" لـشراء أقمـشة البـدلات أو القمـصان الرجالية؛ ذلك أن السوق يضمّ محلات أكبر حجمًا، وذات تشكيلات أوسع مـن تلـك البـضاعة، مثل معرض "ريموند" الواقع على بعد شارعين اثنين فقط.

ولذلك، فإن للطابق الأرضي من الدكان منظرًا كئيبًا، وتغطي معروضاته طبقة رقيقة من الغبار.

الطابق العلوي من الدكان هو الذي تُعرض فيه أقمشة "الساري". تمتلئ أرففه الكثيرة بـ"سوارٍ" عديدة. أنواع بسيطة من القطن البنغالي، وأخرى بالغة الأناقة من نوعية "كانجيفارام" إضافة لتلك المصنوعة من الحرير الطبيعي و"الشيفون" و"الكريب" و"الساتان". هذا الطابق ينبض بالحياة، والألوان الغنية والنعومة والرقّة. هو الذي يجلب الزبائن والأرباح. وبفضل نجاح هذا القسم في اجتذاب المشترين، أصبح "سيفاك" هو أفضل محلات "الساري" على مدار أعوام طويلة.

للدكّان طابق آخر لا يعرفه الزبائن. يحوي مخزنًا كبيرًا وحمّامًا صغيرًا لاستخدام "مهاجان" والعاملين في الدكّان.

"رامتشاند" واحدٌ من الستّة العاملين في قسم "الساري".



وقف "رامتشاند" مترددًا على باب الدكّان. يبلّل العرق باطن يديه، رغم البرودة المعتادة لصباحات شهر ديسمبر. وقف مفكّرًا في عاصفة الغضب التي سيستقبله بها "مهاجان".

حين دخل الدكّان أخيرًا، كان "مهاجان" يتحدّث في التليفون. استغلّ "رامتشاند" الموقف، ومرّ كالقذيفة أمامه. رمقه "مهاجان" بعينين غاضبتين.

بجوار السُلَّم المؤدّي إلى الطابق العلوي، يقع تمثال الإله "جانيشا". عادةً، يقف "رامتشاند" أمامه كل صباح للحظات قصيرة. يغمض عينيه ويضمّ كفيه

إلى بعضهما في صلاة سريعة، قبل أن يصعد السلّم. لكنه اضطر اليوم لأن يـركض بـسرعة عـلى السلالم الخشبية الضعيفة، دون أن يلتفت للإله.

كان قلبه يدقّ بعنف في صدره. في أي لحظة الآن، سيـستوقفه "مهاجـان" ويوبّخـه. لكنـه وصل سـالمًا إلى الطـابق العلـوي. قبـل أن يـدخل إلى قـسم "الـساري"، وقـف بمحـاذاة البـاب الزجاجي المؤدّي إليه، منتظرًا انتظام أنفاسه المتلاحقة.

وثب على ساق، ثم الأخرى، محاولًا تخليص قدميه من فردتيّ الحذاء. أحدثت وثباته صوتًا عاليًا على السُلَّم، وأخيرًا جاءه صوت "مهاجان" صائحًا بغضب من الطابق السفلي:

- ما هذا؟ أهي محاولة لتحطيم المكان؟ تأتي متأخرًا وتظن أنّي لا ألاحـظ؟ هـل تعتقـد أني أعمى؟ أني غبي؟ هل تعتقد أن الدكاكين تُدار بهـذه الطريقـة؟ بـأن تـأتي أنـت أو غـيرك متـى تحب وتنصرفون متى شئتم؟ هل أنت مَلِكٌ مثلًا؟! ربّما كنتَ "المهراجا رامتشاند" وأنا لا أدري! ربما تودّ سموّك أن أرسل لك الحاشية لتحملك إلى هنا كل صباح!

توقف "رامتشاند" عـلى الفـور، وانتظـر قلـيلًا. صـمتٌ تـامّ. خلـع حـذاءه بحـرص، وهـو يتمنى لو لم تكن لقدميه هذه الروائح النفّاذة. كان قد استحم وارتدى جوربين نظيفين.. ومـع ذلك..

كان يعرف أن رائحة قدميه ستزيد أكـثر مـع مـرور سـاعات النهـار. وضـع فـردتي الحـذاء بطريقة مرتّبة على الحامل الخشبيّ بجوار الحـائط، عـلى الـرف المخـصص للعـاملين بالـدكان. بقية الأرفف تُترَك لأحذية الزبونات، بأنواعها العديدة وكعوبها المختلفـة.. العريـضة والقـصيرة والعالية والمدبّبة.

أعاد "رامتشاند" تسوية خصلات شعره، وجذب قميصه الطويل إلى أسفل. كان يحسّن من هندامه، كمحاولة تعويض عن رائحة قدميه.

دخل وجلس في المكان المخصص له، وشبك ساقيه ببعضهما. لا يـزال الـدكان يعمـل وفـق الأنظمة القديمة، ولذلك لا توجد به مناضد خشبية يقف خلفها الباعة ليفردوا عليها الأقمشة؛ وإنما مراتب رفيعة مفروشة على الأرض، ومغطاة بملاءات بيضاء. وعليها يجلس البـائعون كـل يوم في مواجهة الزبونات يفردون المنسوجات الملوّنة، ثم يعيدون طيها.

ابتسم له "هاري" ابتسامة عريضة من مجلسه البعيد قليلًا، وقال:

- مرحبًا أخي "رامتشاند"، تأخرت ثانيةً؟

"هاري" هو أصغر العاملين في المكان. يتّسم بالمرح واللامبالاة والوقاحـة، وهـو مـا يجعلـه أكثر من يصبّ عليهم "مهاجان" غضبه وصراخـه؛ وعـلى عكـس "رامتـشاند"، لم يكـن "هـاري" يشعر بالحرج أو التوتر حين يتلقى أيّ تأنيب.

بل إنه في بعض الأيام المملّة الكئيبة، كان هذا التقريع يبعث في نفسه الكثير من البهجـة! وبعد أن يمضي "مهاجان" وقتا طويلًا، ويهـدر طاقـةً كبـيرة، في توبيخـه، كـان "هـاري" يبتـسم ويقول:

- دخل الكلام من هذه الأذن، وخرج من الثانية!

وبحكم كونه بائعًا صغيرًا، عديم الخبرة، جاهلًا بأنواع المنسوجات، فقد تمّ تعيينه مسؤولًا عن سواري "باراج" البسيطة التي تُلبس في النهارات العادية، وتلك التي تحمـل الاسـم نفـسه، المخصصة للمناسبات الخاصّة؛ فكلا النوعين لا يحتاج بيعهما إلى مهارة كبيرة أو معرفة واسـعة بالأقمشة.

سيمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يصبح "هاري" مسؤولًا عن أنواع أخرى من أقمشة "الساري"، لكن ذلك لا يزعجه إطلاقًا.

بادله "رامتشاند" الابتسام، وقال:

- ما العمل يا صاحبي؟

قال "هاري" وهو لا يزال محتفظًا بابتسامته العريضة:

- لقد سمعنا صراخه من مكاننا هنا! رغم أن الباب لم يكن مفتوحًا..

كرّر "رامتشاند"، بشيء من الحزن هذه المرّة:

- وما العمل يا صاحبي؟

قال "هاري" محاولًا التخفيف عنه:

- لا عليك. لقد قدّمت له خدمه بتأخرك هذا. بعض الناس يصابون بعسر هضم إن لم يملؤوا المكان صياحًا وصراخًا.

أضاف ضاحكًا وهو يغمز بعينه:

- صاحبنا "مهاجان" من هذا النوع.

أطلق ضحكة أخرى، أعقبها بتنهدات مسرحية.

جلس "جوكل" في هدوء، يطوي بضعة أثواب "ساري" ويعيدها إلى مستطيلات مرتبة. السواري المكلّف ببيعها هي المصنوعة من الكريب الفاخر،

الباهظ الثمن. وفي مواسم الأعراس، يساعد الآخرين في عرض الأقمشة المزخرفة ذات الحوافّ المذهبة. "جوكل" رجل أربعيني رزين، شديد الجدّية في كل ما يتعلّق بعمله. يقدّر "مهاجان" خبرته الطويلة وإخلاصه للدكّان، ورغم هذا فإن ذلك لا يمنعه من جَلد "جوكل" أحيانًا بلسانه السليط.

منذ حوالي عشر سنوات، قرّر "سيفاك ـ بيت الساري" بيع أوشحة الـ"تشوني". فقد كانت سيدات الأسر السيخية العريقة، الكبيرات منهن والشابّات يأتين لشراء السواري، لكنهن كنّ لا يتوقفن عن السؤال عمّا إذا كان الدكان يبيع الأوشحة وأغطية الرأس الخفيفة. فبالنسبة إليهن "الساري" قطعة مهمة من الملابس، باعتباره الزيّ الشائع، إلّا أنّه لا يعبّر عنهن.. فملابسهن الحقيقية عبارة عن ثوبٍ قصير وسروال، وغطاء رأس طويل.

كانت شكواهن الدائمة هي صعوبة الحصول على وشاح ذي نوعية جيّدة.

بعد تفكير اشترك فيه "بيمسن" و"مهاجان"، قرّرا معًا أن يبدأ الدكّان بيعها.

وقعت مهمة اختيارها وعرضها على الزبونات على عاتق "جوكل"، الذي أحرز نجاحًا ملحوظًا في المهمة الموكلة إليه.

اختارها بطول محدَّد هو متران ونصف المتر، إذ لم تكن أيٌّ من السيدات السيخيات لترضى بارتداء واحد أقصر من ذلك. ففي اعتقادهن الأغطية القصيرة لا تضعها إلّا الهندوسيات، أو الفتيات صغيرات السنّ.

اهتمَّ الدكان بتوفير نوعيات عالية الجودة.. فهناك تلك المصنوعة من "الشيفون" الخالص، وتلك المصنوعة من الحرير الأبيض، والتي يمكن صبغها لتتناسب مع أي طقم من الأثواب القصيرة والسراويل. وهناك تلك الخاصة

بالعرائس.. بألوانها الحمراء والوردية والنبيذية؛ وتلك الناصعة البياض ذات التطريـز الخفيـف الدقيق المخصصة لأرامل العائلات العريقة. وتلك الملوّنة، المطـرزة برسـومات تقليديـة، والتـي تشتريها الأمهات، ويحتفظن بها لترتديها بناتهن عقب الزواج.

والعديد من الأنواع الأخرى..

يتميز "جوكل" بقدرته على التعامل مع جميع الزبونات اللاتي يترددن على الـدكان. ورغـم قدرته تلك ومعرفته الواسعة بالمنسوجات المتعددة، فإنه أبعد ما يكون عن الغرور. والحقيقة أنه في حالة رعب دائم من "مهاجان"، ولا يكلُّ من تنبيه "هاري" بأن يتوخى الحـذر في كلامـه وتصرُّفاته، حتى لا يُغضِبه.

نظر إلى "هاري" وقال:

- اصمت يا "هـاري"! كيـف تـتكلَّم عـن "مهاجـان" هكـذا؟ وبـأعلى صـوتك أيـضًا؟! لقـد أصبحتَ كثير الثرثرة.. سيسمعونك يومًا ولن يتوانوا عن طردك. لسانك الطويل هذا لن يجلب لك إلّا المصائب يا بنيّ.

كان "جوكل" يبتسم وهو يقول ذلك.

له وجهٌ مريح، ورأسٌ مقبَّب، تغطيه خصلات قليلة من الشعر الخفيف.

ابتسم "رامتشاند" ابتسامة خفيفة.

في تلك الأثناء، كان "تشاندر" يفتح دولابًا وراءه. كـلُّ جـدران الـدكان إمّـا مغطـاة بـأرفف عديدة أو ببعض الـدواليب التـي يـتمُّ إقفالهـا بالمفـاتيح، والتـي يحفظـون بـداخلها الأثـواب الباهظة الثمن، أو تلك فائقة النعومة.

وفيما كان الثلاثة يتكلَّمون، ظل "تشاندر" صامتًا تمامًا، ولا يعيرهم أدنى انتباه. كـان رجـلًا هادئًا، مفرط الطول، وله "تفّاحة آدم" بارزة جدًّا. كثير التغيُّب عـن العمـل. لا تفارقـه الكآبـة أبدًا. كثيرًا ما يوبّخه "مهاجان" لقلَّة حـضوره إلى الـدكّان، أو لأيّ سـبب آخـر. في كـل الأحـوال، يتلقّى إهانات "مهاجان" بهدوء بالغ، وهـو ينظـر أمامـه إلى شيء غـير محـدّد، ويعـضُّ شـفته السفلى، ويلزم الصمت إزاء أسئلة "مهاجان" الحانقة.

أما أكبر اثنين في المكان، فهما "شيام" و"راجـيش"، اللـذان يعمـلان في "سـيفاك" منـذ زمـن طويل. لـ"شيام" شعرٌ أشيب ووجهٌ نحيل، وأسنان أمامية مفلوجة. أمّا "راجيش" فرجلٌ ممتلئ الجسد، له عينان دامعتان تعانيان من احمرار دائم.

يحرص الرجلان على عدم التدخّل في شؤون أحد. يتبـادلان الحـديث بـصوت خفـيض عـن ارتفـاع الأسـعار، والنـسب المئويـة للفوائـد المرتبطـة بقـروض البنـوك، وأمـاكن بيـع الأجهـزة الكهربائية بأفضل الأسعار.

يحصلان على أجر أعلى بقليل من أجور الآخرين في الدكّان. الكلّ يعلم ذلك، لكن أحـدًا لم يتطرق للموضوع قط؛ ولا حتى الرجلان ذاتهما.

لـ"شيام" ابنةٌ شابّة يتمنى تزويجها لابن "راجـيش". يعـيش الـرجلان في عـالم خـاصّ بهـما، أقرب للطبقة المتوسطة. يخرجان معًا لشرب الشاي أو تناول الطعام، وعند كلامهما عـن بقيـة العاملين في الدكان، يشيران إليهم بـ"الأولاد"، بمـن في ذلـك "جوكـل"، الـذي يـصغرهما بـأعوام قليلة فقط.

أمضى "رامتشاند" الصباح بأكمله في ترتيب البضاعة الجديدة.

حضر "بيمسن سِتّ"، صاحب الدكان، في حوالي الساعة الحادية عشرة. كان جدّه "سيفاك رام" هو مؤسّس الدكّان. ورثه "بيمسن" عند بلوغه العشرين. في تلك الفترة، جاءه "مهاجان" باحثًا عن عمل. كان فتى في الخامسة عشرة تقريبًا. منحه "بيمسن" وظيفة، وترقّى حتى وصل إلى منصبه الحالي مديرًا للدكّان.

أثبت جدارته خلال الأعوام الثلاثين التي أمضاها في المكان. برهن على أمانته، وأنه يمكن الاعتماد عليه، ويستطيع إنجاز أيّ مهمة مهما بلغت صعوبتها.

لم يكن "بيمسن"، في معظم الأحيان يحضر للدكان يوميًا، فوقته المزدحم بإدارة أعماله الأخرى لا يسمح له بذلك أصلًا.

لم يكن "رامتشاند" متأكدًا مما إذا كان "ستّ" هو لقب عائة "بيمسن"، بالفعل، أم إنها صيغة احترام.

سأل "جوكل" عن الأمر، لكنه أيضًا لم يكن يعرف الإجابة، ولم يجرؤ "رامتشاند" على أن يسأل أيّ شخص آخر.

في المرّات القليلة التي يحضر فيها "بيمسن" إلى الدكان، كان يجلس بعظَمة في أحد أركان الطابق العلوي، محاطًا بصور مختلفة لعدد من الآلهة، وأعواد بخور مشتعلة. يمسك بمئات الروبيات، ويعدّها بأصابعه الغليظة.

كان "رامتشاند" يراقبه بطرفي عينيه أحيانًا. عادةً، يكون "بيمسن" منشغلًا بعدّ وتقليب أطراف الأوراق المالية، وإذا رفع عينيه وصادف نظرات "رامتشاند" المتلصّصة، كان يمنحه ابتسامة بطيئة بشفتيه الممتلئتين. ابتسامة تكاد تجمد الدم في عروق "رامتشاند".

كان يجد في سلوك "بيمسن" المتعطّف شيئًا غير قليل من الشرّ.



في الجانب الآخر من "آمر يتسار"، بعيدًا عن المدينة القديمة، تقع منطقة تضمّ منازل العديد من كبار الموظفين الحكوميين، والأطبّاء، وبضعة رجال أعمال. منازل جديدة، حديثة، رحبة.. بحدائق أمامية وأخرى خلفية وراء المطابخ.

في أحد تلك المطابخ، وقفت مسز "ساندو" تراقب الحليب وهو يغلي على موقد الغاز. امرأة سمينة، بيضاء، بتقاطيع صافية وشعر طويل لامع، مصفف بعناية على شكل كعكة.

المطبخ الذي تقف فيه شديد النظافة، ومزوّد بأحدث الأجهزة. أسطحه الرخامية لامعة وبرّاقة. أواني الطهي، ماركة "هوكينز"، مرتّبة في صفوف مستقيمة فوق الأرفف. ليس هناك أيّ بقعة على فرن الـ"مايكروويف"، ولا أثر لأيّ قذارة على الأرض.

زوجها هو كبير المهندسين في مجلس كهرباء ولاية "البنجاب". الكثير من صغار العاملين في المجلس يترددون على منزله للعمل طهاة وخدم، ويحرصون على إبقاء البيت في أعلى درجات النظافة.

كانت الأسرة تعيش قبل ذلك في منزل حكومي داخل ما يُعرف بـ"مستعمرة الكهرباء"، ثم قاموا ببناء هذا البيت والانتقال إليه قبل فترة وجيزة.

اهتمَّ "مستر ساندو" بالمسكن الجديد اهتماما بالغًا، فتولّى تصميمه بنفسه وقام بفرشه بأفضل وأحسن قطع الأثاث؛ فالفكرة من ورائه هي أن يعرف الناس جميعًا، حتى بعد أن يتقاعد، أنه كان يشغل منصبًا مهمًا؛ ولذلك فإن المنزل الكبير مصمّم وفق أحدث الطرز المعمارية. أرضيات الحمامات من الجرانيت الفاخر. فتحة مقوّسة تؤدّي إلى غرفة الجلوس، التي تنزل إليها بسُلَمٍ صغير.. مجرّد خطوتين أو ثلاث. الأرضيات مغطاة بالسجاد الفاخر الذي تمّ جلبه خصّيصًا من "كشمير". الأبواب كلّها مصنوعة من خشب "التيك". جميع قطع الأثاث والأقمشة التي تكسوها، اختارها "مستر ساندو" شخصيًا.

علّق الكثيرون بأنه من الغريب أن يستطيع موظف حكومي، مهما علت مكانته، تحمّل تكاليف مثل هذا المنزل الفخم؛ صحيح أن العائلة تمتلك بعض العقارات، إضافة إلى قطعة أرض في قريتهم، ولكن.. مع ذلك... (هنا كانوا يتبادلون نظرات ذات مغزى) ويضيفون: "في هذه الأيام.. أيّ موظف حكومي لا يأخذ شيئًا كـ"هدية محترمة" مثلًا؟".

هناك كبير مهندسين آخر، قام ببناء منزله على مقربة من عائلة "ساندو". لكنه فعل ذلك خطوَّة خطوة. في البداية، ادّخر ما يكفي لشراء قطعة الأرض. ثم قام لبضع سنوات بادّخار مبلغ آخر، ليتمكن من البدء في عملية البناء.

بعد خمس سنوات، أحضر بعض النجّارين ليصنعوا عددًا من الخزانات والأرفف، واستطاع أخيرًا أن يتخلّص من الدواليب القديمة، المصنوعة من المعدن الرخيص، لكنه لم يستطع تغيير سيارته الـ"فيات" بالغة القِدَم بأخرى أحدث.

كما أن البيت ـ بأكمله ـ لا يحتوي إلّا على سجادة واحدة، ليس بها أيّ شيء مميز، وُضعت في غرفة الجلوس؛ أما الأثاث فلا يزال يتكون من القطع القديمة نفسها التي رفضت زوجته الاستغناء عنها لتعلّقها بها. كما أنه لا يمتلك من المال سوى مبلغ صغير يحتفظ به في أحد البنوك.

يقول من حوله عنه إنه رجل غير عملي، وأنه أقلّ الناس حكمة، وأكثرهم حماقة.

تعتقد مسز "ساندو" أنها تحتلّ مكانة متميزة.

صحيح أنها بدينة، لكن ذلك يجعلها بلا شكّ أفضل من النساء الأخريات العجفاوات، ذوات البشرات السمراء الغامقة، خشنة الملمس؛ أو أولئك ذوات الشعر الخفيف الضعيف.

تمتلك بيتًا أنيقًا ومكانة اجتماعية رفيعة، تقاطيع جميلة، وزوج مُحِبّ يوليها كل الاهتمام والرعاية.. ما الذي تريده أيّ امرأة أكثر من ذلك؟ ترغب فقط في أن يحقق الولدان مستوى التفوق العلمي الذي تتمناه لهما.

أطفأت الموقد، فهبط مستوى الحليب في الإناء. صبّته بحرص في كوب معدنيّ طويل، وملأته حتى الحافة.

ترجرجت طبقات الشحم في جسدها، وهي تسير متمهلة باتجاه غرفة ابنها، حاملةً الكوب الساخن بين يديها. كان الباب مفتوحًا قليلًا. دفعته ومشت على أطراف أصابعها إلى المكتب الذي يجلس وراءه، مستذكرًا دروسه.

قالت مشجّعة:

- "مانو".. اشرب الحليب يا صغيري.

نظر "مانو" إليها. كان مراهقًا طويل القامة، بركبتين بارزتين، بدأ شاربه في الظهور. يـستعد للتقدم لامتحانات القبول في كلّية الطبّ. كل العيون مسلّطة عليه، تحيط به دعـوات ومحبّـة أبويه الفخورين والقلقين.

تناول الكوب من يدها، وأخذ رشفة.

وقفت مسز "ساندو" منتظرة. طبقات الشحم رابضة في مكانها بترقب، وفمها مفتوح.

- يع!!

صاح الفتى باشمئزاز، وهو يعيد الكوب إلى يدها.

- أحضرتِ الحليب دون أن تقومي بتصفيته، أليس كذلك؟ أنتِ تعرفين جيّدًا أنني لا أحبّ قشدة الحليب. خذيه.

عاود القراءة، دون أن ينظر إليها.

رجعت من فورها إلى المطبخ وأخرجت المصفاة الحديدية الصغيرة، التي أهدتها إيّاها أمّها عندما تزوجت. فكّرت برضا بأنها لا تزال بحالة جيّدة.

قامت بتصفية الحليب في كوب آخر. بقيت القشدة المزعجة في المـصفاة. حملـت الكـوب الجديد إلى حجرته. كان منكبًّا عـلى أوراقـه وكتبـه يقـرأ مـا فيهـا بتركيـز. تتحـرك شـفتاه دون صوت. أخذ الكوب منها، دون أن يرفع عينيـه. ارتـشف الحليـب بـبطء، ولم يعلّـق. انـسحبت بهدوء من أمامه.

رنّ التليفـون في غرفـة الجلـوس. هرعـت إليـه وهــي تـدعو ألّا يكـون صـوته قـد أزعـج "مانو".

كان زوجها على الطرف الآخر. يتصل من مكتبه. بدا حسن المزاج فقد تلقى للتوّ رشوة مقنعة على هيئة "هدية محترمة". سأل زوجته بلطف عمّا يفعله ابنهما الأكبر. أجابت بفخر:

- يدرس.



على بعد منزلين، جلست مسز "جوبتا" في حجرة نومها، على سرير كبير مغطى بلحاف من "الساتان" الناعم، بلون الخوخ الفاتح.

امرأة في أواخر الخمسينيات من العمر، إلّا أنها تبدو أصغر من ذلك بكثير بفضل النظام الغذائي المدروس الذي تتبعه، والتمارين الرياضية التي تمارسها بانتظام. بشرتها فاتحة جدًا، حتى توشك أن تكون شفّافة. تحاول أن تداري عيوب شعرها الخفيف بعدم إطالته. يلامس كتفيها بالكاد، وتربطه إلى الخلف باستخدام مشبك شعر. لو أن امرأة أخرى في مثل عمرها صففت شعرها بتلك الطريقة، لبدت سخيفة ومتصابية. لكن التسريحة - في الحقيقة - تتماشى مع شخصيتها القوية وثقتها العالية بنفسها، ومع خطواتها الخفيفة وخصرها النحيل.

عيناها صغيرتان، وأنفها معقوف بعض الشيء. تكره هذين العيبين في وجهها، لكنها تدرك جيدًا أنها، بصورةٍ عامّة، تتمتع بمظهر جيّد.. رشيقة، أنيقة، محترمة، وتنتمي لعائلة ثريّة.

نظرت إلى الرفّ المثّبت على الحائط. تأمّلت تماثيل الكريستال الموزعة عليه.. مزهرية صغيرة رشقت فيها بعض الورود البيضاء المستوردة، وآلة كمان دقيقة الحجم والتفاصيل، وامرأة تؤدّي حركات راقصة.. وتحف أخرى لطيفة

وبديعة. الكريستال هو أحدث صيحة في عالم الزينة المنزلية. وهي حريصة على إضافة المزيـد إلى مجموعتها كل فترة.

فكّرت قليلًا.. ربّما كان من الأنسب أن تنقل هذه القطع الفنّية إلى غرفة الجلوس، فلا أحد يراها هنا.

عكست المرآة الكبيرة، أعلى التسريحة، منظـر الغرفـة ومحتوياتهـا. الفـراش الكبـير، الـذي تعلوه خلفية من المخمل الأحمر. تماثيل الكريستال.. الطاولتان الصغيرتان على جانبي الـسرير، السجادة ذات اللون النحاسي.. الستائر المنقوشة بالمربعات الملونة.

عكست المرآة أيضًا مسز "جوبتا"، وهـي تجلـس بزهـو عـلى فراشـها، مـستغرقة في تفكـير عميق.

على سطح التسريحة، أسفل المرآة مباشرَة، علبـة مـن كـريم "لوريـال" المقـاوم للتجاعيـد، ومنظّف البشرة "لاكمي"، والعديد من دوائر الـ"بيندي"[1] الحمـراء، التـي تحـرص عـلى تـزيين جبينها بها، وزجاجة عطر كبيرة. كما يصطف عليها عدد من أحمر شفاه "ريفلـون"، بـالعبوات الملساء المتميـزة ذات اللـون الأحمـر.. تبـدو كجنـود مـن الأقـزام الـواقفين بانتبـاه، متـدثرين بمعاطفهم الحمراء.

تلك هي الأشياء التي تـستخدمها يوميًـا. أمّـا بقيـة مستحـضرات التجميـل التـي تمتلكهـا، فمرتّبة بعناية داخل الأدراج.

(1) "بيندي": كلمة هندية تعني نقطة أو قطرة، وتطلق عـلى الـدائرة الحمـراء التـي توضـع منتـصف جبهـة السيدات، وبخاصة الهندوسيات.

سمعت مسز "جوبتا" مؤخرًا عن فلسفة الـ"فينج شوي"[2] الصينية في إحدى الحفلات، أعجبتها فكرة ترتيب الأشياء وفق نظام معين يعمل على تدفق الطاقة الإيجابية حول الإنسان، وتخليصه من التوتر. أخبرت زوجها عن الأمر:

- إنه الصورة الأحدث من الـ"فاستو شاسترا" في ثقافتنا، وهناك كتب عنه بالإنجليزية. لقد طبّقت مسز "بنداري" الـ"فينج شوي" في بيتها. أعدّت حديقة صخرية في الموقع الذي حدّده الكتاب لها.

لم تكن مسز "جوبتا" تملك الوقت الكافي لقراءة الكتب، لكنها راحت تسأل الآخرين عن هذه الفلسفة وكيفية تطبيقها، ثم أدخلت الكثير من التغييرات والإضافات على مسكنها، وعلّقت أجراسًا صغيرة على مدخل حجرتها، ترتطم ببعضها وتصدر رنينًا جذّابًا مع كل هَبّة هواء.

مرّت بأصابعها، في شرود، على اللحاف الناعم. ارتسمت ابتسامة سعيدة على شفتيها المصبوغتين. لقد تمّ الاتفاق مؤخرًا على زواج ابنها الأكبر "تارون"، وهي راضية تمام الرضا عن هذه الزيجة.

العروس تُدعى "شيلبا". فتاةٌ خجول وجادّة. ليست جميلة بالمعنى المتعارف عليه، لكنها بيضاء ولها جسمٌ رشيق. قالت مسز "جوبتا" لنفسها إن هاتين الصفتين هما الأهمّ، أما الباقي فيمكن التغلّب عليه بوسيلةٍ أو بأخرى. البنت هادئة الطباع، ولديها استعداد دائم لخدمة وإسعاد الآخرين. تتمتع بالحياء والخجل، عكس فتيات هذه الأيّام اللاتي يتّسمن بالتهوّر والفظاظة.

---

(2) "فينج شوي": فلسفة صينية قديمة تتعلق بترتيب الأشياء وفق نظام معين، يحقق الانسجام في البيئة المحيطة بالإنسان، ويعمل على تدفق الطاقة الإيجابية حوله، ليخلصه من التوتر.

يمكن تطويعها بسهولة، إلّا أن أهمّ ما يميزها على الإطلاق هو ثراء والدها وسُمعته المحترمة في دنيا الصناعة.

الأوضاع في العائلتين متطابقة تمامًا، ولذلك فلن يكون هناك مشكلات بين العروسين أو بين أفراد الأسرتين. وربّما ـ في فترة لاحقة ـ يمكن لـ"تارون" أن يدخل شريكًا في أعمال إخوة زوجته.

لدى مسز "جوبتا" الكثير من الأمور التي تشغل بالها، كالتخطيط الكامل لحفل الزفاف. ابنها الأصغر "بونيت"، والذي يعمل مهندس كمبيوتر في "أمريكا"، سيأتي خصيصًا لحضور العرس. سيساعدها في إتمام التفاصيل التي ترغب بها، بالطبع.

كما أن لـ"مستر جوبتا" العديد من الصلات والعلاقات بمختلف الناس، كونه رجل أعمال ناجحًا، يعرف كيف يدير الأمور. سيتولى الأمور العملية، كتوجيه الدعوات للمعارف، والحصول على خصم كبير في محلات المجوهرات وشركة توريد الأطعمة وتأجير الخيام. لكن مسؤولية التسوّق تقع على عاتقها وحدها.

كانت عائلة "جوبتا " قد ناقشت تفاصيل العرس بشكل مفصّل وصريح مع والديّ "شيلبا". واتفق الجميع على أن يكون عدد الحفلات ثلاثًا. سيتمّ دمج حفل النساء مع حفل الحناء في ليلة واحدة. تتبعها ليلة الزفاف، ويعقب ذلك حفل استقبال؛ ولذلك، عليها أن تجهّز لنفسها ثلاثة أزياء، مع ما يناسب كل منها من مجوهرات. عليها أيضًا أن تقرّر ما ستبتاعه من ملابس ومجوهرات لـ"شيلبا"، لتحضر بها الحفل الأخير. فوفقًا للتقاليد فإن كل ما تلبسه العروس بعد زفافها مباشرةً يجب أن يكون هدية من والدي زوجها. يلزمها أن تفكر كذلك في الثياب التي سيرتديها "تارون".

قرّرت مسز "جوبتا" أيّ مجوهرات ستتزين بها ليلة زفاف ابنها. كانت تمتلك طاقمًا من الذهب المرصع بحبّات الزمرّد. ستشتري "ساري" من الحرير يتماشى معه. لا يمكنها أن تترك شعرها منسدلًا، رغم أن ذلك يجعلها عادّة تبدو أصغر عُمرًا. لكن أم العريس لا تصفف شعرها بتلك الطريقة أبدًا.

تنهدت وعاودت التفكير بعملية التسوّق. بدايّة، عليها أن تطلب من الخيّاطين تفصيل عشرين طاقمًا من الأثواب القصيرة والسراويل لـ"شيلبا"، وأن تشتري لها عشرين "ساري" أيضًا. ثم هناك إن قطع "الساري" المختلفة التي ينبغي أن تهديها لأقربائها هي، وبعض الأقمشة لرجال العائلة، بالإضافة لعدّة أنواع رخيصة للخادمات.

فكّرت بحماس:

- الكثير من التسوّق والتبضّع والشراء!

منذ يومين، تحدّثت إلى والدة "شيلبا" على التليفون، واتفقتا على أن تقوما بشراء كل ما تحتاجان إليه من "سيفاك بيت الساري". تمنّت ألّا تقابل أحدًا من عائلة العروس وهي هناك، إذ سيكون موقفًا محرجًا أن تضطر إلى الفصال في الأسعار أمامهم.

ليس من الممتع أن تفكر في هذه المسائل بمفردها. رغم أن الكثير من أهلها موجودون معها في "آمريتسار"، فإن العائلة بأكملها تستعد لعرس ابنة أختها التي ستتزوج بعد عشرة أيّام. سيتهمونها بالأنانية إن هي بدأت بالحديث عن حفلات ابنها قبل انقضاء الأيام العشرة القادمة.

مدّت مسز "جوبتا" يدها إلى التليفون اللاسلكي الذي أحضره "بونيت" في أول زيارة له من "أمريكا". اتصلت بمسز "ساندو". أجابت الأخيرة بعد أول رنة. قالت فور أن تعرّفت إلى الصوت:

- آلو.. كيف حالك؟

- أنا بخير.

- هل بدأتم في إتمام تجهيزات العرس؟

كانت أم العريس قد أنبأتها بالخبر السارّ، عقب الاتفاق على الأمر مباشرةً.

- كلّا.. الوقت ضيّق، بسبب زفاف ابنة أختي الذي سيُعقد بعد عشرة أيام. العائلة كلها مشغولة بعض الشيء، لكنني انتهيت من تجهيز أموري منذ مدّة. لحسن الحظ تخلصت من عبء التفكير في زفاف واحد على الأقل!

علقت مسز "ساندو" بانبهار حقيقي:

- هذا أكثر ما يعجبني فيكِ يا مسز "جوبتا"! عليّ أن أعترف بأنك منظمة جدًا.

أجابتها مسز "جوبتا" باستنكار:

- أنا؟! كلَّا.. غير صحيح.

ثم أضافت:

- في الواقع.. لقد كنت أفكر في الذهاب للتسوّق. هلّا أتيتِ معي؟ هناك الكثير من السواري والأقمشة التي ينبغي عليّ شراؤها.

تذكّرت مسز "ساندو" بأنه يتوجب عليها أن تشتري "ساري" قيمًا تهديه لعروس "تـارون"؛ فحين تزوجت "ميني" ابنة شقيقتها، تمّت دعوة مـسز "جوبتـا" التـي أهـدت العـروس قطعـة جميلة من "الساري" البنفسجي، المطرّز بكثافة.

اقترنت "ميني" بطبيب أسنان مثلها، وفتحا عيادة معًا. كـرسي المـرضى وحـده، كلفهـما مـا يزيد على عشرة آلاف وخمسمائة روبّية.

لم تلبس "ميني" ذلك "الساري" البنفسجي الأنيق قـط. قالـت إنهـا طبيبـة، وصـحيح أنهـا مجرّد طبيبة أسنان، لكن مظهرها يجب أن يكون بسيطًا وعمليًا، وأن ارتداء الأثـواب القـصيرة والسراويل هو الأنسب لمهنتها.

عمومًا، عليها الآن أن تهدي زوجة ابن مسز "جوبتا" "ساري" بالقيمة نفسها تقريبًـا، إن لم يكن أغلى بعض الشيء؛ فتلك المرأة تهتم بمثل هذه الأمور، وتخبر الأخريات عنها.

قالت أخيراً:

- نعم، بالطبع. سأذهب معكِ.

- أوه.. شـكرًا. أنـتِ تعـرفين بـالطبع اسـتحالة أن تـشتري الـسواري بمفـردك، دون أحـدٍ تستشيرينه.

- ليس عليك أن تشكريني أبدًا، فابنكِ في معزّة أولادي تمامًا.

كانـت لا تـزال مـستغرقة في التفكـير بـسعر "الـساري" الـذي أهدتـه المـرأة لابنـة أختهـا. أضافت:

- على كل حال، "مانو" المسكين ذهب لتلقي دروس في الفيزياء والكيمياء ولن يعـود قبـل ثلاث ساعات. والولد الصغير لديه اليوم الرياضيّ المفتوح في المدرسة هـذا النهـار، وسـيتأخر في العودة، رغم أنه...

قاطعتها مسز "جوبتا"، دون اهتمام:

- حسنًا، تعالي إلى منزلي عقب نصف ساعة لنذهب للسوق معًا.

- حاضر.

قالتها، وهي لا تزال تحاول أن تقرّر ثمن "الساري" الذي يتوجب عليها إهداؤه لتلك الفتاة في عرسها. المشكلة أن أسرة "جوبتا" هي الوحيدة التي تعمل في مجـال الـ"بيـزنس" في الحـيّ، وذلك هو ما يجعل تلك المرأة تعتقد أنها الوحيـدة التـي تمتلـك الأمـوال. لكنهـا هـي بـدورها حريصة، بأساليبها الخاصّة، على أن تبرهن أنها ليست أقلّ من أيّ أحد آخر.

قالت مسز "جوبتا":

- سأطلب من السائق إذًا أن يستعدّ.

ثم أغلقت التليفون على الفور.



قال "هاري" مستعطفًا:

- أخـي "رامتـشاند".. يغـالبني شـعور مفـاجئ ورغبـة ملحّـة في تنـاول حبّـة "ساموسـا" ساخنة.

أضاف متفكّرًا، بعد برهة:

- ربّما حبّتان من "الساموسا"..

اربّد وجه "رامتشاند"، وقال:

- اسمعني جيّدًا.. لقد ذهب "جوكل" لتسليم طلبية كبيرة، وإن خرجت أنت أيضًا الآن...

قاطعه "هاري" بسرعة:

- كلّا!.. لن أخرج. أعني.. ليس بالضبط..

قال بعد قليل وهو يغمض عينيه:

- فكّر في الأمر.. تخيّل حبّة "ساموسا" كبيرة وممتلئة وساخنة كما النار. عجينة لذيذة ومقرمشة، محشيّة بكمية وفيرة من البطاطس المهروسة، المتبّلة بقطع الفلفل الحارّ والكزبرة والبصل، ولا تنسى الصلصات المصاحبة.. الصلصة الحمراء الحامضة، وصلصة النعناع الأخضر. "ساموسا" ساخنة وطازجة، تمّ انتشالها من الزيت حالًا.. آه.. آه.. آاااه!

أسالت كلماته لعاب "رامتشاند"، لكنه حاول أن يتحدّث بشكل عقلاني، كما يفعل "جوكل" عادةً:

- اسمعني يا "هاري".. عليك ألّا تقوم بكل ما يمر على بالك..

لكن "هاري" أجابه بنفاد صبر:

- أخي "رامتشاند"! أنا جائع جدًّا!

أضاف مستعطفًا:

- سأجري سريعًا.. آكل.. ثم أجري عائدًا إلى الدكّان. صدّقني. ثم إن هؤلاء الناس القـابعين في الدور السفلي لن يهمهم إن أنا مِتّ جوعًـا.. ألا يكفـي أنهـم يعاملوننـا كالعبيـد؟ ولا تـنسَ أنني سأحضر لك معي حبّة "ساموسا".

قال "رامتشاند" بتردّد:

- نعم.. ولكن...

لكن "هاري" كان قد قام واقفًا. غمز بعينه لصديقه، وأخـذ يمثّـل بمبالغـة أنـه يمـشي عـلى أطـراف أصـابعه. لم يكـن هنـاك أيّ داعٍ لهـذا الأداء المـضحك، إذ لم يكـن في الـدكان، حينهـا، سواهما. تنهّد "رامتشاند"، وغمره شعور هائل بـالتوتّر، أخـذ معـه يطقطـق أصـابع يديـه بـلا توقف.

أحسّ برغبة شديدة في شرب كوب من الشاي، علّه يمنحه شيئًا من الهدوء. تمنّى أن يعـود "هاري" أو "جوكل" قبل وصول الزبـائن الـذين سـيتوافدون عـمّا قريـب. "شـيام" و"راجـيش" خرجا لتناول الطعام. كان بمفرده تمامًا. لو جاءت الآن زبونة واشـترت شـيئًا، فـسوف يتوجـب عليه أن يذهب إلى الدور السفلي، ويكتب لها فاتورة في الدفتر الصغير المزوّد بـورق الكربـون. لم يفعل ذلك إلّا مرّة واحدة فقط، حين كان "مهاجان" خـارج الـدكان. يومهـا، حمـل الفـاتورة وأراها له فور عودته، وأومأ "مهاجان" برضا.

إلا أن الفكرة تشعره بقلق بالغ، ولم يكن يرغب في تكرار الأمر مرّة أخرى أبدًا.

في معظم الدكاكين، لا يتعامـل البـائعون مـع النقـود. فهـذا الأمـر تحديـدًا موكـل لأصحابها ومـديريها. لكـن "مهاجـان" كـان متيقنًـا مـن أنـه لا يمكـن لأحـد أن يغـشّ

أو يسرق في دكان هو مديره. ويردد دائمًا أنه لو اختفى أيّ "ساري"، فسوف يكون أول من يلاحظ ذلك، وأول من سيتصل بالشرطة. وهم جميعًا يصدّقونه، لأنهم يعلمون جيدًا أن نظراته الحادّة لا يفوتها شيء بتاتًا. لم يفكر أحدهم مرّة في أن يبيع "ساري" في غياب "مهاجان"، دون أن يسجّل ذلك، وعلى كل حال، فعند غياب الرجل لأيّ سبب من الأسباب.. كانت مهمة تدوين الفواتير توكل عادةً لـ"شيام" أو "راجيش".

"هاري" هو الوحيد الذي لا يُسمح له بكتابتها؛ ليس لأن "مهاجان" لا يثق في أمانته، بل لأنه لا يثق في عقله، كما يردّد دائمًا، وعادةً ما يضيف:

- هذا إذا كان يملك واحدًا بالطبع!

كثيرًا ما قال محذّرًا:

- يُمنع على هذا القرد الاقتراب من درج الفلوس، لعشر سنوات على الأقلّ. ليس قبل أن يصبح ذلك القرد رجلًا حقيقيًا.

ويردّ "هاري" عادةً:

- ولكن سيّدي.. ماذا لو ظللتُ قردًا إلى الأبد؟

يصيح "مهاجان" بغيظ:

- لو كنت مكانك يا "هاري"، لأحسست بالعار من أن يطلق الناس عليّ لقبًا مثل هذا.. وأنا شابّ كبير في الثانية والعشرين. لكن الأمر بالنسبة لك مجرّد نكتة.. أنت بالفعل قرد عديم الحياء!

بعد أن يبتعد "مهاجان"، يستسلم "هاري" لنوبة ضحك طويلة:

- الواقع أنني قد أتحوّل من قرد إلى رجل، في يومٍ من الأيّام.. لكن المشكلة هي أن "مهاجان" سيظلّ "مهاجان"! هاهاها.. آه.. نسيت أن أسأل مديرنا العزيز عن الطريقة التي يفرّق بها بين القرد عديم الحياء.. والقرد المؤدّب!



بعد أن غادر "هاري"، استند "رامتشاند" إلى الحائط. ضغط بكفّيه على عينيه المتعبتين. لا يعرف لماذا أصبحت نوبات الصداع تهاجمه الآن على فترات متقاربة. هناك أيام يصحو فيها من نومه حوالي الرابعة أو الخامسة صباحًا، ويظلّ مستلقيًا على سريره، محدّقًا في السقف.. يفكّر في أشياء غير محدّدة. حين يفيق من شروده، يكتشف أن الساعة قد أصبحت الثامنة. مَن يكون خلال تلك الساعات الثلاث أو الأربع؟ ولماذا أصبح الدكّان يشعره بالاختناق؟ لماذا يحسّ أن هناك أمرًا خاطئًا يحدث؟ إحساس بأن كل ما يسمعه كذب. أكاذيب كبيرة.. أكاذيب صغيرة.. من الجميع.. طوال الوقت.. يومًا بعد يوم.

يتملّكه دائمًا هذا الشعور الفظيع.. هناك فراغ ما.. شيء ناقص.. شيء لا يعرفه.. ولا يملك القدرة على رؤيته.. لكنه على قدر عظيم من الأهمية.

ذلك الشيء هو الذي يجعله يشعر بهذا التغيير في الدكّان.. وفي كلّ مَن حوله.. بل وفي نفسه هو شخصيًا، وبخاصّة حين يكون بمفرده.

في أحيان أخرى، يشعر أنه إنسان ثالث، لا علاقة له بالشخصيتين السابقتين.. ينتابه هذا الإحساس حين يصحو من نومه في منتصف الليل، في الظلام، يتأرجح بين اليقظة والنوم لعدّة لحظات، قبل أن يستسلم للنعاس.

سمع "رامتشاند" طقطقة السُلَّم الخشبي، وصوت خطوات تـصعد عليـه. لا تُـسمَع هـذه الأصوات إلا في الصباح؛ أمّا بقية ساعات اليوم.. فتختفي تمامًا وسط أمواج السيّدات المتدافعـة داخل الدكّان، وصياح زملائه حين يطلبون من بعضهم إحضار "ساري" معيّن، وقطـع الأقمـشة المتطايرة من يد بائع إلى آخـر. في تلـك الأثنـاء، لا يمكـن للمـرء أن يـسمع أفكـاره، فـما بالـك بالسلالم الخشبية؟

فُتِح الباب الزجاجي، وظهرت مسز "جوبتا"، ومن خلفها مسز "ساندو" وهي تلهث. تـأوّه "رامتشاند": "هل كان عليهما الحضور وأنا بمفردي هنا؟ هاتان الاثنتان لا تتوقفان عـن الكـلام والثرثرة".

وبالفعل، كانتا تتكلمان معًا وهما تدخلان من الباب وتجلسان أمامه.

قالت مسز "جوبتا":

- ألم أقل لكِ؟ النهار المبكّر هو الوقت المثالي للتسوّق.. بعدها تزدحم المحلّات بشكل غـير معقول.. ولا تجدين شيئًا تشترينه.

أجابتها مسز "ساندو":

- صحيح.. ثم إن اختيار الأقمشة، تحديدًا، يحتاج لبال رائق ومكان هادئ.

ابتسم لهما "رامتشاند" ابتسامة مغتصبة، وسألهما عمّا تودّان رؤيته.

قالت مسز "جوبتا" بسعادة:

- بـشرى سـارّة! ابنـي سـيتزوّج قريبًـا.. ولـذلك أريـدك أن تحـضر لي أفـضل وأجمـل مـا عندكم.

تنهّد "رامتشاند". كان هذا الصباح في أوّله هادئًا لدرجة الرتابة، لكنه آخذٌ الآن في التحـوّل بشكل مزعج. تمنّى لو يتوقّف الناس عـن الـزواج وإقامـة الأعـراس كـل يـوم في جميـع أنحـاء المدينة. أحسّ بشيء من الغضب.

انتشل نفسه من أفكاره، وبدأ في انتقاء السواري التي سيعرضها على المـرأتين. أثنـاء ذلـك، واصلت السيّدتان حديثهما الذي قطعه صعودهما السُلَّم. قالت مسز "جوبتا" مبتسمة:

- إنّه الوقت المناسب لزواجه. لقد صار له مصنعه الخاصّ مؤخرًا.. وأعماله تسير من نجاح لنجاح.. نمسك الخشب.

أطبقت مسز "ساندو" كفّيها على بعضهما وقالت في خشوع:

- الفضل كلّه للربّ. علينا أن نحمده على نجاح أولادنا.

أجابتها صديقتها على الفور:

- طبعًا.. طبعًا. أفعل ذلك على الدوام. كما أحرص عـلى إطعـام الفقـراء الموجـودين حـول معبد "شيفالايا"، يوم الإثنين من كل أسبوع.

انتبه "رامتشاند" ورفـع رأسـه فجـأة. معبـد "شـيفالايا".. حيـث كانـت أمّـه تأخـذه وهـو طفل صغير. تسلّلت إلى أنفه رائحة زهور الأقحـوان الـصفراء، التـي يقـدّمها النـاس للآلهـة في المعابد.

واصل انتقاء السواري، فيما راحت مسز "جوبتا" تكمل ثرثرتها:

- أنا أدرك أنني امرأة محظوظة للغاية، ومقتنعة تمامًـا بأنـه يتوجّـب عـليّ القيام بخدمات ملموسة وذات فائدة أكبر للفقراء. تحدّثت مع مسز "بِنداري"

في الأمر، وقامت بتشجيعي. في الحقيقة لديها العديد من الأفكار النموذجية الموجّهة لخدمة المجتمع؛ لكنها.. أعني.. لا بدّ أنّكِ أنتِ أيضًا قد لاحظتِ ذلك.. مغرورة بعض الشيء، ومتكبّرة. ربّما لأنها تتحدّث الإنجليزية بطلاقة. لا يوجد سبب آخر لأسلوبها هذا، فهُم ليسوا أغنياء بالمعنى المتعارف عليه.

قالت مسز "ساندو" وهي تتفحّص "ساري" أصفرَ فاتحًا:

- ومن يهتمّ؟

أومأت مسز "جوبتا" بابتسامة ذات مغزى:

- ربّما تشعر بالنقص.. فهي لم تنجب ذكورًا، مجرّد بنت واحدة. وفوق ذلك فإن تلك الابنة لم تتزوج حتى الآن!

حمل "رامتشاند" إليهما مجموعة أخرى من السواري. مدّت مسز "جوبتا" يدها، بسرعة، واختطفت واحدًا أخضر اللون زُيّن بطواويس راقصة. رفعته أمام صديقتها التي قالت على الفور إنه جميل. سألته مسز "جوبتا" عن ثمنه، ثم احتفظت به جانبًا لنفسها. واصلت المرأتان تفحّص المزيد من الأقمشة.

عاد "هاري" من مشواره أخيرًا، واستقبل النظرة اللائمة التي رمقه بها "رامتشاند" بشيء من البهجة. رفع عاليًا كيسًا ورقيًّا مبقع بالزيت، ليفهمه أنه قد أحضر له الـ"ساموسا" كما وعده.

عاد "شيام" و"راجيش" أيضًا. استمرّت السيّدتان، لساعتين أخريين، في اختيار المزيد من الأقمشة. وخلال ذلك، عاد "مهاجان" أيضًا. بادرته مسز "جوبتا" بخبر العرس، فهنّأها بحرارة. غادرت المرأتان بثلاثة "سوارٍ". وقبيل

انصرافها، التفتت مسز "جوبتا" لـ"رامتـشاند" ومنحتـه ابتـسامة ووعـدًا بزيـارة أخـرى قريبـة، لشراء كمّية أخرى إضافية.

أحسّ براحة عظيمة، بمجرّد أن اختفتا من أمام ناظريـه، وهـما تهبطـان الـسُلَّم بخطـوات حَذِرة. فكّر بانزعاج في صوت مسز "جوبتا" المرتفع ونبراته الحادّة. أكل الـ"ساموسا"، رغم أنهـا كانت قد أصبحت باردةً كالثلج.

كان ذلك مجرّد بداية اليوم.

بعد الساعة الحادية عشرة، تتابعـت أفـواج الـسيّدات. لا يعـرف "رامتـشاند" مـا إذا كـان إحساسه صادقًا بالفعل، أمّ أنّ الصداع هو السبب.. لكن جميـع الزبونـات كُـنّ مُتعِبـات هـذا اليوم، وطلباتهن لا تنتهي. هذه تريد درجة معيّنة ومحدّدة من اللون الأخضر.. وتلـك ترغـب في "ساري" بحوافّ غير عريضة على الإطلاق. و"لا.. ليس كلّ هذه الكمّية من التطريـز". لـيس هناك مجال للشرود أو عدم الانتباه.

مع تتابع ساعات الصباح، أحسّ "رامتشاند" بأن حوائط الدكّان تضغط عليه وتعتصره. بدأ يشعر بصعوبة في التنفّس.

خرج لتناول الغداء الساعة الثانية ظهرًا، بمفرده. من قوانين الدكان ألّا يخرجـوا جميعًـا في الوقت نفسه. اشترى بضعة أرغفة "بوري" مليئة بالزيت من كشك قريب، وجلس يأكلها عـلى مقعد خشبي أمامه.. يهتزّ لأقلّ حركة، أخذ يمضغ الطعام بقوّة!

ابتلع الأرغفة بصعوبة، ثم طلب كوبًا من الشاي.

عادةً، يشربون جميعًا - ومعهم "مهاجان" - الشاي من الكشك المواجه للدكّان، مرّتين يوميًا. مرّة في الصباح وأخرى في المساء. شاي بالحبّهان صيفًا، وبالزنجبيل شتاءً.

يخرج أحدهم رأسه من النافذة، ويصيح طالبًا الشاي. سرعان ما يحضره ولدٌ صغير، بيده صينية معدنية تتّسع لثمانية أكواب. يأتيهم بسبعة. يرسل لهم الكشك فاتورة بثمن طلباتهم، نهاية كل شهر. يقسّم المبلغ على سبعة، ويدفع كل منهم نصيبه.

في بعض الأحيان، يتناول "مهاجان" كوبًا إضافيًا، بمفرده أو بمعيّة ضيف أو صديق. حينها، يحاسب الصبي بمجرّد أن ينتهي.

يتردّد "رامتشاند" على أكشاك الشاي الأخرى المتناثرة في أرجاء السوق. بعضها في أزقّة قريبة من الدكّان، لكنها خارج مجال رؤية "مهاجان"، وخارج نطاق الأصوات المرتفعة المتداخلة في الدكّان. هناك يشرب الشاي بمفرده، وهو يشعر بالاسترخاء والراحة.. يرتشفه على مهل.

بعد الأرغفة كثيرة الزيت، وبعد أن أمسك بكوب الشاي الساخن بين يديه، بدأ يشعر أخيرًا بشيء من الهدوء. ارتشف الشاي العَطِر، وهو يفكّر في الأمر الذي يسبّب له كل هذا التوتّر. يلازمه هذا الإحساس منذ زمن.. لكنه آخذ في الازدياد.

يشعر بأنه يكاد يلمح شيئًا من الحقيقة. ما هي بالضبط؟ لا يعرف. لو أنّه فقط يستطيع أن يفكّر بعُمق وتركيز وجدّية.. لتوصّل لمعرفة ما يؤرّقه. المشكلة أنّه لا يستطيع أبدًا التعبير عن نفسه بوضوح ودقّة. يدرك ذلك جيّدًا. انظر إلى الآخرين.. انظر كيف يتكلّمون بعبارات مفهومة ومترابطة.. كما يفعل "هاري" حين يسرد عليهم تفاصيل "مباراة كريكيت"، أو حين يصف "جوكل" الطريق

لشخص تائه.. أو كيف شرحت له مسز "جوبتا" نوعية السواري التي تريد. كلّهم لا يجدون أيّ صعوبة في الحديث مع غيرهم. أمّا هو، فأفكاره غير مرتّبة. تتطاير داخل رأسه، وتلفّ كدوائر متشابكة، ثم تهبط ثانيةً دون أن يتوصل لأيّ نتيجة.

"بلغتُ السادسة والعشرين.. ولكن يا للطريقة التي لا يزال يعمل بها عقلي!".

أنهى "رامتشاند" كوب الشاي، وحملق قليلًا في زجاج الكوب المبقع"، ما هذه السخافة؟ ما هذا الذي يفكّر فيه أصلًا؟ أيّ حقيقة؟".

دفع ثمن الـ"بوري" والشاي، وهو يشعر بالاضطراب.

توجّه إلى الدكّان، وقد انعكس على وجهه كل التوتّر الذي يعتمل بداخله. عاد في الوقت المناسب لخدمة السيّدتين اللتين دخلتا الدكّان للتوّ. إنه يعرفهما. الأولى هي مسز "ساتشديفا" رئيسة قسم اللغة الإنجليزية في إحدى الكلّيات؛ امرأة قصيرة ذات جسم ممتلئ، ولها صوت أجشّ. تجمع شعرها في كعكة مشدودة بقوّة. من المعروف أنها تكتب بعض المقالات – بين الحين والآخر – في ملحق يوم الأحد لصحيفة الـ"تريبيون". والأخرى هي مسز "بِنداري"، زوجة نائب المفتّش العامّ للشرطة. امرأة جميلة، متعجرفة، في بداية الأربعينيات. تصفّف شعرها بطريقة متكلّفة.. تكوّمه في خصلات مجعّدة أعلى رأسها. كانت قد انتُخِبت ملكة جمال، عندما كانت لا تزال طالبة في الجامعة. حين تتعرّف إلى أُناس جدد، تصف نفسها بـ"الناشطة الاجتماعية"، وكثيرًا ما تتولّى تنظيم برامج خيرية لصالح نوادي الروتاري.

الأمر الذي يتفق عليه كل من يعرفها هو مهاراتها المتعددة ومواهبها الكثيرة. حتّى الأخريات اللاتي لا يُحببنها، لا يستطعن إنكار تلك الحقيقة. فبإمكانها عمل أحلى وأشهى الكعكات. أفضل بكثير من تلك التي تُباع في أشهر

مخابز "دلهي". كما أنّها تجيد التطريز، وتعرف جميع أنواع الغرَز الدقيقة. أمّا أصناف الحساء التي تعدّها.. فلا أطيب منها. بـل إن بإمكانهـا عمـل أنـواع غـير مألوفـة مـن الأطعمـة، مثـل الـ"سـوفليه".. وهذا تحديدًا ما لا تستطيع أيّ امرأة أخرى في "أمريتسار" القيام به.

مسز "بِنداري" تتحدّث الإنجليزية بطلاقة، وتمتلك ذوقًا رائعًا في اختيـار وتنـسيق الملابـس الأنيقة. وهي – فوق ذلك كلّه – صاحبة أنجح حفلات وأفضل سهرات.

المرأتان زبونتان دائمتان للدكّان، إلّا أن "رامتـشاند" لم يقـم بخـدمتهما مـن قبـل. حَيّـاهما بأدب: "ناماستيه". أومأتا برأسيهما ردًّا عليه.

أحسّ "رامتشاند" بقلقه يتزايد. لا شـكّ أن رئيـسة قـسم اللغـة الإنجليزيـة امـرأة واسـعة المعرفة وعميقة الثقافة. أمّا هو، فلم يقرأ إلّا بضعة كتب معدودة اشـتراها مـن بـائع الكتـب المستعملة الذي يقف خلف سينما "سـانجام"، قـرب موقـف الأتـوبيس. وحتـى تلـك الكتـب القليلة، لم تكن بالإنجليزية، وإنما بالهندية.. قصص عن مخبرين سرّيـين، تـزيّن أغلفتهـا رسـوم لمسدّسات وفتيات شـبه عاريـات. قـرأ ثلاثـة منهـا، وظـنّ حينهـا أنهـا ممتـازة ومـشوّقة جـدًّا ومبتكرة. ولكن حين بدأ قراءة الروايـة الرابعـة، أدرك أنهـا جميعًـا مكـرّرة بطريقـةٍ مـا؛ ففـي الكتب الأربعة يحاول الشرّير إجبار البطلة على ممارسة أعـمال غـير أخلاقيـة معـه. يـنجح في ذلك في قصة واحدة، فتُقدم البطلة على الانتحار غرقًـا، عـلى اعتبـار أن المـوت سيخلّـصها مـن العار. أمّا في الكتب الثلاثة الباقية، فيأتي البطل حاملًا مسدّسه في اللحظة الحاسمة، ويـنجح في إنقاذ البطلة والحفاظ على شرفها.

أحسّ "رامتشاند" بالخديعة، حين أدرك أنها كلّها متشابهة. وتوّقف، منذ ذلك الوقت، عـن شراء الكتب.

في أحد الأيّام، مرّ ببقّالة تنبعث منها رائحة خيش.. ورائحة دقيق الحمّص الأصـفر. ذكّرتـه الروائح بأبيه.. وصار يتساءل إن كان لا يزال يتذكّر شيئًا من الإنجليزية التي تعلّمها في صـغره. عاد إلى بائع الكتب نفسه، واشـترى منـه قـصّة أطفـال إنجليزيـة، كتـب عـلى غلافهـا "شـجرة الليمون السحرية". الكتاب الـذي لم تتجـاوز صـفحاته الثلاثـين، كـان مليئًـا بكلـمات معقـدة. وجده "رامتشاند" صعبًا للغاية. استـسلم في نهايـة الأمـر، وتوقّـف عـن قراءتـه. أعطـاه لابنـة صاحب البيت، التي جلست في الحوش تلـوّن أوراق الـشجرة المرسـومة بداخلـه بقلـم تلـوين بنفسجي.

كان ذلك قبل عامين تقريبًا، ومنذ ذلك الوقت لم يقرأ كلمة واحدة أو يلمس أيّ كتاب.

تنحنحت مسز "بِنداري"، فأدرك "رامتشاند" أنه كان يحدّق بها. ابتسم بتردّد، وسألها عـن النوع الذي تودّ رؤيته. يعرف أنها - هي أيضًا - امـرأةٌ ذكيـة؛ سـمع الكثـيرات يـذكرن اسـمها. بعضهن ينطقنه مقرونًا بالإعجاب، وأخريات يلفظنه بحقـد وحـسد. فكّـر "رامتـشاند": "الكـنّ النساء هن النساء". في الحقيقة، لم يكن يعرف معنى تلك الجملة، لكن "جوكل" يردّدها دائمًا.

قال لنفسه بأن وجود هاتين المرأتين هنا اليوم، يعَدّ تغييرًا لطيفًـا.. فالـدكّان يمتلـئ أغلـب الوقت بنوعية أخرى من الزبونات، هن زوجات رجال الأعمال.

جلستا أمامه وطلبتا منه أن يعرض عليهما بعض السواري الحريرية.

أحـسّ "رامتـشاند" بالأمـل. سـيّدتان متعلّمتـان وموهوبتـان، مختلفتـان تمامًـا عـن بقيـة المتردّدات على الدكّان. أخرج بضعة قطع بحماس بالغ، وفردها لهما.

- سيّدتي.. هذه أحدث مجموعة وصلتنا. انظري لجمال هذا البرتقالي.. لاحظي النقـوش الذهبيـة اللـون التـي تـزيّن أطرافـه. مـا رأيـكِ في هـذا الأصـفر إذًا؟ مـا

أحلى التطريز الذي....

قاطعته مسز "ساتشديفا"، وهي تحدجه بنظرات باردة:

- أريد ألوانًا محترمة.. لا برتقالي وذهبي، وما شابه! أريد شيئًا أرتديه في الكلّية، لا في مهرجان القرية!

فكّر "رامتشاند" قليلًا.. لم يكن يعرف شيئًا عن الكلّيات، ولا عن مهرجانات القرى.. ولا حتّى عن ذوق السيّدات في اختيار ثيابهن.

سحب "ساري" آخر، وقال:

- حاضر يا سيّدتي. ما رأيكِ إذًا في هذا الأحمر؟ انظري كيف يتداخل معه اللون الأسود بشكل جميل! هذا التصميم يحظى بإعجاب الجميع.

عقب الجمود الذي علا وجه المرأتين، أحسّ "رامتشاند" بأن قلبه على وشك أن يقع بين قدميه.

أخيرًا، حكّت مسز "بِنداري" طرف أنفها بظفر مصبوغ باللون الوردي الفاتح، وقالت:

- قماش غير لامع، من فضلك.

بدأ "رامتشاند" يشعر ببعض الكآبة..

أخرج "ساري" أخضرَ فاقعًا، كلون الببغاوات، تزيّنه حوافّ مذهبة. تبادلتا، بدهشة، نظرات جانبية. تمتمت مسز "ساتشديفا" بغيظ:

- هؤلاء البشر!! الفهم لديهم عملية مستحيلة!

أحسّ "رامتشاند" بالسخونة في أطراف أذنيه. قالت مسز "بنداري" بتهذيب فائق:

- شيء مختلف عن هذا تمامًا.. أعني.. ألوان أكثر هدوءًا.. أقل صخبًا.

لم يفهم المطلوب بالضبط. لم يكن متأكّدًا ممّا تعنيه. غمره إحساس فظيع.

قالت مسز "ساتشديفا" باستعلاء:

- لون كئيب بعض الشيء.. بُنّي مثلًا، أو رمادي.

تحبّ أن يبدو مظهرها غير مبهرج. عملي تمامًا. لم تكن واحدة من ربّات البيوت التافهات، المزهوّات بأنفسهن، اللاتي يملأن المدينة. هي امرأة متعلّمة. رئيسة قسم اللغة الإنجليزية.

وقف "رامتشاند" لإحضار المزيد من السواري من الرفّ العلوي. أحسّ بنظراتهما تكاد تخترقه، وقد نفد صبرهما. ألقتا نظرة واحدة على الأقمشة التي أنزلها ووضعها أمامهما. رفعت مسز "ساتشديفا" حاجبيها وتنهّدت في ضيق.

أنزل المزيد وقد احمرَّ وجهه من فرط الخزي الذي يشعر به.

تبادلتا نظرات غاضبة، وبدأتا في تقليب المعروض أمامهما في ضيق، فيما راح يجلب لهما المزيد والمزيد..

أخيرًا.. اختارتا "ساري" لونه "بيج"، تتخلّله خيوط من الحرير البُنّي؛ ثم غادرتا الدكان.

جلس "رامتشاند" واضعًا رأسه بين يديه.



حين أغلق الدكان أبوابه أخيرًا، في الثامنة مساءً، اقترب "جوكل" من "رامتشاند" الذي كان يعيد "السواري" إلى أماكنها، وقال:

- هيّا يا صاحبي.. تعالَ لنأكل عند "لاكان سينج".

حاول "رامتشاند" أن يبتسم وهو يمازحه:

- أخي "جوكل".. يبدو أنك صرتَ غنيًا!

أجابه على الفور، باستنكار بالغ:

- أنا؟! غنيّ؟؟ حياتي أصبحت جحيمًا هذه الأيام.. "لاكشمي" ذهبت لعرس شقيق زوجة عمّها. ومثل كل مرة تحضر فيها أيّ حفل، عادت من هناك برأس مملوء بالتفاهات.. وطلبات لا تنتهي.. أريد هذا.. وأريد ذاك.. ليس لدينا الشيء الفلاني.. ونحتاج الشيء العلّاني. والله إن هذا هو ما يحدث دائمًا عقب كل عرس. وفي كل مرّة أقول لها يا "لاكشمي".. يا عزيزتي.. حين ترين ما يملكه غيرك، لا تحرقي قلبك من القهر والحسرة. ارضْ بما قُسِّم لكِ. تعلّمي أن تسعدي

بما لديكِ. لكنك تعرف كيف تفكّر هي وغيرها من النسوة. هذه المرّة، ترفض الحـديث معـي! علمًا بأنها اشترت "ساري" جديدًا وبلوزة وبعض الأساور، لتحضر بها الحفل. ومع ذلك، ها هي تعود إليّ بوجهٍ منتفخ من شدّة الغيظ. أوَتعرف ماذا قالـت؟ تقـول إن الولـد الـصغير يطلـب حذاءً جديدًا، كذلك الذي يلبسه ابن "جاجو". وليس أيّ حذاء يا عزيزي! تريده "باتا" وبرُباط! تخيّل!! حتى ابننا الكبير الذي يذهب للمدرسة، لم يلبس يومًا "باتا"! ولا يهمّه الأمر أصلًا. ولـو كان الأمر بيده، لسار حافيًا! دعني أسألك.. ما أهمية ماركة الأحذية التي ينتعلها الأطفـال؟ ألا تكفيها الثياب والزينة التي اشترتها قبل زفاف أقربائها؟ هؤلاء النسوة لا يرتحن إلا إذا دفعنـك للجنون. أنا أفهم جيدًا سرّ هذا الغضب. واجهتها بذلك. قلت لها: "لاكشمي".. الولد الصغير لا يتجاوز الأعوام الثلاثة. إنه لا يعرف حتى كيف ينظف أنفه دون مساعدة منّا. لـيس هـو مـن يريد الحذاء الجديد. إنها رغبتكِ أنتِ. لمـاذا؟ لأن نـار الغـيرة أكلـت قلبـك حـين رأيـت زوجـة "جاجو" تتباهى بحذاء ابنها الجديد أمام جميع الأقارب. ما المطلوب مني؟ أنا لست غنيًا مثل "جاجو".. إنه يمتلك محلًا صغيرًا لبيع الأجهزة الكهربائية.. والحقيقة أن هـذا الرجـل أبعـد مـا يكون عن الأمانة. أنا متأكد من أنه يغشّ زبائنه، وينصب عليهم في روبية هنا وروبيتين هناك. قلت لها ذلك. ولكن هل تسمع شيئًا مما أقول؟ إطلاقًا! لا تسمع سوى نفسها وثرثرتها التي لا تنتهي. وفي النهاية.. كما في كل مرّة، ينتهي الأمر بأن تصبّ لعناتها عـلى المرحومـة أمـي. لمـاذا تجرجر أمي المسكينة في الموضوع؟ المرأة ماتت منذ أكثر من ستّة أعوام.

تنهد عميقًا ثم أضاف:

- لن أعود للمنزل قبل انتصاف الليل. ما رأيك أن نتعشى معًا الليلة؟

كان "رامتشاند" على وشك الرفض.. الصداع يـشعره بالـضيق، كـما أنـه بـدأ يحـسّ بطعـم حموضة في فمّه عقب مغادرة مسز "ساتشديفا" ومسز "بنداري" للدكّان. والأهمّ أنـه لم يكـن يرغب بتاتًا في الإنصات لشكاوى "جوكل" طوال الليل.

لكنه ذكّر نفسه بأن "جوكل" لا يستسلم طويلًا لحالة التذمّر هذه.. ثم تخيّل نفسه عائـدًا لحجرته، يطبخ أكلًا عديم الطعم عـلى موقـد الكيروسـين، الـذي تلقـي شـعلته بظلالهـا عـلى الجدران المتقشرة فتزيدها قبحًا، فقال:

- حسنًا. هيا بنا.

التفت "جوكل" إلى "هاري" وسأله:

- هل تأتي معنا إلى مطعم "لاكان"؟

لم يسمعه. كان يجلس على ركبتيه، يمسح بخرقة قديمة بعـض الـشاي الـذي انـسكب مـن كوبه قبل قليل، وهو يغني بأعلى صوته وقـد أغمـض عينيـه في انـدماج مـع الكلـمات. تنهـد "جوكل" في استياء ونفاد صبر، وضربه على ظهره بقوّة وهو يصيح:

- هاري! قم وتعالَ معنا لنأكل.

كان "تشاندر" أيضًا يستعد للخروج من الدكّان. وقف يلفّ الكوفية الـصوفية حـول رأسـه بإحكام.

همس "هاري":

- ألن ندعوه ليأتي معنا؟

أجاب "جوكل" بسرعة:

- كلّا.. كلّا.

بدا منزعجًا. سأله "هاري" بفضول:

- ولِمَ لا؟

قال "جوكل"، بصوت هامس، وهو يحاول كبت غضبه:

- لأنه يخرج كل ليلة مع أصدقائه؛ زملائه القدامى في المصنع الذي كان يعمل بـه قبـل أن يأتي للدكّان هنا. إنهم يشربون ويسكرون.. وهكذا..

أمضى "هاري" وقتًا طويلًا في الاستعداد للخروج. أخيرًا، غادر الثلاثة الدكّان وسـاروا باتجـاه المطعم وهـم يرتجفـون مـن شـدّة الـبرد، مخترقـين الـضباب الآخـذ في التكـاثف. في منتـصف الطريق، قابلوا "سوباش"، ابن عمّ "هاري"، الذي انضمّ إليهم لتنـاول العـشاء. شـابّ ذو وجـه ذكيّ، وضـحكة خـشنة عاليـة. يعمـل في متجـر "ليـديز فانـسي سـتور" القريـب، الـذي يبيـع الإكسسوارات النسائية والأساور الرخيصة والـ"أباجورات" ومستحـضرات التجميـل، إلى جانـب التحف المصنوعة من الزجاج والنحاس والخشب اللامـع، وكـل شيء تقريبًـا.. طالمـا أنـه ملـوّن ومبهرج وبرّاق.

للمحلّ منظر لا يختلف كثيرًا عن البضاعة الموجودة بداخله. يمتلـئ بالمناضـد والواجهـات الزجاجية الفائقة اللمعان، وأركانه مُنارة بأضواء كثيرة.. أكثر مما يجب. يحقـق المتجـر أرباحًـا عالية، لدرجة أن "سوباش" في الشهر الماضي حصل عـلى خمـسين روبيـة إضـافية، زيـادة عـلى راتبه الأصلي.

حيّـا "سـوباش" الرجـال الـثلاث بمـرح، وبـدأ مـن فـوره في سرد قـصّة الزبونـة التي جـاءت ذلـك الـصباح لتتـشاجر معـه، لأنهـا اشـترت منـه قبـل يـوم خيوطًـا

حمراء من النوع الذي يضفّر في الشعر. مساءً، فكّتهـا مـن ضـفيرتها وتركتهـا في الحـمام. حـين استيقظت، اكتشفت أنها قد تبلّلت وفقدت لونها تمامًا. تملّكها غضبٌ شديد، وذهبت للمحـلّ لتصيح وتتشاجر وتطالب باستبدال بتلك الخيوط أخرى جديدة، أو إعادة ثمنها لها.

- لا أستطيع أن أصف لكم، مهما حاولت، كيف راحت تـسبّ وتلعـن! وعـلامَ كـلّ ذلـك؟ على بضعة خيوط تافهة تحبّ النساء تزيين جدائلهن بها! أيّ عقل هذا؟ أصلًا لو تركت آدميًـا منقوعًا في الماء طوال الليل.. لانتهى! فكيف بمجموعة خيوط؟!

أومأ "هاري" برأسه موافقًا.

وصلوا إلى المطعم. المكان أكثر دفئًا بالداخل، بسبب الفرن الذي تنبعث منـه رائحـة خبـز شهيّة. يكتظ بأناس يرتجفون بردًا، يجلسون على دكك منخفضة ومقاعد بلاستيكية، يتـدفؤون بشرب الشاي الساخن الذي تنشر رائحته الممزوجة بالحبّهان إحساسًا بالراحة في أرجاء المكان. في إحدى الزوايا، طاولة بكرسيين خاليين من جهة.. وسرير قديم بحبال مشدودة عـلى هيكلـه، من الجهة الأخرى. أسرع الرجال الأربعة بالجلوس حولهـا. تعـود شـهرة المطعـم الـذي يـديره صاحبه منذ ثلاثين عامًا إلى استخدامه السمن الطبيعي الصافي في إعداد كل الأطعمة.

بعد أن اتخذوا مجلسهم، اقترب منهم "لاكان سينج" ليدوّن طلباتهم. رجل سـيخي طويـل القامة، لا تفارق الكآبة وجهه أبدًا. له شامة كبـيرة أعـلى حاجبـه الأيـسر، ويـدان معروقتـان.. ترتجفان أحيانًا.

كان قد فقد ابنيه خلال عملية "النجم الأزرق" التي دارت في المعبـد الـذهبي عام 1984. بعد تلك الحادثة، توقف عـن تقـديم طبـق الـــ"بـانير ماسـالا" لـروّاد المطعم. وكثيرًا ما اعتذر لهم بالقول إن تلك الأكلة كانت المفـضّلة لولـده الأصـغر.

وفي كل مرة، لا بدّ أن يضيف أن الولد الكبير لم يكن له طبق مفضّل.. لأنه كان بسيطًا في جميع طلباته.

يتناول "رامتشاند" طعامه هنا في أحيان كثيرة، لكنه يشعر دومًا بقدر من الارتباك في وجود الرجل العجوز.

طلبوا جميعًا عدسًا وخبزًا، وجلسوا ينتظرون. واصل "سوباش" حديثه عن الضفائر الصناعية والنسوة ذوات الطباع السيئة.

تزايد صداع "رامتشاند". ورغم أنه بدأ يشعر بالدفء، فإن أصابعه كانت لا تزال متجمدة من البرد، وكذلك "هاري" الذي أخذ يفرك كفّيه ببعضهما، وينفخ فيهما بأنفاسه الدافئة. لمح عيني "رامتشاند"، فسأله باهتمام:

- ما بك يا أخي؟ هل مزاجك سيئ؟

أجابه "رامتشاند":

- لا يا صديقي.. مجرّد صداع.

علّق "جوكل" ضاحكًا:

- أيّ صداع؟ ما بالك تتحدّث كامرأة عجوز؟

ابتسم "رامتشاند"، وبدأوا في تبادل الحديث. وصل الطعام، ساخنًا وطازجًا، مما أسعدهم جميعًا. أحضر لهم صبي صغير، من العاملين في المطعم، صحنًا معدنيًا به شرائح بصل وبعض المخللات.

في الخارج، ازداد الظلام حلكة، وانخفضت درجات الحرارة أكثر، وتكاثف الضباب. أغلقت المتاجر أبوابها، وأنزِلت واجهاتها الحديدية، وتمّ تثبيت الأقفال بها. بدأ الناس في العودة لمساكنهم. ارتفعت أصوات عربات الـ"توك توك"، وتعالى الضجيج حول إشارات المرور.

ارتفعت أيضًا أصوات الرجال الأربعة المجتمعين بالداخل. تناولوا الكثير من الشاي. كوب يلو الآخر. ازدادت الأجواء حميمية.. الكثير من الضربات اللطيفة على الظهر، والمزاح الصاخب، وقصّ الحكايات والنوادر.

بدأ "رامتشاند" يشعر بالتحسّن.

قام "هاري" بتقليد "بيمسن سِتّ" بإتقان بالغ. أرخى جسمه في كسل على الكرسي، وتظاهر بأنه يلبس نظارة طبية، يوزع من فوق حافتها نظرات متفحصة. صاح طالبًا الشاي، مثله تمامًا، بصوت غليظ. ثم راح يتظاهر بعدّ نقود وهمية، وهو يحرّك أصابعه بسرعة.

استغرق "سوباش" في الضحك، حتى كاد يسقط من على المقعد.

تحدّث "جوكل" عن "لاكشمي" ثانيةً. ولكن بشكل هزلي هذه المرة، كما لو كانت أظرف نساء الدنيا. قال إنها امرأة غير منطقية، وإنها تستدعي خلافاتهما القديمة حين تغضب لأي سبب. تتشاجر بلا مبرر، ثم تبادر بمصالحته دون تفسير. لديها هوس باستخدام بودرة التلك، بشكل مفرط. تعشق تطريز أغطية الوسائد، وتتملّكها رغبات عديدة، غريبة.

ضحك طويلًا، كأنه شخص آخر.. غير ذاك الذي كان يغلي من الغضب منذ ساعات قليلة.

ثم قصّ عليهم "رامتشاند" ما حدث صباحًا مع "مهاجان". أخبرهم عن الأصوات الناجمة عن قفزاته وهو يحاول خلع الحذاء؛ وكيف راح "مهاجان" يصيح به من الطابق السفلي.

أخذ يضحك بقوّة وهو يحكي تفاصيل الموقف.. كأنه لم يكن مرعوبًا حينها.

في النهاية، وسط القهقات المتواصلة، استطاع "سوباش" أن ينتزع من كل واحد منهم وعدًا بالذهاب إلى سينما "سانجام" الأحد المقبل، لمشاهدة إعادة عرض فيلم "هيرو نمبر وان". طلب الجميع المزيد من الشاي، وظلوا يتسامرون حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة. وأخيرًا، وقف "جوكل" وأعلن:

- أظن أنه يتوجب عليّ أن أغادر الآن، وإلّا ستبدأ "لاكشمي" في سبّ جميع أفراد عائلتي، لا المرحومة أمي فقط!

تعالت قهقهاتهم من جديد، وهم يرونه يخرج متعجلًا. غادر "هاري" و"سوباش" بعده بقليل، وهما يتبادلان الضحك على شيء لم يتبينه "رامتشاند".

بدأ يفقد شيئًا من المرح الذي انتابه الليلة. تابعهما وهما يبتعدان، ويغلّفهما ضباب الليل البارد. ثم سار بمفرده، عائدًا إلى مسكنه.



بمجرّد أن صار بمفرده، فقد كل المرح والخفّة اللذين أحسّ بهما الليلة. الضباب الخفيف الذي كان يلفّ المكان في أول الليل، صار ثقيلًا وغليظًا. بدت الشوارع مهجورة. سار "رامتشاند" ببطء متجهًا إلى حجرته. بدأ يشعر بالاضطراب. الإحساس القديم نفسه الذي يختبئ في ثنايا روحه وجسده على الدوام؛ يتمدّد بين رئتيه.. يسبح في دمه.. يهاجمه الآن بقوة أكبر، أكثر من أيّ

وقت مضى. احتقر نفسه للسهرة التافهة، العقيمة، التي أنفق وقته فيها. راجع أسلوبه وتصرفاته خلالها.. سلوك رخيص ومبتذل. الطريقة التي كان يضرب بها "سوباش" ممازحًا! والطريقة التي كان يضحك بها على نكات ودعابات "هاري"! ما هذا؟ لمَ فعل كل ذلك؟ تذكّر مسز "ساتشديفا" ومسز "بنداري". شعر بالتقزّز الغثيان. منهما.. ومن نفسه. فكّر في كل ما مرّ به خلال ذلك اليوم. بدت الأحداث غير مترابطة.. وبدا الأشخاص في صورة كاريكاتورية، والأصوات جوفاء وبعيدة. بعيدة جدًا. رأى نفسه شخصية غير مؤثرة.. كائنًا غير مكتمل.. محبوسًا داخل فيلم سينمائي رديء.

قال "رامتشاند" لنفسه أنه قد آن الأوان لوضع حدّ لهذا كلّه.

ما هذا الجنون؟ وأين سينتهي به؟

كلّا.. هذا غير مجدٍ. عليه أن يمسك بزمام الأمور. غدًا يومٌ جديد. سيغيّر كل شيء. لن يظلّ مستلقيًا على سريره كأنه في غيبوبة. سيبدأ في ممارسة التمارين الرياضية، ليكتسب صحة ولياقة. لن يسمح لأحد بأن يخيفه. ولن يذهب لمشاهدة تلك الأفلام التافهة أيام الآحاد مع "هاري" أو غيره.

تسارعت خطواته وهو يواصل التفكير في قراراته الجديدة. كان قد سمع عن مذكرات الـ"مهاتما غاندي".. نعم.. سيكون هذا الكتاب هو مدخله الحقيقي إلى عالم القراءة. وعليه أيضًا أن يقرر بحسم – هذه المرة – ما إذا كان يؤمن بوجود ربّ حقًا أم لا.

وصل إلى البيت أسرع من المعتاد. وقف تحت الضوء المنبعث من عمود الإنارة في الشارع، وأخرج المفتاح الحديدي الكبير من جيبه. تلاشى الضوء شيئًا فشيئًا مع صعوده درجات السلّم الضيّق المؤدّي إلى حجرته، حتى استحال لظلام دامس. فتح

الباب الخشبي القديم بالمفتاح، وخطا داخل الغرفة. تخبطت أصابعه وهو يبحث عن مفتاح الإنارة الكهربائي. أرسل المصباح العاري المعلّق في منتصف السقف نورًا شحيحًا، وألقى بظلال كئيبة على الجدران. استنشق "رامتشاند" الهواء بعمق.

سوف يقوم أيضًا بطلاء هذه الحوائط. وسيستخدم مصباحًا ذا قوّة أعلى. خمسمائة وات مثلًا! سيمنح ذلك للغرفة شيئًا من البهجة والنور، بدلًا من مصباح الأربعين وات هذا، الذي تستحيل معه القراءة.

نعم.. ضوء قوي وجدران نظيفة مطلية.

سوف يتمرن كذلك على التحدّث بالإنجليزية أمام المرآة، كل يوم، لعشرين دقيقة على الأقلّ. من يدري؟ ربما استطاع أيضًا أن يحصل على وظيفة أفضل، في يوم من الأيام.

ذكّر نفسه مجددًا: "غدًا يومٌ جديد".

وفيما كانت هذه الأفكار تتوالى في رأسه، قام بخلع ثيابه ولبس قميصًا طويلًا وسروالًا فضفاضًا استعدادًا للنوم. خلع جوربيه الصوفيين، ودسّ قدميه في فردتيّ الجورب الأزرق العتيق، الممتلئ بالثقوب، الذي يلبسه كل ليلة. استلقى تحت كومة من الأغطية الثقيلة، واستسلم لسبات عميق.

صحى من نومه متأخرًا بعض الشيء صباح اليوم التالي. كانت مدينة "آمريتسار" القديمة قد سبقته في الاستيقاظ. ارتفع صوت مذياع ينقل الصلاة من المعبد الذهبي. قرعت الأجراس في معبد قريب. توالى صياح بائع خضراوات في الطريق، معلنًا أنه يبيع الطماطم الطازجة بستّ روبيات للكيلو، فيما راح

بائع آخر يناول ربات البيوت، اللاتي انتهين منذ قليل من أخـذ حمّامهـن اليـومي، عقـودًا مـن الأزهار الصفراء، ليقدمنها للآلهة في صلواتهن الصباحية.

في الطابق الأرضي، فتح أبناء صاحب البيت جهاز التليفزيون. "رامتـشاند"، الـذي اسـتيقظ شاعرًا بصداع خفيف، أحسّ بأن كل هـذا الـضجيج غـير محتمـل. قـام مـن اسـتلقائه، مزيحًـا الأغطية الكثيرة عن جسده.

امتدت أشعة الشمس الشتوية الضعيفة عبر القضبان الحديدية لنافذته، وتـساقطت عـلى الأرضية الكالحة للحجرة في مستطيلات ذهبية. حاول "رامتشاند" اسـتعادة الأفكـار والقـرارات التي توصل إليها الليلة السابقة. لكنه لم يستطع أن يتذكّر سـوى بعـض الكلـمات البـاردة. ولا شيء آخر. أحس بأن عقله فارغ وأجوف. استمرّ في الجلوس على فراشه المتهالك، مدّة طويلـة، راح خلالها يعبث في أصابع قدميه، ويزيل ما تحت أظافرهما من قاذورات وجلد ميّت.

وبعد فترة من الشرود المتواصل، أدرك فجأة أنه سوف يصل للدكان متأخرًا.. اليوم أيضًا.





وُلِد "رامتشاند" قبل ستّة وعشرين عامًا. في ذلك الوقت، كان والده يمتلك دكّان بقالة صغير جدًا في "أمريتسار". يبيع فيه - ضمن العديد من الأشياء الأخرى - الأرز والبقوليات والشموع والمكانس والسكّر ودقيق الحمّص والمكسّرات المقشورة والبسكوت المصنوع منزليًا. كان "رامتشاند" يحبّ رائحة الأجولة المصنوعة من الخيش، التي تطغى على المكان.

عاشت الأسرة الصغيرة في غرفة ضيّقة خلف الدكان، ملحقٌ بها حمّام متناهي الصغر. جانبٌ من تلك الغرفة خصص للاستحمام، بعد تغطيته بستارة مصنوعة من "ساري" أحمر قديم، مزيّن بورود صفراء. في منتصف ذلك الركن، وضعت بالوعة صغيرة، ودلو وكوز بلاستيكي لصبّ الماء.

الزاوية الأخرى من الحجرة، بها موقد صغير، وتمّ استغلالها كمطبخ. هناك، كانت أمّه تصنع من العجين دوائر متماثلة من الخبز، وتقطّع البصل والطماطم لمكعبات متساوية، وترتّب الملاعق والسكاكين في صفوف مستقيمة. كانت دائمة

التحذير لـ"رامتشاند" من الاقتراب من الموقد. كانت لها عينـان جادّتـان ووجـه باسـم، وأنـف دقيق.. مستقيم، تزيّنه حلية من الذهب على شكل ورقة شجر.

في أحـد الأيّـام، انتهـت مـن صـنع عجينـة خبـز الـ"تـشاباتي"، واسـتعدت لإشـعال موقـد الكيروسين. قالت لولدها، ابن الأعوام الخمسة، الذي كان يحوم حولها:

- الأولاد الصغار لا يقتربون أبدًا أبدًا من النار. فهمت؟ تذكّر دائمًا ما حـدث لــ"تـشوُهوُ".. وإيّاك أن تنسى ذلك.

ظهر التمرّد على وجهه، وظلّ ملتصقًا بها، إذ لم يكن لديه ما هو أحبّ من ذلك.

أخذت قطعة من العجين وناولته إيّاها. قالت مبتسمة:

- خذ هذه، واجلس هناك بعيدًا عنّي. أريدك أن تصنع لي منها أجمل شيء في العالم.

فهم جيدًا ما تطلبه منه، لأنها كانت تصنع له دائمًا أشـكالًا مـن عجـين الخبـز، طيـورًا وأرانـب. تحـرّك أصـابعها النحيلـة بمهـارة.. تجـذب قطعـة العجـين، وتطويهـا، وتكوّرهـا وتبطّطها.. إلى أن تتحول في يدها إلى عصفورة ذات منقار حادّ وجناحين وذيل صغير. تتبع ذلك بقصّ بعض الحكايات عن العـصفورة التـي تـستخدم منقارهـا هـذا في الـشجار مـع زوجها، كما تستعمله في إطعام صغارها. تضحك حين ترى الدهشة مرسـومة عـلى وجهـه وهو ينصت إليها بانتباه.

حين تصنع له أرنبًا، تكتفي بعمل دائـرة تثبّـت فوقهـا ذيـلًا كرويًـا صـغيرًا. ولا شيء آخـر. مجرّد دائرة وكرة. يتساءل الطفل باستغراب، في كل مرة:

- أين وجهه؟

تجيب ضاحكة:

- لقد خاف منك! إنه يهرب مبتعدًا. حين يخاف الأرنب، لا نرى منه إلّا ذيله.

في إحدى المرات، شكّلت العجين في صورة فأرة، وقالت:

- اسمها "تشوهو".

ردّ "رامتشاند" متشككًا:

- فأرة بنت، وليست ذكرًا؟

أجابت:

- نعم. بنتٌ جميلة جدًا.

كانت قد صنعتها باهتمام بالغ. جعلت لها ذيلًا طويلًا، وعينين، وفمًا.

- انظر! ليس لها شارب!

أضافت:

- أمّها طلبت منها عدم الاقتراب من موقد الكيروسين. لكنها عنيدة، ولم تطعها، فأحرقت النار شاربها..

تأثّر "رامتشاند" كثيرًا بهذه القصّة. "تشوهو" بنت، ولا يهم إن لم يكن لها شارب؛ لكن ماذا عنه هو؟ ماذا لو اقترب من النار، فكبر ولم يظهر له شارب كالذي يزيّن وجه أبيه؟

في بعض الأحيان، تشكّل أمّه العجين على هيئة وجوه. وباستخدام عود كبريت، تصنع لها ثقوبًا مكان العيون والأنوف والأفواه. بل وتجعل لكل منها

ابتسامة، تكشف عن أسنان من الثقوب المتراصّة.

حين منحته العجين، وطلبت منه أن يصنع لها أجمل شيء في العالم، راح يدير القطعة اللدنة بين أصابعه الصغيرة الممتلئة، مستغرقًا في تفكير عميق. ما هو أجمل شيء في العالم؟ أمّه طبعًا... أو ربّما أبوه. لكنه يعجز عن جعل هذه القطعة على هيئتهما. ثم إنهما ليسا "أشياء" بمعنى الكلمة..

استمر يلهو بها في شرود، دون أن يعرف كيف يتصرّف.

ثم جاءهما صوت أبيه، من الدكّان، مناديًا زوجته بتهذيب:

- تعالي من فضلك.

اعتاد والداه أن يخاطبا بعضهما بأدب واحترام، حتى إنه لم يكن أحدهما ينادي الآخر باسمه.

أطفأت الموقد، ورفعت عبوة الكيروسين وعلبة الثقاب إلى الرفّ العلوي، وهي ترمق ابنها بنظرات قلقة. تخاف عليه من الموقد، وترتعب حين تسمع عن الأطفال الذين تعرضوا لحوادث بسبب النار والحرائق؛ لكنها منذ أن قصّت عليه حكاية "تشوهو" لاحظت أنه لم يعد يقترب من الموقد أبدًا. والحقيقة أنها لم تخطط لهذه القصّة أصلًا.. وإنما جاءتها الفكرة حين انتهت من تشكيل الفأر، إذ أدركت أنها لن تستطيع أن تصنع له شوارب دقيقة من العجين.

ابتسمت، وحلّت طرف "الساري" الذي كان مثبتًا حول خصرها. أحاطت به كتفيها، ودلفت إلى الدكّان بعد أن وجّهت نظرة أخرى نحو صغيرها.

كان زوجها يبحث عن صفيحة فلفل أسود جديدة، لا يتذكّر أين وضعها بالضبط. عثرا عليها بعد بحث استمرّ لنحو عشر دقائق. عادت بعدها الأمّ للحجرة، لتواصل إعداد الطعام.

وجدت "رامتشاند" جالسًا حيث تركته، وقد أمسك العجينة بين يديه بقوّة. لكنه كان يبكي. لم يكن يصيح أو يصرخ بغضب، كما يفعل الصغار عادةً. كان يبكي في صمت، بأسى حقيقي، وحزن واضح.. انفطر له قلبها. رأت عينيه وقد امتلأتا بالهمّ، فاندفعت نحوه وحملته بين ذراعيها. احتضنته بقوّة، ثم راحت تتفحص جسده لترى إن كان قد جرح نفسه.

لم يكن قد أذى نفسه بأيّة طريقة، وكانت متيقنة من ذلك.. من قبل حتى أن تدنو منه. عيناه تقولان ذلك. راحت تهمس له وتحدّثه برقة ولطف. حين هدأ بعض الشيء، سألته بجدّية شديدة.. كما لو كان رجلًا كبيرًا:

- قل لي.. لماذا تبكي؟

لم يجبها في البداية. أخذ ينظر إلى قطعة العجين في كفّه الصغيرة. فاضت عيناه بالحيرة وعدم الفهم. تملّى في وجهها الحبيب المألوف. نظرت إليه بعينين صافيتين متفهمتين. إنه يصدّقها ويثق بها، ويمكنه حتمًا مصارحتها..

- أمّي.. أمّي.. أنتِ قلتِ.. لقد قلتِ لي.. طلبتِ منّي أن أصنع أجمل.. أجمل..

بدأ ينتحب بأسى. انتظرت بصبر إلى أن هدأ تمامًا.

- طلبتِ مني أن أصنع أجمل شيء في العالم.

سألته بجدّية:

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

انفجر في البكاء، وصاح:

- ولكني لا أعرف.. لا أعرف ما هو أجمل شيء في العالم.

لم تبتسم أو تضحك، ولم تسخر منه. ولم يتسنّ لها أبدًا أن تعرف مدى التقدير الذي حمله لها ابنها بقية عُمره، لأنها لم تضحك في هذا الموقف. بل ولم تتكلّم، أو تتحرّك للحظات، احتضنته بعدها بخفّة، ومسّدت شعره براحة يدها في هدوء.

في تلك اللحظة، دخل والده ورأى وجهه الغارق في الدموع. ورأى أيضًا دموعًا أخرى حبيسة في عيني زوجته اللامعتين. سألها عمّا حدث. لم تقل مثلًا: "لا شيء.. لقد سقط على الأرض". لكنها سردت عليه، بهدوء، ما دار بينها وابنهما.

نظر "رامتشاند" إلى أبيه بخوف ووجل. كانت دموعه قد جفّت، ويبست قطعة العجين بين أصابعه، وبدأ سطحها يتشقّق. نظر له والده طويلًا، ثم قال:

- وأنا أيضًا لا أعرف.

صمتُ أمّه، والصدق الذي غلّف إجابة أبيه.. من الأمور التي لن ينساها "رامتشاند" أبدًا.

بعد ذلك، ساد الغرفة جوّ من الأمان والطمأنينة. لا يعرف "رامتشاند" أين ذهبت قطعة العجين. نسيها الجميع.

غسلت أمّه وجهه ويديه، وجفّفته بقطعة من القماش القطني الناعم، وأعطته كوبًا من الحليب الدافئ. أحضر له والده حبّة من البسكوت المغطّى بالسكّر من داخل الدكّان. يعرف "رامتشاند" أنها من النوع الغالي الثمن.

مساءً، أغلق والده الدكّان، وتناولوا العشاء وخلدوا للنوم.. كما كلّ يوم.

لم يتحدّث أحد منهم عمّا دار ذلك اليوم مرة أخرى، لكنه منذ ذلك النهـار تحديـدًا أصـبح يشعر بأنه يحبّهما أكثر من أيّ وقت مضى.



في طفولته، كان "رامتشاند" يهوى قضاء أطول وقت ممكن داخل دكّان أبيـه. يطـوف بـين الصفائح والأجولة.. يفتحها.. يشمّ ما بداخلها. ويجد ذلك مسليًا وممتعًا جدًا. يسمح له والده بذلك، طالما أن الدكّان يخلو من الزبائن. لكن بمجـرد دخـول أحـد، كـان عليـه أن يغـادر عـلى الفور.

حين يخلو المكـان مـن النـاس، تـدخل أمـه أيـضًا لـتجلس جـوار أبيـه، وينغمـسان في أحاديث طويلة. خلال ذلك، كان "رامتشاند" يفتح هـذا.. ويلمـس ذاك.. ويمـرّر الأرز عـبر أصابعه.. يجلس فوق الأجولة ويعلـن أنـه الملـك. يـدخل في صـندوق ضـخم مـن الـورق المقوّى.. تمّت تفرغتـه مـن قطـع الـصابون. يتوسـل لأمـه بـأن تـدخل فيـه معـه. تـرفض، فيضحك أبوه.

حين ينتهي من اللعب، أخيرًا، تنبعث منه روائح الصابون النفّاذة.

يدغدغ ذقنه بأطراف المكانس، ويضحك من قلبـه. تـشاركه أمـه الـضحك، ويمتلـئ المكـان بالسعادة، والروائح المتداخلة، والقهقهات.

كان والده يضحك أحيانًا، لكنه – في معظم الأحيان – كان يكتفـي بابتـسامة هادئـة وهـو يراقب ابنه.

من النادر أن يكون أبوه في مزاج سيئ. لم يكن ذلك يحدث إلّا حين تتوافد على الدكّان أعداد كبيرة من الزبائن، أو عندما تعرف الفئران طريقها إلى الأجولة. في مثل تلك الأيام، كان يصرخ بنفاد صبر في وجهه:

- اخرج من هنا.. هيّا! اخرج.

يضيف بمرارة:

- اذهب لتتعلّم.. لعلّك تصبح شخصًا له قيمة.. إلا إذا كنت ترغب في أن تواصل حياتك وأنت تزن الطحين والسكّر.. وتتحمّل مساومة ربّات البيوت على روبيات قليلة.. وتصبر على وقاحة الذين يظنون أنك تغشّهم عند البيع.. وإصرارهم على مراقبتك وأنت تزن لهم البضاعة.

لم يكن "رامتشاند" يفهم شيئًا من هذه العبارات. كان يكتفي بابتسامة ينظر بها إلى أبيه.. أفضل رجل في العالم. بعدها، يهدأ والده، فيجلسه على ركبتيه ويطعمه بعض المكسرات المملّحة ويقول:

- ستدخل المدرسة، وستتعلّم هناك باللغة الإنجليزية.. ما رأيك؟ ستدرس بجدّ واجتهاد. أليس كذلك يا عزيزي؟

يومئ الصغير برأسه موافقًا.. دون أن يعرف – أساسًا – ما المدرسة ولا تلك اللغة المسماة بالإنجليزية.

كان يحبّ أن يرافق أمّه عند زيارة معبد "شيفالايا" صباح كل إثنين، وهو يحمل زهور "الأقحوان" الصفراء، براوئحها الرقيقة، بين كفّيه الصغيرتين.. ليقدّمها للآلهة داخل المعبد.

قبل زواجها، كانت أمّ "رامتشاند" تصوم بانتظام كل يوم إثنين، لإرضاء الإله "شيفا"، حتى يمنحها زوجًا طيبًا. وقد حصلت عليه بالفعل، رجل صادق، حريص على إسعادها.. لا يصيح ولا يغضب ولا يضربها أبدًا.. على عكس الكثيرين ممن يؤذون زوجاتهم بدنيًا.

وبحصولها عليه، بمباركة الإله "شيفا"، كان عليها أن تستمر في صومها الأسبوعي.. حتى لا يغضب عليها، فينقلب حالها.

كان "رامتشاند" ينتظر زيارة المعبد بفارغ الصبر.. لأنها بالنسبة له نزهة مسلّية، تصحبه فيها ألطف امرأة في الدنيا بأسرها.. أمّه. كانت تتغاضى أحيانًا عن تأنيبه، إذا بدر منه سلوك سيئ، وهو ما لم يكن يجرؤ على فعله حين يكون مع أبيه. تغضب والدته بسرعة، لكنها – أيضًا – تهدأ بسرعة، وتستعيد طبيعتها اللطيفة، فتحمله بين ذراعيها وتحتضنه وتقبّله، وتناديه بـ"النجم الغالي"؛ وهي اللحظات التي يجيد استغلال مزاج أمه الحسن فيها.

بمجرّد دخوله المعبد، يشعر بإثارة شديدة.. جموع المصلّين المحيطة به، بترانيمهم العذبة.. رنين الأجراس النحاسية.. الروائح المختلطة للزهور والبخور وخشب الصندل. كل ذلك يمنحه طاقة أكبر.. فيبدأ بالركض بطريقة دائرية سريعة، ولا يتوانى عن دفع أيّ شخص يمرّ أمامه. كانت أمه تحذره من التمادي في هذا السلوك، بعصبية واضحة سببها الجوع.. ويزيد عناده من إحساسها بالتوتر.

وعادةً.. لم يكن يلتفت لتحذيراتها المتوالية، وهو ما لم تكن تفهمه أبدًا، لأنه – بطبيعته – طفل هادئ ومطيع. لكن هذه الحالة لا تنتابه إلا أيام الإثنين، حين يجد نفسه وسط زحمة المعبد. بعد عدّة تهديدات توجهها له، تشعر برغبة حقيقية في البكاء. لماذا يصبح مجنونًا هكذا كل أسبوع؟ حينها تصفعه بضع

مرّات، فيهدأ على الفور. وفي كل مرة، يعدها بأنه سيلتزم الأدب في الزيارة القادمة. لكنـه كـان يخلف وعده في الأسبوع الذي يليه، فيتلقى صفعات أخرى.

استحال الأمر بأكمله إلى روتين يمارسه الطرفان.

فيما عدا عصبية يوم الإثنين، كانت الأسرة تعيش بهـدوء تـامّ، وتتمتـع بقـدر معقـول مـن السعادة. حين بلغ "رامتشاند" السادسة والتحق بالمدرسـة الإنجليزيـة التـي كـان أبـوه يـدخِّر رسومها ومصروفاتها.. اختفت رائحة الخيش، وشذى الأزهار الـصفراء، وتوقفـت نزهـة المعبـد الأسبوعية. توفي والـداه في حـادث، وهـما يـستقلان حافلـة في طـريقهما لزيـارة معبـد مدينـة "هاريدوار". انقلبت الحافلة الممتلئة بالركّاب، فجأة.

تمّ إيداع "رامتشاند" لدى جدّته في قـريتهم القريبـة مـن "آمريتـسار". أوّل شـعور انتابـه عقب الحادث هو الدهشة البالغـة. كيـف تتهـاوى الأمـور بهـذه الـسهولة، آخـذة معهـا كـلّ الروائح المألوفة إلى الأبد؟

لم يشعر بالرعب إلا بعد ذلك بفترة.

توقع الجميع أن يبكي الطفل، وأن يستيقظ من نومه مذعورًا.. مناديًا أمـه. أن يـسأل عـن سرّ اختفاء أبيه. أن يلحَّ عليهم لإعادته إلى منزله ووالديه..

شعرت جدّته بالقلق عليه، وأعدّت له إجابات مقنعة لكل سؤال قد يطرحه، ولكل طلـب قد يتمسك به.

لكنه لم يسأل أبدًا. أصبح دائم الصمت، شديد الهدوء. يـرفض تمامًـا أن يلمـسه أحـد مـن الكبار الموجودين حوله.

كان يبكي أحيانًا. ليس بكاءً كذاك الذي يصدر عـن الأطفـال في سنّه.. وإنما تـصبح عيناه غائمتين فجأة، وتبدأ دموعه الغزيرة في الانسكاب ببطء على خدّيه. وإذا حاول أحد أن يحمله أو يمسح دموعه، كان يزوم في غضب، ويركله بقدميه الصغيرتين.

في نهاية الأمر، قاموا بإعادته إلى "آمريتسار"، ليـتمكن مـن مواصـلة دروسـه. عُهِـد بـه إلى شخص يمتّ لهم بصلة قرابة، بعيدة بعض الشيء في الواقع. لم يكن قد رأى هذا الـ"عـمّ" مـن قبل. يعمل الرجل كحرفي في محلّ مجوهرات. يقيم وأسرته في مسكن من غرفة واحدة، أيـضًا؛ إلا أنهم يمتلكون بداخلها أشياء عديدة، أكثر بكثير مما كان لدى والدي "رامتشاند".

تحتـوي الغرفـة عـلى تـسريحة، تعلوهـا بعـض أدوات التجميـل، ودولاب خـشبي لوضـع الصحون والأكواب بداخلها، وآخر معدني للثياب، بها بعض الشمّاعات لتعليق الملابس.

لم يكن "رامتشاند" قد رأى شمّاعةً من قبل، فأبواه كانا يحتفظان بثيـابهما مطويـة داخـل صندوق خشبي. بدا كل ما في هذه الحجرة غريبًا وغير مألوف.

زوجة العمّ السمينة، ضيّقة الصدر. تقضي أغلب وقتهـا مـستلقية عـلى الـسرير، وقـد ربطت منديلًا مشدودًا بقوّة حول رأسها، ليخفف من الصداع الدائم الذي تعاني منه. كان لها ولدان يصغران "رامتشاند". إذا اشتكت من آلام رأسها، وتمددت على فراشـها.. فالويـل لمن يقترب منها، أو يصدر صوتًا، مهما كان خافتًا؛ فحينها.. تهبّ من مكانهـا وتهجـم عـلى الصغار الثلاثة لتضربهم. صفعة واحدة على وجه كل منهم. ثـم تعـود للـسرير، وتتغطـى بملاءة.

ولداها، المعتادان على تصرفاتها، كانا يضحكان بصوت مرتفع، مما يفاقم من غضبها. لكن "رامتشاند" الـذي لم يعـرف الـضرب - عـدا صـفعات يـوم

الإثنين - فكان يصاب بالذهول في كل مرة، ويشعر وقتها بحنين جارف إلى أبيه اللطيف وأمّه المُحبّة.

حين ينام ليلًا، يحلم بالساري الأحمر ذي الورود الصفراء، الذي كان يغطي ركن الاستحمام في مسكن أسرته.

تمّ إلحاقه بمدرسة جديدة. المدرسة نفسها التي يذهب إليها أبناء العمّ.

منزلٌ جديد.. مدرسة جديدة.. روائح جديدة..

"رامتشاند" لا يشمّ رائحة الخيش.. ولا الأزهار الصفراء..

"رامتشاند" بدأ يكبر.



كل صيف، يصطحب العم ولديه وزوجته لقضاء الإجازة في منزل أبويها، بـ"دلهي" القديمة.

في هذا الوقت من كل عام، تُرسم خطوط واضحة، فاصلة.. بين من ينتمي للأسرة فعلًا، ومن هو دخيلٌ عليها؛ إذ يقومون بإرساله لبيت جدّته، ليمضي العُطلة هناك.

سنةٌ تلو أخرى، أمضى "رامتشاند" نهارات الصيف الطويلة بالجلوس على ضفّة النهر. هناك عرف، لأول مرة، معنى العزلة والوحدة. في ساعات الظهيرة الحارّة، الهادئة، تحت الأشجار.. التي كانت أوراقها الكثيفة تحجب أشعة الشمس، ولا تسمح بمرور إلا القليل من الأشعة الضعيفة.. ومع مياه النهر الباردة، المتدافعة، تتحول كل الأفكار إلى مادّة سرّية تجمع بين اللونين الأزرق والأخضر.. شيء يصدر خشخشةً وحفيفًا.. ويتلاحق بداخله في أمواج صغيرة متوالية.

هنا.. تعـرّف "رامتـشاند" للمـرة الأولى إلى الـشخص الآخـر الكـامن بداخلـه.. "رامتـشاند" الثاني.. ذو الظل الأزرق والأخضر، الذي إمّا أن يفكّر في أشياء غير منطقيـة بـالمرّة.. أو في أمـور تقترب جدًا من المنطق السليم.. بحيث تدفعه للهروب منها سريعًا، كـما يفـرّ المـرء مـن أمـام كلب مجنون.

"رامتشاند" الذي يراه الناس.. كان يـضحك، ويتبـادل أخبـار الآخـرين، ويحـضر الـصلوات، ويشتري قمصانًا جديدة من الـ"بوليستر" اللامع، ليلبسها في الأعياد ببهجة عظيمة.

لكن إحساسه بوجود الكائن الآخر، الأزرق والأخضر، قابعًا بداخله.. جعلـه يفقـد صـفات "رامتشاند" الظاهر للناس. شيئًا فشيئًا، أصبح أكثر صمتًا وهدوءًا وانعزالًا. لا يفعل شـيئًا سـوى الانتظار.. كما ينتظر الإنسان المصاب بورم سرطاني في المخ.. أو بثقب في القلب.

حين بلغ الخامسة عشرة، أعلن العمّ أن ولدًا مثله لا يحتاج للمزيد من التعليم. وقرر أنـه من الأنسب أن يلتحق بمهنة ما. أخرج "رامتشاند" من المدرسة، وأرسـله إلى "مهاجـان"، الـذي كان يعرفه عبر صديق مشترك.

ورغم أن "رامتشاند" كان يمقت المدرسة، فإنه كان في غاية الحـزن في آخـر يـوم لـه فيهـا. حـين دقّ الجـرس معلنًـا انتهـاء اليـوم الـدراسي، وانطلـق التلاميـذ إلى بيـوتهم وهـم يثرثـرون ويضحكون، بينما تهتزّ زمزميات الماء الـصغيرة المعلّقـة عـلى أكتـافهم، كـان "رامتـشاند" يـسير بتمهل وقد أثقل الأسى قلبه. ها هو يغادر الحياة التي ألفها لأعوام، كتلميذ يـذهب للمدرسـة يوميًا.

تذكّر أباه، بصورة مبهمة، وهو يعبّئ السكّر في أكياس، ويخاطب زوجته قائلًا إنـه سيلحق صغيرهما بمدرسـة إنجليزيـة. تـذكّر الأوقـات التـي كـان فيهـا والـده يجلـسه

على ركبتيه ويقول له: "عدني أنك ستكون شخصًا له قيمة. لا تكن بقّالًا مثل أبيك".

بدأ "رامتشاند" عمله في دكّان "الساري"، وترك شهادة الصفّ الثامن بغلافها البلاستيكي الأخضر، داخل صندوق حاجاته.

بعد أربع سنوات، تُوفِّي العم بسكتة قلبية مفاجئة. كان في الورشة، يصنع عقدًا من الذهب واللؤلؤ.. ثم سقط فجأة ومات.

بعد انقضاء أيَّام العزاء الرسمية بمدّة طويلة، ومغادرة المعزّين؛ وتحديدًا.. بعد عشرين يومًا.. تحدّثت معه زوجة العمّ. بدا شكلها غريبًا وغير مألوف، بعينيها الحمراوين، وساري الحداد الأبيض، وجبينها الخالي من علامة الـ"بيندي" الحمراء المستديرة، وذراعيها اللتين لا تزيّنهما الأساور. بدت كشجرة عارية، تساقطت كل أوراقها.

طلبت منه، بطريقة مهذّبة، أن يرحل عن المسكن.. وأن يشقّ لنفسه طريقًا في الحياة، حتى لا يزيد من حجم المسؤوليات التي تراكمت عليها فجأة. أخرجته من حجرتهم بعد أن جمعت كل متعلقاته في صندوق معدني وودّعته بدعواتها الطيبة.

بمساعدة "مهاجان"، تمكّن "رامتشاند" من استئجار هذه الغرفة الصغيرة.. بشبّاكيها المتقابلين، وجدرانها المتقشرة ذات اللون الحائل، ورائحتها العفنة العتيقة.

بعد مرور عدّة أيّام، بدأ "رامتشاند" يدرك أمورًا عديدة.

أدرك أن والده، في زمن ما، كان يمتلك دكّان بقالة. صغيرٌ، صحيح، ولكنه متجر على أيّة حال. وأنه كان ينبغي أن يؤول إليه. لكنه صار الآن ملكًا لولديّ العمّ.

أدرك أيضًا أن الحلية الذهبية التي تحمل شكل ورقة شجر، والتي تلبسها زوجة العم في أنفها، كانت – في الأصل – ملكًا لأمّه.

أدرك أنه بعد وفاة جدّته، قام العم ببيع منزلها.

وأدرك أنه لم يُحرَم فقط من الحصول على المال الذي دفعه المشتري، وإنما حُرِمَ أيضًا من دار يتملّكها في القرية.. ومن النهارات الهادئة على ضفّة النهر.

فهم "رامتشاند" الآن، بعد مرور الأعوام الطويلة، لماذا لم يرَ هذا العم قبل وفاة والديه. ولماذا لم يكن يزورهم، رغم أنهم جميعًا كانوا يعيشون في مدينة واحدة.

حين أدرك كل ذلك.. كان الوقت قد فات. أو ربما لم يعد "رامتشاند" مهتمًا بالدفاع عن حقوقه.



تكاثرت السُحُب في سماء المدينة، وحبست أشعة الشمس خلفها. هبّت ريحٌ باردة، اشتاق معها الناس للشمس. بحلول الظهيرة، بدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا. الشتاء هذا العام في "آمريتسار" شديد البرودة. مع هطول المطر، ارتجفت الأبدان، وأحكم الناس لفّ أوشحتهم الصوفية وشالاتهم حولها، ودسّوا أقدامهم في جواربهم الصوفية الثقيلة.

ذلك اليوم، سار الناس في المدينة الباردة بمفاصل متيبسة، وشفاه متشققة، وأيدٍ متجمدة؛ يعاني أكثرهم من الزكام، وقد احمرّت أنوفهم ودمعت عيونهم.

راحت الكلاب تبحث عن أيّ ركن دافئ، لم يبلله المطر، وهي تمشي بذلّة ومسكنة.

اشتدّ هبوب الريح وازدادت برودتها، فتطايرت قطرات المطر في كل اتجاه، كما لوكانت ترقص رقصة مجنونة في الهواء. راحت تجلد وجوه الناس وأجسامهم بوحشية، وتتخبط على البيوت والبنايات.. بدلًا من أن تنزل على الأرض مباشرة، كما ينبغي على المطر المحترم!

أمّا داخل الدكّان، فالجميع يشعرون بكآبة هذا النهار الشتوي، الرماديّ اللون. الجميع، عدا "رامتشاند"، الذي لم يرَ في المطر – طوال حياته – أمرًا يبعث على الحزن أو الضيق، مهما كان قويًا ومزعجًا. لم يلقِ بالًا، أبدًا، للبرد أو الرطوبة أو الطين أو البرك الصغيرة التي يخلّفها؛ لأن المطر يملأ روحه بالبهجة والانتعاش، منذ أن كان طفلًا صغيرًا.

لا يزال يمنحه البهجة ذاتها، حتى وإن كان يهطل ظهيرة يوم شتوي كئيب.

ظلّ "هاري" يئن ويتأوّه ويتذمّر، حتى فاقم من شعور الجميع بالضيق والأسى:

- آه.. هذا البرد غير طبيعي.. قاسي جدًا.. آه إنه يؤلم جسمي. كل جزء من مفاصلي متيبّس.. ياه.. أشعر كما لو أنني شختُ فجأة. لا أستطيع الحركة.

قال "جوكل" بحدّة:

- أنتَ يا "هاري".. اسمعني جيدًا.. كل هذه الآلام التي صدّعت رؤوسنا بها منذ الصباح، ليست نتيجة البرد. سببها الوحيد هو الكسل.. سببها عدم العمل.. سببها عدم تحريكك لمفاصلك بتاتًا، إلا حين يجبرك أحد على القيام بعمل ما. هيّا.. قم وتحرك ورتّب هذه المجموعة الجديدة من أقمشة "الساتان".. بدلًا من هذا الأنين المزعج.

أجابه هاري" ببرود وهو يتمطّى في كسل:

- ما هذا؟ لماذا يضطهدني الجميع في هذا المكان؟ ألم تلحظ أنني عملت طوال العام المنصرم بنشاط غير مسبوق؟

قال "جوكل" بغيظ:

- هناك الكثير من الأعمال التي ينبغي إنجازها اليوم يا "هاري"، لذلك أرجوك.. انسَ مفاصلك وعظامك وأوجاعك.. وقم من مكانك حالًا لترتّب تلك الأقمشة الجديدة.

تنهّد "هاري" وقام واقفًا بمسكَنة، كأنّه يضحي بنفسه من أجلهم جميعًا. تابعه "جوكل" بوجه مكفهر.

غاص "تشاندر" في صمت كئيب، لا ينطق إلا حين يسأله أحدهم عن شيء؛ فيما جلس "شيام" بعيدًا عن الآخرين، مستغرقًا في تفكير عميق.

كان "راجيش" يتبادل الحديث مع "مهاجان" في أحد الأركان. كانا يتبادلان نظرات نارية غاضبة، ومن الواضح أنهما، ولمرّة واحدة نادرة، فشلا في الاتفاق على وجهة نظر متماثلة.

"رامتشاند" هوالوحيد الذي لم يكن متكدر المزاج.

مدّ بصره إلى خارج النافذة. وزّع نظراته الحالمة على الدنيا المبلّلة. بدت كل الأشياء في غير صورتها الحقيقية، عبر حبّات المطر المتطايرة. بدت أجمل بكثير مما هي عليه حقيقةً.

أخذ يرتّب البضاعة الجديدة، وهو يدندن بخفّة.

علقت بضع قطرات من المطر على النافذة. تشبّثت بالزجاج، وارتعشت قليلًا. كانت تلمع كما اللؤلؤ. ابتسم وهو يراقبها.

انهمكت أصابعه في طيّ "السواري" وإعادة ترتيبها، وحرص على أن يتأكّد من أنها جميعًا مسعّرة.

ظلّ يدندن الأغنية نفسها مرة تلو الأخرى، بمنتهى السعادة. توقف فجأة حين رأى "بيمسن ستّ" يتهادى باتجاه "مهاجان". فكّر بمرارة أنه لا يمكنك أبدًا أن تستمتع في هذا الدكّان، حتى لو كان ذلك عن طريق الغناء بصوت خافت.

صار من النادر أن يصعد "بيمسن ستّ" إلى الطابق العلوي، بسبب بدانته المتزايدة التي لم تعد تسمح له بارتقاء السُلَّم الخشبي الضعيف.

انتبه الجميع على الفور. رفع "تشاندر" رأسه، وتوقف "رامتشاند" عن الدندنة.. رغم أنها ظلّت دائرة في رأسه. انهمك "هاري" في توزيع الأقمشة "الساتان" الوردية، حسب درجة لون كل منها. حاول "جوكل" أن يزيل الاكفهرار عن وجهه، وأن يبدو أكثر سعادة، وانشغالًا بالعمل.

وسط لهاثه المتتابع، قال "بيمسن":

- "مهاجان"! خبرٌ مهمّ.. ابنةُ "رافيندر كابور" ستتزوج قريبًا.

ومضت عينا "مهاجان" عند سماعه للنبأ. فرك كفّيه بحماس وسأل بحماس:

- متى بالضبط؟

طقطق "رامتشاند" أحد أصابعه، دون انتباه، وهو يتابع حديثهما.

التفت "مهاجان" تجاهه، ورمقه بنظرة غاضبة. احمرَّ وجه "رامتشاند"، وسارع بمواصلة عمله.

التفت "مهاجان" ثانيةً، باتجاه "بيمسن ستّ" هذه المرّة، وقد عادت ابتسامته لمكانها. أجابه:

- في يناير، وسيتمّ تحديد التاريخ خلال يومين.

أومأ "مهاجان" وهو يزمّ شفتيه في تركيز. قال "بيمسن":

- بطبيعة الحال، لن يأتوا للدكّان. مقامهم أكبر من هذا بكثير. لذلك أريدك أن ترسل لهم أفضل ما لدينا من الأقمشة بكل أنواعها.

توقَّف عن الكلام لبرهة، وقد ظهر القلق على وجهه.

نظر إليه "رامتشاند" بطرف عينه، بشيء من الدهشة، فمن النادر أن يبدو "بيمسن" قلقًا ومتوترًا. واصل "بيمسن" حديثه:

- أرسل لهم "السواري" كل يوم. كل ما يأمرون به. أيّ شيء يريدونه. جميع أنواع الأقمشة والمنسوجات. نريد أن نسعدهم ونشعرهم بالراحة، وبخاصّة سيدات العائلة. لديهم أيضًا بنتٌ ثانية، أصغر من العروس، كما تدري. سنة أو اثنتين وتتزوج هي الأخرى. وأنت تعلم الكميات الهائلة التي تشتريها هذه الأسرة.

قاطعه "مهاجان" بهدوء:

- اطمئن يا سيّدي. سأهتمّ بنفسي بجميع التفاصيل.

سـارا معًـا في اتجـاه إحـدى الزوايـا الهادئـة للـدكان، واسـتغرقا في نقـاش عميـق بـصوت منخفض. وسرعان ما غادرا الطابق العلوي وقد ظهرت عليهما الجدّية وانشغال البال.

بعد قليل، أبلغهم "هاري" أنهما ليسا في الطابق السفلي.. وأنهما – كما يبـدو – قـد غـادرا المتجر.

شعر الجميع بالارتياح، وخصوصًا "جوكل"، الذي همس لـ"رامتشاند":

- لقد نسيت إحضار غدائي اليوم. ولـيس معـي نقـود كافيـة لأتنـاول الطعـام في الـسوق. وكنت أتمنى، منذ الصباح، أن يغيب "مهاجـان" عـن المكـان لـبعض الوقـت.. لأذهـب للمنـزل لآكل هناك وأعود سريعًا.

غادر مسرعًا، معلنًا أنه سيعود خلال نصف ساعة.

مرّت ساعة كاملة ولم يظهر "جوكل". من الغريب أن يصدر هذا التـصرف عنـه هـو، عـلى وجه الخصوص، بما عرف عنه من جدّية والتزام تامّ بمواعيد العمل وقواعده.

بعد انقضاء ساعتين أخريين، دخل الدكّان وهو يعرج. سأله "هاري" على الفور:

- ما الذي حدث؟ لمَ تأخرت هكذا؟ هل تشاجرت مع أحد في الشارع؟

أجابه بانزعاج بالغ:

- لا تكن سخيفًا يا "هاري". لم أتشاجر بالطبع. وأرجوك.. اخرس! لستُ في مزاج يـسمح لي بتقبّل ثرثرتك وتفاهاتك.

تأوّه بألم وهو يحاول الجلوس.

تساءل "رامتـشاند" في سرّه إن كانـت "لاكـشمي" قـد جنّـت تمامًـا وانهالـت عـلى زوجهـا بالضرب، لكنه قال بصوت مرتفع:

- أخبرنا ما الذي حدث بالضبط.

أجاب "جوكل":

- عربة خضراوات اصطدمت بدرّاجتي، في طريق عودتي للدكّان.

قال "هاري" ضاحكًا:

- أو ربّما.. دراجتك هي التي اصطدمت بعربة الخضار! هاهاها.

حين رأى النظرات الغاضبة من "جوكل"، قال على الفور:

- أعني.. من وجهة نظر بائع الخضراوات.. ربّما.

تأوه "جوكل" وقال متألمًا:

- قدمي.

رفع ساق بنطلونه ليريهم قدمه اليمنى المتورمة.

ظهر الاهتمام على وجه "هاري"، وقال:

- لا بأس. لا تتحرك. اجلس في مكانك، وسوف نقوم بالعمل كلّه اليوم.

ثم أضاف، يغمره شعور بكرم عظيم:

- ليس اليوم فقط، وإنما طوال المدّة التي تحتاج إليها قدمك لتشفى.

قال "جوكل" ساخرًا:

- فعلًا؟! أشكرك يا سيدي ووليّ نعمتي. كم أنا محظوظ بربّ عمل مثل سيادتك.. يعاملني بهذا الكرم والأريحية.

غمغم "هاري" بغيظ ودهشة:

- ما هذا؟ ألا يقدّر أحد روح التعاون هذه الأيام!

فُتح الباب الزجاجي، وظهر "مهاجان" فجأة، دون تنبيه؛ كعادته دومًا.

لطالما ردّد "هاري" بأن هناك لغز في الكيفية التي يطأ بها "مهاجان" درجات السلّم الخشبي، دون أن يصدر عنها أدنى صوت.

قال فور دخوله:

- "جوكل".. دع أي عمل تقوم به الآن، لديّ ما أكلّفك به. ستذهب إلى منزل "رافيندر كابور" وستأخذ..

توقف عن الكلام، حين انتبه لوجه "جوكل" المتألم، وقدمه المنتفخة.

- ماذا حدث في غيابي؟

أجاب "جوكل" بحرج شديد:

- لا شيء يا سيّدي. أصيبت قدمي فقط.

سأله "مهاجان" بريبة:

- كيف؟

أطرق "جوكل" ولم يجب.

قال "مهاجان":

- ما الأمر؟ ألا تستطيع الإجابة عن سؤال بسيط؟

في لحظة صدق، اعترف "جوكل" بجريمته. استمع له "مهاجان"، ثم ألقى عليه محاضرة عن تحمّل المسؤولية، وأخيرًا سأله:

- هل أفهم إذًا أنك غير قادر على قيادة الدراجة بقدمك المتورمة هذه؟

ظلّ "جوكل" صامتًا.

قال "مهاجان" بغضب:

- ومن منكم إذًا يمكنني إرساله لبيت "رافيندر كابور" غدًا؟

نظر متشككًا إلى "رامتشاند" أولًا، ثم إلى "تشاندر". قال "هاري" بحماس:

- سيّدي.. يمكنني أنا أن أذهب.

كانت أعصاب "مهاجان" متوترة. صبّ غضبه على "هاري":

- نعم.. نعم.. أستطيع أن أرى ذلك. أنت شخص محبّ للعمل، وتتحمل المسؤولية، لذلك سأضع بين يديك "سواري" تتجاوز قيمتها مئات الآلاف من الروبيات، وأنا في غاية الاطمئنان. يمكنك أن تذهب يا عزيزي، وتكسر دراجة هذا المسكين، وتكسر معها رقبتك! وستتوقف في الأغلب لدى أيّ بائع مثلّجات.. وتشتري منه آيس كريم الفستق كالأطفال الصغار، وتتناوله في شرود، بينما تلوك أيّ بقرة في الشارع بضاعتنا الثمينة.

قال "هاري" بدهشة عظيمة:

- ولكنني لا آكل الآيس كريم شتاءً، يا سيّدي. كما أنني أعتقد أن الأبقار لا تأكل الأقمشة.. لا صيفًا ولا شتاءً. أظن أن الماعز فقط هي التي تفعل ذلك.

احمرّ وجه "مهاجان" بشدة، من فرط الغيظ. فقال "هاري" بأدب وهو يسارع بالانسحاب من أمامه:

- سأذهب لأحضر لك الشاي بنفسي يا سيدي.

نظر "مهاجان" لظهر "هاري" وهو يبتعد، بغضب بالغ، وقال بشيء من الأسى:

- وظيفتي متعبة.

التفت إلى "رامتشاند"، الذي كان يشعر بالخجل ممّا تفوّه به "هاري"، وخاطبه قائلًا:

- ستستعير في الغد دراجة "جوكل"، وستحمل لعائلة "كابور" مجموعة من أفضل بضاعتنا.

أحسّ "رامتشاند" بالصدمة. هو من سيقوم بتلك المهمّة؟! يا لها من مسؤولية ضخمة! يا لها من أقمشة ثمينة!

كان يعرف أن "رافيندر كابور" هو أكبر رجل صناعة في "آمريتسار" بأسرها. يسمع أنه يعيش في منزل ضخم، بالغ الفخامة، فرشت حجراته بأنعم أنواع السجّاد، وزوّدت جميعها بمكيفات هواء؛ وتصطف أمامه أربع سيارات.

والآن، سيذهب هو، وليس شخص آخر، إلى هناك. أحسّ بمعدته وهي تتقلّب من القلق.

واصل "مهاجان" كلامه، مخاطبًا "جوكل" هذه المرة:

- ستتولّى أنت اختيار "السواري" والأقمشة. قم بانتقاء الأفضل والأجمل. لا تـنس أن تـضع لهم أحدث ما وصلنا من الحرير الطبيعي بكلّ أشكاله. وتـذكّر أيـضًا أن ترسـل لهـم الأقمـشة المطرزة بخيوط فضّية. وبالطبع، ستعرض عليّ ذلك كله قبل أن يغـادر "رامتـشاند" إلى بيـتهم صباح الغد.

لم يسمع "رامتشاند" شيئًا من ذلك. كان ذهنه مشغولًا بالتفكير في أمور أخرى..

مهمة كهذه ستستغرق أيامًا عديدة. يعرف جيدًا كيف تسير مثـل هـذه الأمـور. سـيحمل تشكيلة من "السواري" في صرّة كبيرة لمنزل أسرة "كابور". ستمرّ ساعات طويلة، تختـار خلالهـا العروس وسيدات العائلة عددًا قليلًا مـن "الـسواري"، ويطلـبن منـه إحـضار مجموعـة أخـرى مختلفة. ستكون العروس في مزاج سيئ، وتلقي بغضبها في وجوه الجميع. ثـم سـيغيرن رأيهـن بشأن "ساري" أو اثنـين، فيتـصلن بــ"مهاجـان" لإخبـاره. بعـدها، سـيعود لمنـزلهن بتـشكيلات جديدة، ليخترن من بينها بديلًا.. وهكذا...

سنوات من الأسر في هذا الدكّان.. أسبوع وراء أسبوع.. وشـهر بعـد شـهر؛ فـيما عـدا أيـام الآحاد، وتلك الأيام الثلاثة في العام الماضي، حين أصيب بالتواء في الكاحل. هـا قـد سـنحت لـه الفرصة ليخرج في الهواء الطلق، ويركب دراجة تحت أشعة الشمس، وربّما اسـتطاع أن يتـسلل لبعض الوقت ليشتري لنفسه بعض الكتب القديمة.. ربما أيضًا تمكن من الذهاب لمحلّ عـصائر "آناند".. ليشرب عصير البرتقال الأخضر الحلو.

قطع "مهاجان" خيالاته، إذ قال:

- وأنت يا "رامتشاند".. تأكد من أن يكون مظهرك أنيقًا ومرتّبًا وأنت ذاهب إلـيهم. إنهـم أرقى زبائننا. لا نريدهم أن يظنوا أن العاملين في متجرنا يلبسون ثيابًا رثّة وهلاهيل. عليـك أن ترتدي ملابس محترمة، وأن تستحمّ بعناية فائقة.

على الفور، ضمّ "رامتشاند" أصابع قدميه إلى بعضها، حتى لا يـشمّ "مهاجـان" – بفتحتـيّ أنفه المتسعتين – الرائحة المنبعثة منها.

هل كان "مهاجان" يشير بطريقة ملتوية إلى قميصه ذي الياقة المهترئة، وبنطلونه القديم؟ حسنًا! سيُريه. لقد اكتفى من ذلك الأسلوب. مـن يظـن "مهاجـان" نفـسه؟ سـيلبس ثيابًـا جديدة، وسيستمتع بوقته أيضًا.

ظلّ "رامتشاند" شارد البال بقية سـاعات اليـوم، وتعـرّض لمـشكلة مـع "مهاجـان" حـين لم يستطع أن يتذكّر المكان الذي وضع فيه "ساري" أصفر اللون، طلبته إحـدى الزبونـات بـشكل محدّد. ثم سكب بعض الماء على إحدى الملاءات البيضاء التي تغطي الأرض.

أهانه "مهاجان" قائلًا أنه لا يختلف عن "هاري" في شيء. ابتسم الأخير لهذا التعليق، فـيما أحسّ "رامتشاند" بأنه محى كل البهجة التي أنعشها المطر في روحه. تمنى لـو لم يـأتِ للعمـل اليوم، ولو أنه أمضى نهاره جالسًا بمحاذاة شبّاك حجرته، يرتشف الشاي، ويراقب المطر الرقيـق وهو يداعب شجرة الجوافة المزروعة في حوش البيت.

مساءً، تظاهر بأنه يعاني من صداع شديد، وغادر الدكان مبكّرًا. ذهب إلى محل ملابس قريب، واشترى بنطلونًا أسودَ، وقميصًا أبيضَ.. ناصع البياض.

أحسّ بأنه مسرف، وأنه متهور وطائش. لكنه عاد فذكّر نفسه بأنه لم يشتر ثيابًا جديدة منذ أكثر من عامين. "هلاهيل"؟! صحيح! فليأتِ "مهاجان" ويراه الآن!

ثم اشترى صابونة "لايف بوي"، وزوج جديد من الجوارب. وأخيرًا، توقف أمام عربة خضراوات، وطلب من البائع أن يشتري ليمونة.

سأله البائع بدهشة:

- واحدة؟! فقط؟

أجاب بحزم:

- نعم. ليمونة واحدة فقط.

ناوله إيّاها البائع، وهو ينظر إليه بازدراء. وضعها "رامتشاند" في جيبه بحرص، ونقد البائع ثمنها.

تحرص زوجة صاحب البيت على قراءة مجلتيّ "سارتيا" و"جريها شوبها" بانتظام. في بعض الأحيان، يطلب "رامتشاند" من ابنها الأكبر "مانوج" أن يستأذنها في إعارته بعض الأعداد القديمة. يتذكر أنه قرأ مرة في إحداهما بأن فرك الجلد بالليمون كفيل بإزالة أيّ روائح عالقة في الجسم. قرر الآن أن يجرّب هذه النصيحة.

حمل الأغراض التي ابتاعها في كيس ورقي كبير، تحت إبطه. توجّه إلى الحلّاق وطلب منه أن يهذّب خصلات شعره. امتعض الرجل وتأفف، وأعلن أنه

كان على وشك إغلاق محلّه. توسل له "رامتشاند" طويلًا، حتى قبل وقصّ له شعره بطريقة مرتّبة.

بعد ذلك، عاد إلى مسكنه. دخل إلى فراشه لينام، وهو يشعر بالحماس والإثارة لأحداث الغد. كان العام يوشك على الانتهاء، ولم يتبقّ منه الكثير منذ أن بدأ شهر ديسمبر؛ إلّا أنه كان يشعر بأن الغد هو أول أيام السنة الجديدة، لأنه سيشهد تغييرًا في حياته الروتينية المعتادة.

آخر ما أحسّ به قبل أن يستسلم للنوم، قدرٌ من الإثارة داخل قلبه، وإحساسٌ بالوخز في قفاه لأنه لم يستحم عقب عودته من الحلّاق، وقد علقت بعض الشعيرات القصيرة الحادّة على جلده.

استيقظ صباحًا، وغادر سريره مترنحًا.. ثم تذكّر أنه اليوم الموعود.. لن يمضي نهاره داخل الدكّان. سيتأنّق، ويطوف المدينة راكبًا درّاجة، وسيذهب إلى بيت "كابور". شعر بأنه مقبل على مغامرة مثيرة خلال الساعات المقبلة.

تمطّى وسار باتجاه الطاولة. أمسك بالليمونة وقطعها إلى نصفين، وبدأ في فرك قدميه بهمّة. عليه أن يتأكّد من عدم انبعاث أيّ روائح منهما.. اليوم بالذات على الأقلّ. علقت بذرة صغيرة بين الإصبع الكبيرة والذي يليه.

دلف إلى الحمام الصغير، وحين خرج كان حماسه قد تزايد. راح يتحرك بسرعة.. يمسك بهذا الشيء، ويلتقط ذاك، ويُسقط غيره. ولم تختفِ ابتسامته خلال ذلك كلّه.

كل العاملين في الدكّان يأخذون إجازة أحيانًا. "رامتشاند" هو الاستثناء الوحيد. لم يكن "مهاجان" يمنح أيًّا منهم إجازة – مهما قصرت مدّتها – بسهولة. لكنه كان يضطر لذلك في بعض الأوقات، إذ أن لكل واحد منهم التزامات معيّنة تجبره على ذلك.

أماكن يذهبون إليها.. مناسبات يحضرونها.. أقارب يموتـون.. نـاس يتزوجـون.. زوجـات يجـب مرافقتهن حين يسافرن لزيارة أهاليهن في مدن أخرى.. أبناء يمرضون..

أما هو، فلم يكن لديه أسرة أو أقارب، أو مكان يـسافر إليـه. ولـذلك لم يكـن بمقـدوره أن يطالب بإجازة، كما يفعل الباقون. إنه حتى لم يصب بمرض يستلزم بقاءه في الفراش، مثلًا. مرة واحدة فقط، حين التوى كاحله العام الماضي. أرسله "مهاجان" إلى البيت، بعد أن تفحّص ساقه وقدمه بدقة، ثم قال: "ستكون بحالة ممتازة بعد ثلاثة أيـام، لا أكـثر. عُـد بعـد انقـضاء الأيـام الثلاثة". وهو ما فعله بالضبط. كما أنـه لم يكـن يـستطيع أن يـتمارض، لأن "مهاجـان" يعـرف عنوان مسكن كل واحد فيهم، ومن عاداته الخبيثة أن يرسل أحـدهم لبيـت المتغيّـب ليتأكّـد من أنه مريض فعلًا!

ولطالما فكّر "رامتـشاند" بـأسى بأنـه حتـى لـو نجـح في التغيـب عـن العمـل.. فـما الـذي سيفعله؟ وأين سيذهب؟ ولهذا السبب، واظب على الذهاب لعمله كـل صـباح.. إلا أن اليـوم سيكون مختلفًا تمامًا. انتابته رغبة ملحّة في الرقص. لم يعـد يـستطيع الـسيطرة عـلى انفعالاتـه أكثر من ذلك، فبدأ بدندنة خافتـة لإحـدى الأغنيـات الـشهيرة، ثـم انطلـق صـوته في وضـوح، وسرعان ما صار مجلجـلًا.. وراح يغنـي بـأعلى صـوته. أخـذ يـرقص بـسعادة، مرتـديًا "فانلّتـه" البيضاء القديمة وسروالًا عتيقًا، دون أن يشعر بالبرد. صاح صاحب البيت من الطابق الـسفلي: "رامتشاند! اسكت!".

تظـاهر بأنـه لم يـسمعه، واسـتمر في الغنـاء بـصوت يقـترب مـن الـصراخ: "يـا قلبـي.. يـا قلبيييه!!".

صاح الرجل مرة أخرى: "رامتشاند!..".

واصل "رامتشاند" غناءه وهو يهرول بحماس، ثم قفز فوق الكـرسي ذي القـوائم القـصيرة، ونـزل عـلى الأرض محـدثًا صـوتًا قويًـا مكتومًـا.. وولـولـت

"سودها"، زوجة الرجل: "يا ويلي!.. كسر سطح البيت!". جأر الرجل وجسده النحيف يرتجف من فرط الانفعال: "رامتشااااند!..".

بدأ يغني بصوت هامس. تملّى بإعجاب شديد مظهره في المرآة التي تعلوها البقع الداكنة. أدار رأسه يمنة ويسرة.

تملّكه جنون آخر وهو يحلق ذقنه. غطّى شاربه برغوة الصابون، ثم حلقه تمامًا.

صحيح أنه كان خفيفًا، بشعيرات متطايرة.. لكن اسمه – في النهاية – "شنب"!

غسل وجهه بالماء، ثم نظر لصورته في المرآة. بدا مختلفًا تمامًا.

قلّة قليلة من ممثلي السينما في "مومباي" لديهم شوارب. "آنيل كابور" له واحد.. لكنه يبقى نجمًا متميزًا بأيّ مظهر يختاره.

تفحّص وجهه من جديد في المرآة. قال لنفسه بإعجاب: "لا بأس". فكّر بأنه مع وجه حليق كهذا، ينبغي أن يكون اسمه أجمل من "رامتشاند".. "فيشال" أو "آميت" أو "راهول" مثلًا!

أخيرًا، بدأ يستحمّ، مستخدمًا صابونة "لايف بوي" التي اشتراها مساءً. فرك جسمه بعناية، وغسل عصير الليمون عن قدميه. لبس ثيابًا داخلية نظيفة ومغسولة. أخرج ملابسه الجديدة من الكيس. أدخل أطراف القميص الأبيض في البنطلون الأسود، ثم ارتدى "بلوفر" صوفيًا قديمًا، لكنه نظيف. مشّط شعره. نظر لنفسه طويلًا.. عكست المرآة شكله المرتّب. أضفى عليه وجهه الحليق شيئًا من الحزم. اعترف لنفسه بأن الملابس الأنيقة تصنع فرقًا واضحًا وملموسًا. لم يعد له ذلك الشكل العتيق، البالي. صار له مظهر محترم، لا يتذكّر أنه عرفه أبدًا.



قال "جوكل" وهو يضيف آخر قطعة "ساري" إلى المجموعة الضخمة:

- ها. لقد انتهيت. توخّ الحذر. أثمانهم باهظة، كما تعرف.

أضاف مذكّرًا:

- كن بالغ التهذيب وأنت هناك.

أومأ "رامتشاند" بطاعة.

اقترب منه "هاري"، وأحاطه بذراعه بودّ شديد:

- يا سلام! تبدو اليوم كنجوم السينما بالضبط!

احمَّر وجه "رامتشاند" لهذا الإطراء. حمل مجموعة الأقمشة على كتفه، وهبط السُلَّم إلى حيث وضع "جوكل" دراجته. وضع الصرة الكبيرة أمامه، وربطها بحبل على المقدّمة. ألقى بإحدى ساقيه حول الدراجة، وجلس على مقعدها الصغير، ثم وضع ساقه الأخرى، وانطلق بحماس وهو يشعر بأن

الحرّية تنبعث من كلّ مسام جلده النظيف.

تساقطت عليه أشعة الـشمس الحانيـة، تمـدّه بـدفء محبّـب. شـقّ طريقـه بـين الأعـداد الضخمة من الدراجات والمشاة وعربات الخضراوات. توجـه إلى خـارج المدينـة القديمـة. عـلى أطراف السوق الكبير، توقف بجـوار "أنانـد للعـصائر". ظـل بجـوار الدراجـة، دون أن يـدخل المحل، إلى أن خرج إليه أحد الصبية العاملين هناك ليسأله عـمّا يريـد أن يـشرب. طلـب منـه كأسًا من عصير البرتقال الحلو. ظلّ يحيط "السواري" بذراعه في حرص. أحضر له الولد العصير. انساب الشراب البرتقالي داخل فمه بنعومة. أطاح برأسه للوراء، وهو يعبّ القطـرات الأخـيرة. طارت حماماتٌ رمادية فوق رأسه. قطرة وحيدة علقـت بطـرف شـفتيه. لمعـت مـع انعكـاس أشعة الشمس عليها. مسحها "رامتشاند"، ثم دفع ثمن العصير، وانطلق بالدراجـة ثانيـة، وهـو يشعر بالحرّية والسعادة، كما لم يعرفهما منذ سنوات.

بعد نصف ساعة، وصل إلى "جرين آفينيو"، حيث يعيش "رافيندر كابور". كـان "جوكـل" قـد وصف له كيفية الوصول إلى هناك، وزوّده بورقة دوّن عليها شرحٌ مفصّل للطريق. تبع الخطوات المكتوبة. انعطف يسارًا، حين لمح التليفون العمومي. وجد نفسه في شارع فـسيح تظلّلـه أشـجار كثيفة الأوراق والأغصان، وتحيط بجانبيه أرصفة منتظمة. عـلى يمينـه، امتـدّ صـفّ مـن البيـوت الكبيرة المحاطة بأسوار عالية؛ أمَّا على يساره، فالمساحة الشاسعة بأكملها عبارة عن حديقة عامّـة لسكّان الحيّ.. مكان فسيح لم يعرف "رامتشاند" أبدًا أنه موجود في "آمريتسار".

قال لنفسه، وهو يرتجف قليلًا: "ثالث منزل في الجهة اليمنى..".

تخطى أول بيتين، ووقف أمام السور الخارجي للثالث.

البوّابـة الحديديـة العاليـة في واجهـة البيـت، لهـا فتحـات ونقـوش معقّـدة

ومتداخلة، تتناثر على سطحها أشكال كروية من النحاس، وينتهي طرفها العلوي بقطع حادّة من المعدن المدبّب.

تتوسط الواجهة لوحة من الجرانيت، حُفِرت عليها كلمتان. تأمَّل "رامتشاند" الحروف وحاول قراءتها. لسعادته، اكتشف أنه يستطيع ذلك. الكلمتان هما: "منزل كابور".

شيء ما في اللوحة يوحي بالعظمة.

عبر فتحات البوابة، شاهد "رامتشاند" ممرًا تحفّه قصاري نباتات، من الجانبين. وسائق يمسح سيارة زرقاء طويلة، بفوطة نظيفة. ورأى أيضًا حديقة منسقة، وبستاني ينحني متمعنًا في بعض الأزهار المزروعة في طرف منها.

ضرب "رامتشاند" الجرس، وهو يشعر بتوتر شديد. جاء السائق ليفتح البوابة. كان رجلًا ضخم البنيان، ويشمّر كمّيه الصوفيين عن ساعدين قويين. سأله بارتياب:

- نعم؟

- لقد.. لقد.. أحضرتها معي..

- ما الذي أحضرته؟

- الأقمشة و"السواري"..

- أيّ أقمشة؟

- لعرس الآنسة. من "سيفاك". أعني.. دكّان "سيفاك بيت الساري".

- آه.. فهمت.

قيّمه بنظرة طويلة متمعنة، ثم تنحى جانبًا، مفسحًا له الطريق، وقال:

- ادخل.

سار "رامتشاند" في الحديقة الفسيحة، وهو يجرّ الدراجة بجواره.

زيّن باب البيت بكلمة "أوم"[3] كبيرة، من الخشب المحفور.

وقف منتظرًا، وهو يطقطق أصابعه الواحد يلو الآخر. من مكانه، شاهد سيارة حمراء تقف خلف السيارة الزرقاء الطويلة، ورأى باب الجراج المغلق. ربما هناك سيارة أخرى لا يستطيع رؤيتها من هنا. للجراج بوّابة متسعة، تسمح بخروج ودخول السيارات بحرّية، دون الاضطرار لتحريك الزرقاء الطويلة من مكانها.

بعد دقيقة أو اثنتين، فتحت له خادمة تلبس "ساري" من اللون البنفسجي الفاتح، وقادته إلى غرفة كبيرة تمتدّ على أطرافها أرائك فخمة، تتوسطها منضدة مغطاة بالزجاج. الأرضية بأكملها مغطاة بسجادة سميكة زرقاء. زينت الجدران بلوحات فنية ومشغولات نحاسية.

وضع "رامتشاند" الصرة الكبيرة بجانبه على الأرض، وجلس متوترًا على طرف إحدى الأرائك اللينة.. كسمكة تمّ إخراجها من الماء.

الهدوء يعم المكان. ليس هناك أيّ صوت، عدا تكتكة ساعة الحائط بالغة الجمال. ظلّ منتظرًا لربع ساعة تقريبًا، ثم دخل صبي صغير حاملًا صينية يتوسطها كأس من الكولا المثلّجة.

---

(3) أوم: لفظ مقدّس تبدأ وتنتهي به أغلب النصوص الدينية في الهندوسية؛ وكذلك في البوذية المنتمية لمنطقة التبت.

كان وجه الولد محمرًا مـن الخجـل والارتبـاك. أحـسّ "رامتـشاند" بالـشعور ذاتـه. تنـاول الكأس ببساطة متعمدة، حتى يُشعر الولد بأنه معتاد على الجلوس في حجرات فخمـة كهـذه، وتَناوُل كؤوس المشروبات المثلّجة الغالية، التي يقدّمها إليه الخدم.

حين همّ برفع الكأس، لاحظ أن الصينية مصنوعة من زجـاج خـشن الملمـس، حفـر عليـه رسمٌ يمثّل طواويس. تذكّر على الفور "الساري" الذي ابتاعته مسز "جوبتـا" مـؤخرًا. للحظـات، انشغل بالنظر إلى تفاصيل الرسمة.

وقف الصبي مترددًا، متململًا. سأله "رامتشاند" فجأة:

- هل أنت جديدٌ هنا؟

حملق فيه الصبي بصمت.

كرّر "رامتشاند" السؤال بالهندية، بدلًا من البنجابية التي استخدمها المرة الأولى.

أجاب الصبي بإيماءة من رأسه، فسأله:

- من "هيماتشال"؟

ومضت عينا الصغير، وقال بحماس:

- نعم.. من قرية "لاكاندي". بالقرب من "سيملا". هل أنت أيضًا من هناك؟

لاحظ "رامتشاند" أن للولد صوتًا جميلًا وعذبًا.

هزّ رأسه نافيًا.

خبا وجه الصبي. نظر إليه لبرهة، ثم غادر الحجرة فجأة.

انتظر "رامتشاند" لربع ساعة أخرى. أخيراً، دخلت امرأة متوسطة العمر، مرتدية ثوبًا قصيراً وسروالًا من الحرير الأزرق، وقد أحاطت كتفيها بشال من الصوف الفاخر. تلمع المجوهرات الثمينة، من ذهب وماس، على يديها وأذنيها.

وقف، وضمّ كفّيه إلى بعضهما، وحيّاها باحترام وتهذيب:

- سيّدتي.. ناماستيه.

صرخت فجأة:

- "ريناااااااه"!

انتفض مذهولًا.

صاحت ثانية:

- بائع "السواري" هنا.

حين تفتح فمها لتصرخ، تستطيع أن تلمح حنجرتها، وأن ترى أسنانها الكبيرة المنتظمة.

ردّت تحيته أخيراً:

- "ناماستيه".

جلست على الأريكة المقابلة.

دخلت فتاة شابّة ذات شعر تلتفّ خصلاته في تجعيدات مرتّبة. غاص كعبا حذائيها العاليان في وبر السجادة الوثيرة. كانت تلبس بنطلون جينز، وسترة

صوفية سوداء، يظهر من تحتها قميص ناعم مطبوع بورود زرقاء وبنفسجية. وتزيّن معصميها بأساور من الفضّة.

- نعم ماما؟

- اجلسي. لنلقِ نظرة على هذه "السواري".

نظر "رامتشاند" إليهما. هاتان المرأتان هما زوجة "رافيندر كابور" وابنته إذًا.. سمع مرّة أن الزوجة اشترت شالات صوفية بما يقترب من المئة ألف روبية، في زيارة واحدة. تمعن فيها بفضول.

قالت بحدّة، وبصوت قاسٍ:

- ماذا تنتظر؟ هيّا.. ابدأ في عرض ما لديك.

قالت الابنة بصوت عميق، متمهل:

- ماما.. فليوجد معنا أحد الخدم.

فغرت المرأة فمها باتساع، حتى ظهرت حوافه الداخلية الحمراء، وصاحت بقوّة:

- "راجوووو"!

فُتح الباب على الفور، ودخل منه بهدوء شاب طويل. وقف باحترام بالغ، يتابع ما يجري.

من مكانه على الأريكة، انحنى "رامتشاند" ليحلّ الأطراف المعقودة للصرة الرابضة عند قدميه. لم يكن الوضع مريحًا. أخذ يحاول فكّ العقَد المُحكمة بأطراف أصابعه، دون جدوى. بعد لحظات، استأذن بأدب، وسار إلى طرف

السجادة، حيث خلع حذاءه، ثم عاد لمكانه. رفع قليلًا ساقيّ البنطلون الجديد، ثم تربّع على الأرض الوثيرة، شابكًا ساقيه ببعضهما، وبدأ يشعر – أخيرًا – أنه يمارس طقسًا مألوفًا.

نظرت "رينا" إلى أمها، وهي تحاول ألّا تفلت ضحكتها المكتومة. لكنه لم يبالِ بردّ فعلها.

فتح الأطراف المعقودة، بسرعة، وبدأ في إخراج "السواري" بثقة، واحدًا وراء الآخر.

لكنّ ما أعقب ذلك، كان شيئًا لم يره أبدًا طوال حياته العملية.

كان قد مضى عليه أحد عشر عامًا في الدكّان. راقب خلالها أعدادًا هائلة – لا يمكن حصرها – من السيدات، وهن يخترن أقمشة جديدة. كل النساء في نظره كائنات غريبة.. بعيدة كل البُعد عن عالمه، إلا أن جانبًا واحدًا فيها جميعًا مألوفٌ لديه، ويعرفه تمام المعرفة: الطريقة التي ينتقين بها "السواري".

بمرور الوقت، تعلّم كيف يقرأ التعبيرات المرتسمة على وجوههن، وكيف يفهم أمزجتهن بدقة. بل إن بإمكانه أن يخمّن – على نحو صائب تمامًا – ما إذا كنّ سيشترين "ساري" معيّنًا، أم لا. إنه يعرف متى يكنّ مترددات في الاختيار بين أكثر من قطعة، وكيف يمكن دفعهن للاستقرار على رأي. باستطاعته أن يفهم، منذ أول لحظة لدخول الزبونة، إن كانت ترغب حقيقةً في الشراء.. أو إن كانت تودّ فقط مشاهدة الجديد من المعروضات، عبر إبداء الاهتمام المصطنع.

يدرك جيدًا النظرة التي تطلّ من عيني العرائس الشابّات حين يحضرن للدكّان بصحبة أمهاتهن وخالاتهن وشقيقاتهن. يميز وجوههن المتألقة وأعينهن اللامعة والتشوّق الصامت الخجول. كانت كل عروس منهن، تلقي

بطرف "الساري" على كتفها، وتنظر لنفسها في المرآة بتمعن. تبـدأ النـسوة المـصاحبات لهـا في تأكيد جمال "الساري"، ومدى ملاءمته لها. لكن كل عروس تنظر لنفسها عـبر عينـي الخطيـب وزوج المستقبل فقط.. تنفرج شفاههن بابتسامات حالمة.. وفي كل مرة.. يفشلن في اتخاذ قـرار حازم. وحين تسألهن المرافقات لهن ما إذا كنّ يرغبن في ابتيـاع هـذا أو ذاك.. يكتفـين بإيمـاءة، متبوعة بهزّة رأس، محدثات المزيد من الارتباك.

في بعض الأحيان، يلاحظ "رامتشاند" أن العروس غير مبتهجة.. وأن لا شيء يظهر في عينيها سوى الأسى. لا يتكرر هذا الموقف كثيرًا، لكنه حين يحدث، يثقل قلبـه بـالحزن. وفي كـل مـرة، يؤكّد لنفسه بعدها أن خياله فقط هو الذي صوّر له ذلك.

كان قد رأى الكثير خلال عمله. رأى الخيلاء.. والحسد.. واليأس.. والقنـوط. ويعلـم المـرارة التي تشعر بها غير الجميلات، حـين ينظـرن في المـرآة، ويـدركن أن "الـساري" – مهـما بلغـت روعته – يعجز عن إضافة الحُسن إليهن. كما يعرف ملامح الانتصار الصامتة التي تعلو وجـوه الفاتنات من الزبائن.

كان "رامتشاند" قد لاحظ أيضًا أنـه مـن النـادر أن تـأتي امـرأة بمفردهـا لابتيـاع "سـاري". كـل زبونـة تـصطحب معهـا امـرأة أو اثنتـين لمـساعدتها في اتخـاذ القـرار، ومـشاركتها بهجة الحصول على قماش جديد. فالأمر برمّته ليس مجرد عملية شراء عادية.. بل أمـرٌ باعـث عـلى التـسلية والمتعـة.. ومهمـة لطيفـة تفـيض بالـذوق والجـمال. إن لم تـأتِ الزبونـات في مجموعات، فإنهن يأتين بصحبة امرأة واحدة على الأقل. يتبادلن الحـديث عـن "الـساري" المعروض أمامهن، ويناقشن مزاياه وعيوبـه. كـل واحـدة مـنهن تمـطّ شـفتيها في اسـتياء إن لم يعجبها ما تراه؛ وتتبادل نظرات ذات مغزى مع الأخريات، اللاتي يقمن بهزّ رؤوسـهن في رفـض

تامّ.. ويبدأن في تحليل نقاط ضعفه.. كان سيبدو أجمل لو كانت حوافّه مختلفة بعض الشيء.. أو من طراز آخر.. أو لو كان لونه من درجة أغمق أو أفتح قليلًا.

تعلّم "رامتشاند" أن يكون صبورًا، حين تبدأ الزبونات في الحديث مع بعضهن البعض، والتمعن في "الساري" لفترة طويلة وبدقّة بالغة، وحين يمررن أصابعهن على سطحه بخفّة ويقيّمن تصميمه ونقوشه.. وكأنهن يحاولن فكّ شيفرة سرّية معقّدة!

كما تعلّم كيف يميز تلك النظرة التي تفيض بالاشتهاء، عند رؤية قماش بديع، وما يتبعها دائمًا من حزم وتصميم وقرار لا يقبل التغيير بالحصول عليه، أيًا كانت الظروف أو التبعات.

في بعض الأحيان تلعب سيدات الأسرة، الأكبر سنًّا، دورًا في المسرحية المعروضة. يصاحبن الفتيات ونساء الأسرة اللاتي يصغرهن في العُمر، ويقمن باتخاذ القرار النهائي، دون مناقشة؛ وبخاصّة إن كانت عملية الشراء تتمّ بمناسبة حضورهن لحفل زفاف.

الجدّات والحموات كن يرافقن الأخريات ليتأكدن من أن واحدة منهن لن تحضر الحفل بـ"ساري" رخيص أو غير لائق. وذلك بالطبع حتى لا تكون عائلتهن هي الطرف المهزوم في حرب "السواري" الضارية، الدائرة على الدوام.

حين تكون الزبونات من أسرة واحدة، يبدون أكثر راحةً وانطلاقًا. وتسأل إحداهن الأخرى عمّا إذا كان لديها هذا اللون أو ذاك، لأنها لا تتذكر جيدًا. يلقين بأطراف "السواري" على أكتافهن، أو يضعنها على رؤوسهن، ويسألن بعضهن كيف يبدون. ربّما كان ذلك هو أكثر وقت تكون فيه النساء في قمة الصدق والصراحة والأمانة والإخلاص.. تجاه بعضهن البعض.

وفي كل الأحوال، فلا بد أن تنتهي عملية الشراء بخطوة لا تتغير أبدًا.. الفصال.

والفصال أنواع؛ هناك القائم على نقاش لطيف، والـذي تمارسـه الزبونـات الـدائمات بثقـة، لتأكدهن من أنهن سيحصلن على خصم يرضيهن تمامًا.

وهناك النوع الممتلئ يالـصياح والـصراخ، الـذي يـصدر عـن النـسوة العـدوانيات، بحكـم العادة لا أكثر، وينتهي الأمر بصداع للطرفين.

وهناك الفصال الناعم الرقيق، التي تتبعها غير المتمرسات.. المفتقدات الخبرة.

وهناك بالطبع الطريقة الأرستقراطية، لسيدات العائلات الثرية، حين يقلـن بأسـلوب آمـر، وهن يشرن بأصابعهن في عجرفة: "فليكن الحساب معقولًا من فضلك".

يتم الفصال عبر أساليب مختلفة ومتباينة، ولكن لا تخلو أيّ عملية شراء من طريقة منها.

ولكن اليوم، في حجرة استقبال عائلة " كابور"، لم يكن هنـاك فـصال مـن أيّ نـوع. مجـرد أسئلة قليلة. ليس بينها استفسار عن الأسعار. حتى حـين أخـرج أغـلى الأصـناف التـي حملهـا معه.

تبادلت المرأتان كلمات قليلة، وهما منهمكتان في اختيار ما تريدانه. تجاهلتاه تمامًا. قامتـا بانتقاء سواري باهظة الثمن، وبعض الأوشحة الغالية، دون أن يطرف لهما جفـن. تـضعان مـا تودّان شراءه في جهة، وتلقيان ما لا يعجبهما في كومة أخرى، بإهمال ولا مبالاة.

اختارت "رينا" "ساريين" شفّافين. أحدهما بلون وردي ناعم تتخلل حوافـه خيـوط فـضّية، والآخر أزرق فاتح جدًا.. يقترب من الأبيض.. بتطريز كثيف باللون الفضّي.

ودون تردّد، اختارت أمها "ساري" أزرق مـن قـماش رقيـق مكـرمش، بحـوافّ ثقيلـة ذات نقوش بارزة. أعقبته بآخر من اللون الأخضر الزيتي. ووراءهـما "سـاري" مـن الحريـر الخـشن باللونين البنّي والذهبي.

واصلتا الشراء بهذه الطريقـة، في حـين جلـس "رامتـشاند" يتـابعهما وقـد غمـره إحـساس بالحرج والارتباك وانعدام الفائدة. الأسـئلة القليلـة التـي وجّهـت لـه، كانـت مـن قبـل مـسز "كابور"، وكشفت عـن خبرتهـا الكبـيرة في عـالم المنـسوجات. حـاول أن يخفـي اضـطرابه وهـو يجيبها.

أسلوب المرأتين في الانتقاء كان به شيء غير قليل من القسوة. كل منهما تمسك بـ"الساري" بين يديها، تمرّ عليه بنظرات حادّة من عينيها.. تشمل طرفه وحوافـه.. تتحسـسه بـين إبهامهـا وأطراف أصابعها، ثم تقرر بسرعة.. بنظرة صارمة لا تردد فيها.

خلال ذلك كلّه، دخلت الغرفة فتاة في حوالي التاسعة عشرة. تلبس بنطلـون جينـز أسـود، ولها شعر قصير جدًا. حين تكلمت، بدا صوتها أكثر عمقًـا مـن صـوت أختهـا. بـدت في منتهـى الحيوية والثقة بالنفس.

قالت بالإنجليزية:

- "رينا".. سأذهب لأسبح. حين أنتهي، سألقاكِ في مركز التجميل.

- حسنًا. باي باي "تينا".

كانت "تينا" على وشك المغادرة، حين انتبهت لـ"السواري" الملقـاة في كـل مكـان. توقفـت وسألت:

- ما الذي يحدث هنا؟ ظننت أننا سنكتفي بـ"السواري" التي اشتريناها من مصممي الأزياء في بومباي. ماذا ستفعلان بهذه أيضًا؟

- كل ما في الأمر أنني قررت، بعد تفكير، أنني لا أريد أن تكون ثيابي ومجوهراتي تقليدية.. كما أنني لا أريدها على نمط واحد. أرغب حقًّا في تكوين مجموعة تعبّر عني وعن شخصيتي تمامًا. أعني أن يكون بها ثياب تراثية مثلًا وأخرى عصرية وفق أحدث صيحات الموضة.. وهكذا لن يملّ الناس مظهري.. وأستمتع أنا بتجربة أنماط مختلفة من الملابس.

قالت "تينا" بعد قليل من التفكير:

- يا لها من فكرة رائعة! أنتِ محققة. أفكارك دائمًا مبتكرة يا "رينا".

ابتسمت الشقيقة الكبرى، ورفعت "ساري" أصفرَ مائلًا للذهبي، كانت قد اختارته توًا:

- انظري لهذا مثلًا.. إنه من الحرير الطبيعي وعليه تطريز فلكلوري قديم. هذا المتجر يبيع منسوجات من كل الأماكن في "الهند"، ولذلك قررت أن أضيف للملابس التي اشتريتها من "مومباي"، مجموعة أخرى من بضاعتهم المتميزة.

تأمّلت "تينا" "الساري" بإعجاب:

- واو!.. منتج خلّاب. أرغب حقًّا في مشاهدة بقية ما اخترتماه.

أردفت بضيق:

- لِمَ لم تخبراني عن الأمر؟

ضحكت "رينا" وهي ترمقها بمحبّة واضحة:

- شكلك رائع وأنتِ غاضبة! ثم إنك استيقظت متأخرة اليوم.. على أيّ حال، أعدكِ بأنني سأريكِ إياها، قطعةً قطعة، هذه الليلة. ما رأيك؟

- لا بأس.. سأذهب للسباحة الآن، وبعدها لمركز التجميل. أراكِ هناك كما اتفقنا؟

- نعم.

قالتها وهي تعاود مشاهدة "السواري" المختلفة..

لوّحت "تينا" لأمها، التي اكتفت بإيماءة ردًّا عليها. غادرت الحجرة بخطوات خفيفة ورشيقة.

تابعها "رامتشاند" عبر النافذة، وهي تركب السيارة الحمراء الصغيرة، وتغلق بابها بقوّة، ثم تنطلق بها بسرعة فائقة.

انتهت المرأتان من تفحص كل "السواري"، واختارتا ما أعجبهما. بدأ "رامتشاند" عملية حسابية في رأسه، يحسب بها قيمة ما اشترتاه. وجد أنها تقترب من ثمانين ألف روبية.

قالت مسز "كابور" بعدم اكتراث، وهي تشير إليه بيدها:

- أحضر لنا الفاتورة المرة القادمة، حين تحمل إلينا المجموعة الثانية من "السواري".

ظلّ "رامتشاند" محملقًا بها. "مهاجان" سيقتله حتمًا. ولكن، إن أغضبها، فإن "مهاجان" سيقتله أيضًا. لذلك قرر أن يلزم الصمت. أحسّ بحيرة شديدة.. وتساءل في انزعاج لماذا لم ينبّهه أحد في الدكان لكيفية التصرف في موضوع الفاتورة.

للحظات، انتابه رعب قاتل. ماذا لو لم تدفع المرأتان؟ ماذا لو أنكرتا، وقالتا إنهما لا تعرفان شيئًا عن هذه "السواري"؟ هل سيطلَب منه دفع ثمانين ألف روبية؟ كل النقود التـي يـدّخرها لا تتجاوز ثلاثة آلاف وأربعمئة وثلاثين روبية.

حاول أن يتماسك. أصحاب هذا البيت يمتلكون عدّة مصانع. لا شكّ أن الثمانين ألفًـا تعـدّ مبلغًا تافهًا بالنسبة لهم.

كانت المرأتان قد غادرتا الحجرة، وهما تتحدثان بحماس عن الجـواهرجي الـذي سيحـضر لهما قطعًا من أحدث التصميمات، بعد عشر دقائق.

لملم "رامتشاند" "السواري" وهو ذاهل، فيما انتظره "راجو" ليصطحبه إلى خارج المنزل.

الفاتورة المرتفعة.. غرفة الاستقبال المترفة.. سيارة "تينا كابور" الحمـراء.. النـساء الواثقـات من أنفسهن.. الروائح غير المألوفة في هذا المنزل.. كلّ هذا تركه مذهولًا ومضطربًا.

ركب الدراجة وقادها بتمهل. دارت عجلاتها بـبطء منـتظم. تتابعـت الـصور الجديـدة في رأسه، مرة تلو مرة.

حين وصل الدكان، هرول باتجاه "جوكل". قال بضيق وهو يقبض على ذراعه بقوة:

- أخي "جوكل".

صمت بعدها ولم يعرف ماذا يقول. قفز "جوكل" من مكانه وقال:

- تذكرتُ الآن! لقد نسيت أن أخبرك عن الفواتير!

كاد "رامتشاند" أن يموت من الصدمة، عاجله بسرعة:

- أخي "جوكل" هي التي طلبت مني أن آخذها لهم غدًا.. وأنا لم أعرف كيف أتصرّف. ثم إنني لم أحسب مجموع ما اشتروه بدقة.. أما بالنسبة للفلوس...".

قاطعه "جوكل" بارتياح:

- الحمد لله.. الحمد لله. لقد تصرفتَ كما ينبغي. لقد نسيتُ تمامًا أن أنبّهك لهذا الموقف.

كرّر مرة أخرى:

- لقد تصرفت كما ينبغي.

أضاف:

- لقد خشيت أن تطالبهم بالمبلغ وأن تصرّ على تسلُّم النقود.. يا لها من فضيحة للدكّان! و"مهاجان" كان سيعاقبك على حماقتك.. ويعاقبني أنا أيضًا لإهمالي في تذكّر هذه النقطة المهمة. والآن.. اذهب إليه. إنه بانتظارك ليسمع منك التفاصيل. إن لديه قائمة بكل "السواري" والأقمشة التي أخذتها معك. سيرسل الفاتورة لـ"رافيندر كابور"، وسيرسل لنا الرجل بدوره شيكًا. هكذا تتم الأمور حين نتعامل مع الزبائن المهمّين.

أوشك "رامتشاند" أن ينفجر في البكاء، من فرط الارتياح.

لم يستغرق وقتًا يذكر في الحديث مع "مهاجان"، وفي إعادة "السواري" التي رفضتها العروس وأمّها إلى أماكنها الصحيحة. بدا "مهاجان" سعيدًا به؛ قال له إن

بإمكانه أن يعود إلى البيت، وأن يعتبر بقية اليـوم إجـازة، لأن قيـادة دراجـة محمّلـة ببـضاعة ثقيلة من وإلى "جرين آفينيو"، ليس بالأمر الهيّن أبدًا. شكره "رامتشاند" بحرارة.

قال "مهاجان":

- ولكن لا تتوقع مني أن أدلّلك هكذا يا ولد كلّما أرسلتك إليهم. سأتصل بهم، وأتوقـع أن يطلبوا مني دفعة أخرى من الأقمشة. ربما ستذهب هناك غدًا أيضًا.

غادر "رامتشاند" الدكّان.

كان جوّ المساء باردًا. أحاط نفسه بذراعيه. أحداث اليوم جعلتـه مـضطربًا بعـض الـشيء، لكن تغيير روتينه المعتاد حرّكه من الداخل بطريقة غير مألوفة له.

ركوب الدراجة لمدة طويلة.. الشمس.. النسيم.. المتاجر.. منـزل "كـابور"... جميعهـا أمـور خارج نطاق حياته اليومية، التي لم يجرّب غيرها لأحد عشر عامًا؛ وكلّها تركـت في نفـسه قـدرًا غير قليل من الإثارة والحماس. اكتشف أن العالم كبيرٌ حقًّا. وأن حياته باهتة جدًا، وأنهـا تمـضي بصورة متكررة في مكانين فقط: الدكان، الحجرة، الدكان، الحجرة، الدكان، الحجرة... وأنك حـين تخرج من ذلك المضمار، تكتشف أن الدنيا مليئة باحتمالات لا نهائية.. هناك الجبـال الخـضراء الشاهقة الارتفاع التي يأتي منها خادم أسرة "كـابور".. هنـاك الجـداول الرقراقـة المنـسابة عـبر الأودية.. مياهٌ صافية.. صفاء صوت ذلك الخادم الصغير. هناك المسبح الذي ترتـاده "تينـا".. ربمـا كان مثل حمام السباحة الذي يظهر في فيلم "بازيجـار".. بمرمـر أزرق ولـوح قفـز مرتفـع، كـذلك الذي وقفت على حافته "شيلبا شيتي" وهي تغني، مرتدية بلوزة سوداء عارية الظهـر، و"سـاري" خفيفًا من "الشيفون" الأصفر. هناك الكلّية التي تـدرّس بهـا مـسز "ساتـشديفا".. والكتـب التـي يقرؤهـا ملايـين النـاس يوميًـا.. والـسيارات.. والأزهـار المزروعـة في قـصاري.. وصـواني التقـديم

المزيّنة بطواويس.. هناك الكثير جدًا في هذا العالم المتسع.. المترامي الأطراف.

بدأ يشعر بالابتهاج. صارت خطواته خفيفة. غيّر من اتجاه سيره، فجأة، ومشى في الاتجاه المعاكس. سار بسرعة، متناسيًا برودة الجوّ الشديدة، إلى أن بلغ مجموعة من الدكاكين الخشبية الصغيرة التي تبيع كتبًا مستعملة. يعتمد أصحابها في تجارتهم على باعة الـ"روبابيكيا". يأخذون منهم الكتب القديمة، ثم يعيدون بيعها بسعر أعلى قليلًا. أغلب ما يحصلون عليه – عادةً – هو الكتب المدرسية. يبيعون بعض المطبوعات المختلفة، ولكن بشكل قليل جدًا.

توقف "رامتشاند" أمام الدكان الأول. الكتب مرصوصة في أكوام بالداخل.. على الأرض، وعلى كل سطح. كما امتدت الكتب المكدسة إلى الخارج، بجوار المدخل.

طاف "رامتشاند" ببصره في المكان. اتخذ قرارًا بأن يشتري بضعة كتب اليوم. تذكر أن عليه أن يفكر بروّية، لأن ميزانيته لا تسمح له بإنفاق أكثر من مئة روبية.

فيما كان يقرأ العناوين الإنجليزية، تذكّر شهادة إنهاء الصف الثامن التي لا تزال قابعة في الصندوق المعدني القديم، بغلافها البلاستيكي الأخضر.

الشهادة التي لم يطلب أحد رؤيتها أبدًا.

لقد نسي معظم ما تعلمه في المدرسة. أدرك ذلك الآن فقط، وهو ينظر للعناوين المختلفة. لم يعد يستطيع أن يقرأ جيدًا.

حين كان تلميذًا، كان يقرأ بشكل معقول. لم يكن رائعًا أو عبقريًا، لكنه أيضًا لم يكن سيئًا.

يحاول دائمًا أن يتناسى الصف الثامن، واليوم الأخير له في المدرسة.. ليته ينسى أيّ جزء من طفولته..

لن يتذكر شيئًا من ذلك، اليوم تحديدًا. لن يجعل أيّ شيء يمنعه من اقتناء بعض الكتب هذا المساء.

رفع رأسه قليلًا، وضيّق عينيه، وحاول قراءة العناوين.. "فن كتابة الرسائل".. قرأ ذلك بصوت مسموع. شعر بالسعادة والإثارة. نعم.. هذا هو الكتاب الذي يحتاج إليه بالضبط. سيمنحه ما يحتاج إليه من تمرين على القراءة والكتابة والتواصل مع الآخرين.

سأل البائع:

- بكم؟

أجابه:

- بثلاثين.

فرح بالسعر، واحتضن الكتاب.

قرأ بقية العناوين: "القاموس الطبي".. "عمدة كاستر بريدج".. "من البدانة للرشاقة في ثلاثين يومًا".. "مرتفعات وذرنج"..

كلّا.. كلها تفتقر للعناوين المنطقية.

حوّل انتباهه لمجموعة أخرى.. "المطبخ النباتي الهندي".. "الفيزياء للصفّ العاشر".. "فن الفينج شوي لحياة سعيدة".

أحسّ بالحيرة. التفت للبائع وسأله:

- هل أجد لديك مذكرات "المهاتما غاندي"؟

قال الرجل:

- لا.

ومضى يتابع سحلية وهي تسقط من أعلى الجدار إلى الأرض. هجم عليها بمنفضة الغبار، وراح يضربها بها.

لمح "رامتشاند" كتابًا يعلوه عنوان "موضوعات التعبير البرّاقة"، وبخط أصغر تحته "لتلاميذ المدارس من كل الأعمار".

غمرته السعادة ثانية، لكنه فكر لبرهة أن الرجل لو أدرك أنه يرغب في الحصول عليه بشدّة، فسوف يضاعف الثمن على الفور، فقال متصنعًا عدم الاهتمام:

- بكم هذا؟

أجابه:

- بخمسين.

كرر "رامتشاند"، متسائلًا بغضب:

- بخمسين؟!

قال البائع بصرامة:

- نعم.. كما سمعت.

بعد جدل طويل، ومساومات عديدة، اتفق الاثنان على أن يدفع "رامتشاند" سبعين روبية للكتابين.

أعطاه مئة روبية، ووقف ينتظر أن يردّ له بقية نقوده. فـيما كـان الرجـل يبحـث في أحـد الأدراج عن باقي المبلغ، راح "رامتشاند" يتصفح ما اشتراه للتوّ. راعه أن يكتشف أنـه لم يفهـم معظم الكلمات المكتوبة، رغم محاولاته المـستمرة في الحفـاظ عـلى القـدر الـذي تعلمـه مـن اللغة الإنجليزية في المدرسة، عـن طريـق قـراءة لافتـات الطـرق، وأوراق الـصحف التـي كـان "لاكان" يلفّ فيها حبّات الـ"باكورا" المقلية الساخنة.

بدأ يشعر بالإحباط. سأل البائع بانكسار:

- هل أجد لديك قاموسًا للكلمات الإنجليزية؟ أريده مستعملًا ورخيصًا.

ناوله الرجل نسخة قديمة ومهترئة من "قاموس أوكسفورد".

حمله "رامتشاند" بين يديه باحترام كبير، وسأل عن ثمنه.

قال الرجل بسرعة:

- بأربعين روبية..

صاح "رامتشاند" باستنكار بالغ:

- أربعون؟! أربعون روبية لهذا الشيء؟!

رفع النسخة بأطراف أصابعه، أمام وجه البائع، الذي قال بإصرار:

- نعم.

أضاف:

- ثم إنه يحتوي على جميع الكلمات يا أخي!

نقده "رامتشاند" عشر روبيات إضافية على المئة التي كانت لا تزال في يده. لكنه – رغم كل هذه المصروفات غير المخطط لها – أحسّ بالفرحة، لأنه لم يقم بأي شيء له معنى منذ فترة طويلة. حمل كتبه بعناية، وسار متجهًا لمسكنه بخطوات واثقة.. كمن هو مقبل على معركة.. أحسن الاستعداد لها.

واستكمالًا لحالة الإسراف المفاجئ التي هاجمته، توقف عند مكتبة قرطاسية، وابتاع دواة حبر، وقلمًا ودفترًا. فكر في شراء بعض الجير الأبيض، ليغطّي به جدران حجرته الكالحة، لكنه لم يملك الشجاعة الكافية لإنفاق المزيد من المال.

دخل غرفته ممتلئًا بالانتعاش.





وضع "رامتشاند" رزمة الكتب والكيس البلاستيكي الذي يحوي ما اشتراه من قرطاسية، على السرير، وأمعن النظر في حجرته..

لها شبّاكان. يطلّ أحدهما على الشارع الضيّق، والآخر على حوش البيت. حين رأى المكان للمرة الأولى، سمَّاهما "النافذة الأمامية" و"النافذة الخلفية".

عندما استأجرها، كانت تضمّ سريرًا بهيكل خشبي وحبالٍ مشدودة بين جوانبه، ومنضدة، وبرواز ضخم معلّق على الحائط به صورة – تركها مستأجر سابق – عبارة عن كوخ صغير له سقف مائل، ونوافذ خشبية بديعة، لم يرَ "رامتشاند" مثلها في الواقع، وورود تتسلق مدخل الكوخ ذا المدخنة، الذي يمتدّ أمامه ممرّ من الأحجار غير المستوية. تعلو المنزل الصغير سماء شديدة الزرقة، وجبال عالية ذات قمم تكسوها الثلوج. وعلى الجانب السفلي الأيمن من الصورة، طبعت عبارة: "بيتك.. أينما يكون قلبك".

لم يبالِ "رامتشاند" بالتخلّص من الصورة، فظلّت معلّقة هناك للإحدى عشرة سنة الماضية. صار يحفظ كل تفاصيلها الدقيقة: الدَرج الحجري القصير أسفل باب المنزل، وشكل النقوش على الستائر المسدلة خلف النوافذ الجميلة،

والخطوط المتقاطعة على السقف المائل. بدأ لون الـورود الحمـراء المحيطـة بالمـدخل، يبهـت قليلًا. وفقدت السماء شيئًا من زرقتها.. ولكن ظلت الصورة – مع ذلك كلـه – في مكانهـا عـلى الجدار.

مع مرور الوقت، أضاف "رامتشاند" عدّة أشياء لمحتويات الحجرة. اشترى كرسـيًا، ومقعـدًا صغيرًا بقوائم قصيرة، ودَلوين، وكوز، وعلبتين صغيرتين من البلاسـتيك لحفـظ قطـع الـصابون، يضع في أحدهما صابونة "لايف بوي" لاستعماله الشخصي، وفي الأخرى صـابونة "ريـن" لغـسل الملابس. بالإضافة لذلك، ابتاع ممسحة أقدام، ومرآة قديمة الطراز، علّقها على الحائط.

ومنذ أن جاء لهذه الغرفة، وهويحلم بشراء بعض الستائر.. لكن نقوده تنفد – كل شهر – قبل أن يتمكن من ذلك.

يطهو طعامه في ركن من الحجرة، وضع فيه موقدًا صـغيرًا وبعـض الأدوات المنزليـة.. إنـاء طهي بذراع طويلة، وصحنين وكـوبين، وبـضع ملاعـق، ومغرفـة وسـكّينًا. يتكـوّن طعامـه – في الأغلب – من الأرز والعدس. ويكثر مـن اسـتخدام الموقـد في عمـل الـشاي لنفـسه. في أحيـان قليلة، يشتري بعض الخضراوات المعروضة بسعر زهيد، لذبولها أو لأنهـا توشـك عـلى الفـساد؛ يقطعها قطعًا صغيرة ويضيفها لإناء الأرز أثناء غليانه. فهـذا أقـصى مـا يـستطيع إعـداده مـن طعام.

حين تكون الأدوات بحاجة لتنظيف، يضعها في دلو ويحملها إلى الحـمام، ليغـسلها هنـاك. وحتى لو احتاج لشطف السكين بقليل من الماء قبل استخدامها، يضطر للذهاب إلى الحمام.

في بداية إقامته بالحجرة، كانـت الأرض مبللـة عـلى الـدوام بقطـرات المـاء المتساقطة من دلو الصحون والملاعق، وكان نعاله المنزلي المصنوع من المطـاط،

يترك آثارًا رطبة على الأرض. عندها.. قرر أن يبتاع ممسحة أرجل، مرتفعة الثمن بعض الشيء.

يقع سريره بجوار النافذة الأمامية؛ أما النافذة الخلفية، والتي كانت على مستوى منخفض، فقد وضع أمامها صندوقه المعدني وغطّاه بقطعة قماش. يحب أن يجلس عليه وينظر إلى الملابس المغسولة المنشورة على الحبال في حوش البيت، وهي ترفرف مع الهواء.

تلك الملابس التي غسلتها "سودها" بيديها الجميلتين.

نظر حوله إلى حجرته المهمَلة التي تعمّها الفوضى. فكّر بتقزّز أن هذا هو عالمه. لا عجب أن حياته محددة داخل تلك الحفرة الضيّقة.. الدكان.. الحجرة.. الدكان.. الحجرة...

أحس بطاقة فجائية، فخلع ملابسه الجديدة ولبس ثيابًا منزلية قديمة. حمل المكنسة التي لا يستخدمها إلا فيما ندر، وبدأ ينظف بها الأرض، ويزيل بيوت العناكب عن السقف وزوايا الجدران. أخرج كل ما كنسه إلى خارج باب غرفته، وتمعن فيه باهتمام. تحرك عنكبوت وسط كومة القاذورات، وفرّ مسرعًا. بالإضافة لبيوت العناكب المتهتكة، والتراب، كانت هناك خيوط صوفية من البطانية القديمة، وبعض الشعيرات المتساقطة من رأسه، وبضعة حبّات من الأرز وقعت منه وهو يخرجها من البرطمان، وقطع متناهية الصغر من براز سحلية، أسود اللون. جمع كل ذلك في كيس بلاستيكي، وربط أطرافه بإحكام. قرر أن يلقيه في المزبلة في طريقه للعمل صباحًا.

ملأ الدلو القديم بالماء، ومسح الأرضية باهتمام شديد، مستخدمًا خرقة قديمة. تجاهل البرودة الشديدة التي امتدت من أصابعه ليديه.

عقب ذلك، نظّف الطاولة. رفع عن سطحها برطمان طرشي المانجز، وبرطمانات الأرز والعدس، وعلبة معدنية من زيت جوز الهند "باراشوت" للشعر، ومعجون "بيرنول" بعبوته الخضراء الفاقعة، وأنبوب صغير من مرهم "زاندو" المسكّن للألم، وبعض قطع الثياب المتناثرة.

أزال الغبار عن سطح الطاولة. تطايرت بعض الذرّات قريبًا من وجهه. فأحضر قطعة قماش مبللة وعاود التنظيف بها. اختفت البقع المستديرة التي تركتها العبوات المختلفة. فرش "رامتشاند" جانبًا من الأرضية بالجريدة القديمة، التي كانت ملابسه الجديدة ملفوفة بداخلها. رتّب البرطمانات في صفين متواليين فوق الأوراق المطبوعة. الكبيرة في الخلف، والأصغر حجمًا أمامها. أصبحت الطاولة خالية ونظيفة.

غمره إحساس هائل بالنظافة والطهارة والفضيلة.

جرّ الطاولة ووضعها بمحاذاة السرير. بهذه الطريقة يمكنه أن يجلس على الفراش، ويضع كتبه ودفاتره على المنضدة، ليقرأ ويكتب تحت ضوء المصباح مباشرة.

أخرج كتبه الجديدة، وبدأ يقرؤها بتردد.

بدأ بكتاب "فن كتابة الرسائل". أحس بالفزع حين اكتشف فشله في قراءة معظم كلماته الإنجليزية. شعر بالعجز أمام أيّ كلمة يزيد عدد حروفها على أربعة. استطاع أن ينطق بعضها، بعد أن قسّم كل منها لعدّة أجزاء.. لكنها لم تكن سوى أصوات غامضة نطقها بلسانه دون أن يفهم معانيها.

حاول استخدام القاموس. أمضى وقتًا طويلًا في العثور عليها أصلًا. حين نجح في ذلك، اكتشف أن المعاني المكتوبة لا تقل في صعوبتها عن الكلمات نفسها.

أحس بإحباط فظيع، حتى أوشك على البكاء. جلس محملقًا في الصفحات المفتوحة، لمدّة طويلة، وهو يتساءل ما إذا كانت نقوده قد ضاعت هباء.. حين أنفقها على شراء هذه الكتب المبهمة. ألن يتمكن يومًا من أن يقرأ أو يكتب بالإنجليزية؟ ألن ينجح في فهم شيء منها أبدًا؟

مع تقدّم ساعات الليل، هدأت الأصوات في الخارج، وارتفع القمر عاليًا في السماء. عاود "رامتشاند" القراءة بعزيمة وإصرار لم يعرفهما أبدًا. تلعثم وهو يقرأ، وكوّن بعض الكلمات الطفولية البسيطة، خطّها في دفتره، وهو يغالب ألمًا خفيفًا في رأسه.. بدأ يحس به نتيجة التركيز. أسند رأسه لقاموس "أوكسفورد "السميك، واستغرق في النوم، مع تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

كان اليوم التالي يوم أحد. استيقظ "رامتشاند" ممتلئًا بالتصميم. لم يُمضِ وقتًا طويلًا في فراشه – كما اعتاد – مستسلمًا لأفكاره المختلفة، وإنما نهض بنشاط، واستحم، وتناول فطورًا مكونًا من موزة وكوب شاي، ثم بدأ في إتمام مهمة القراءة. أمضى ساعات الصباح بأكملها في محاولاته الجادة. أخذ فترة راحة قصيرة مع حلول الظهيرة، طهى خلالها بعض الطعام. حين همّ بتناوله، اكتشف أنه عديم الطعم، واضطر لإضافة الكثير من المانجو المملح إليه، ليتمكن من ابتلاعه. ثم عاد لكتبه مرة أخرى. حين بدأ المساء، كان قد تمكن من فكّ شفرة الكلمات المكتوبة، وإن لم يفهم معانيها جيدًا. بقليل من الممارسة، استعاد قدرته على القراءة. قراءةٌ متواضعة.. في حقيقة الأمر.

ولكن، حتى بعد أن نجح في استخراج معاني الكلمات، وتمكن من قراءة رسالة كاملة، فإن عدم الفهم ظلّ ملازمًا له.

كان قد فتح "فن كتابة الرسائل" بطريقة عـشوائية، وقـرأ رسـالة عنوانهـا "دعـوة صـديقة للمشاركة في جولة سياحية بالسيارة"، من فصل "توجيه الـدعوات والـردّ عليهـا". وللإشـارة إلى كلمة "صديقة" استخدم الكتاب تعبير "جيرل فريند".

احمرّ وجه "رامتشاند" قليلًا وهو يقرأ كلمة "جيرل فريند"، لكنه واصل القراءة..

جري تاورز،

ليتل بورن،

كينت،

يوليو - 19

عزيزتي "بيجي"..

هل تودّين مرافقتنا في جولة سياحية بالسيارة؟ "جورج" في غاية الفخر بالسيارة الجديـدة التي اشتراها مؤخرًا، ونرغب في القيام بجولة ممتعة في أرجاء "ويلز". إذا استطعتِ الحـضور – ونحن في غاية التصميم على مـشاركتكِ لنـا – فـإن المجموعـة سـتتكون منـكِ و"جـورج" وأنـا وشقيقي "فرانك". سنكون مجموعة رائعة حقًا. نفكر في أن ننطلق من هنا في اليوم الأول مـن الشهر المقبل، وسوف يقرر "جورج" الأماكن التي سنذهب إليها، قبـل بـدء الرحلـة؛ ولكـن إن كان لأحد المشاركين اقتراحات أخرى، فيمكن تغيير المـسار المقـرر. هـل بإمكانـك إبلاغـي عـن موعد حضورك بالضبط؟

مع حبّي..

المخلصة.. "فيليس".

فكّر "رامتشاند" متحيّرًا: "المخلصة"؟ أهي امرأةٌ إذًا؟! أيّ "جيرل فريند" إذًا؟

فهم القليل من الرسالة. الجملة الأخيرة فقط، هي الواضحة تمامًا.. "هل بإمكانك إبلاغي عن موعد حضورك بالضبط".. نعم.. لقد فهم تلك العبارة جيدًا.

أمضى يومًا كاملًا تقريبًا، ليقرأ رسالة واحدة.

أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ في قراءة الرسالة التالية، والتي كانت ردًّا على الخطاب السابق.

ميدل كلويسترز،

كانتربري،

3 يوليو - 19

عزيزتي "فيليس"..

يا للسعادة! كرمٌ بالغ منكم أن تدعوني لمشاركتكم. أرغب في ذلك، بشدّة. أتمنى أن يكون الطقس جيدًا طوال الرحلة.

أرجو التفضّل بإبلاغي عن نوعية الملابس التي سأحتاج إليها خلال الجولة، وعن المدة المتوقعة لرحلتنا.

لكم أودّ رؤية "كيرنارفون"، و"بيتيس واي كود"، وفي الحقيقة فإن كل المناطق في "ويلز" تتميّز بجمالها الخلّاب، وسوف أسعد بأيّ مكان تخططون لزيارته. أتوقع أنكم تنوون الذهاب إلى "تينترن" و"تشيب ستو" و"راجلان"..

هل يناسبكم حضوري في الثامن والعشرين من الشهر الجاري؟

المخلصة التي تكاد أن تجنّ من السعادة:

بيجي.

لم يفهم شيئًا من هذا الخطاب. استغرق ثلاث ساعات ليـتمكن مـن قراءتـه. حـلّ الظـلام، وشعر "رامتشاند" بآلام في رقبته.

أمضى أغلب ساعات يوم الأحد في قراءة رسالتين. والآن، بعد أن انتهـى مـن فعـل ذلـك، لم يفهـم مـنهما شـيئًا. أدرك أن "فيلـيس" و"بيجـي" و"جـورج" و"فرانـك"، هـي – عـلى غرابتهـا الشديدة – أسماء أشخاص!!

"عزيزتي بيجي".. إذًا "بيجي" هذه إنسانة ولا شكّ!

وما هي "الجولة السياحية بالسيارة"؟ يعرف "سيارة" بالطبع.. ويعـرف "جولـة سـياحية".. ولكن ما معنى كل ذلك؟

حاول التركيز، وذكّر نفسه بأن عليه ألّا يستسلم في مرحلة مبكّرة.

منح نفسه فترة راحة أخرى، صنع خلالهـا كوبًـا مـن الـشاي الثقيـل. شربـه وهـو يجلـس القرفصاء بجوار الموقد. ثم عاود قـراءة الرسـالتين الغامـضتين مـرة أخـرى. وضـع خطًـا تحـت "كيرنارفون" و"تينترن" و"تشيبستو" و"راجلان".

كانت تلك هي الكلمات الأكثر صعوبة. حاول أن يبحث عنها في القاموس. لم يجـد لهـا أيّ أثر.

تجاهل "بيتيس واي كود"، لأنه كان متيقنًا من أنها خطأ مطبعي.

بعد أن استعان بالقاموس، وجد أن عبارة "المخلصة التي تكاد أن تجن مـن الـسعادة"، في حقيقتها، عبارة خفيفة الظل وشديدة الطرافة.

لم يفهم " رامتشاند" جوهر الخطابين، لكنه كان قد تعب وشعر بالإرهاق. خـرج ليتمـشى، وغاب لفترة طويلة، ثم عاد أخيرًا ليواصل ما بدأه. كرر قراءتهما مرة أخرى.

قرر ألا يقرأ كتاب التعبير في الوقت الحالي. خـشي أن يعـاني مـن التـشوش إن قـام بقـراءة الكتابين معًا.

سجّل بحرص بالغ كل الكلمات الغامضة، التي لم يفهمها، والتركيبات اللغوية غير المألوفـة، التي أراد تذكّرها، مستخدمًا الدفتر والقلم الجديدين.





- هِممم.. لالالا.. ترالالا.. آه.. لالالا.

هذا هو "رامتشاند"، مُدندنًا، في طريقه للعمل صباح الإثنين.

بدأت حياته تتخذ مسارًا جديدًا. المسار الصحيح الذي ينبغي أن تكون عليه. يشعر بأنه في حال أفضل من أيّ وقت مضى. حتى شكله ومظهره صار لهما رونق ما. لقد أمضى إجازته الأسبوعية في الدراسة والتعلّم. لم يضيّع وقته في التسكّع خارج قاعات السينما، أو الاستلقاء على السرير بكآبة. وإضافة للاستذكار، قام بالتريّض أيضًا، ومشى لفترة معقولة وهو يستنشق الهواء النقي.

عليه اليوم أن يذهب إلى منزل "كابور" بمجموعة أخرى من "السواري". لم يكن الوضع في الدكّان يسمح بتغيبه، أو أيّ عامل آخر، بسبب ازدحام الدكان يوميًا، نظرًا لاقتراب موسم الأعراس السنويّ. الكلّ منهمك في العمل بجدّية تامّة، بما في ذلك "هاري" أيضًا.. ومع ذلك، ليس من الممكن أبدًا تجاهل رغبات عائلة "كابور"، ولذلك اعتلى دراجة "جوكل" مرة ثانية، مصفرًا بفمه، حاملًا المزيد من الأقمشة للعروس. هذه المرة، كان يلبس ثيابًا قديمة. ليس بإمكانه شراء ثياب جديدة كل بضعة أيام، بالطبع. لكنه حرص على أن يكون نظيفًا ومهندمًا.

ومرة أخرى، تلكأ قليلًا أمام محلات الكتب القديمة. لكنه هذا الصباح، عرج على أحد أكشاك الشاي، وطلب كوبًا احتساه في نصف ساعة تقريبًا، وهو ينظر إلى المارّة بهدوء واستمتاع، ولم يشرب عصيرًا. ملابس جديدة.. كتب وقلم وزجاجة حبر ودفتر.. وروبيات يتم إنفاقها هنا وهناك، لشراء أغراض مختلفة. عليه أن يحافظ على نقوده خلال الفترة المقبلة.

وصل أخيرًا لمنزل "كابور". طُلب منه الجلوس في حجرة الاستقبال ذاتها. جاءه "راجو" بعدها ليبلغه بأنه سينتظر قليلًا، لأن السيدة الكبيرة تستقبل الجواهرجي، والآنسة تتحدث على التليفون. أومأ "رامتشاند" برأسه. سرعان ما استسلم لأفكاره وخيالاته المتداخلة المعتادة. ترك الخادم الباب مفتوحًا حين غادر المكان.

لم يكن في نية "رامتشاند" أن يتنصّت على المكالمة التليفونية. لكن صوتها كان مرتفعًا. ربما ظنت أنه لا يعرف الإنجليزية. صحيح أنه لا يجيدها.. هذه حقيقة.. لكن بإمكانه أن يفهم شذرات من أيّ حديث دائر، وهو مُلِمّ بعدد لا بأس به من الكلمات، ولذلك استطاع أن يتابع حوارها.

كان صوتها العميق، الأجش، غير مألوف وشديد الجاذبية لأذني "رامتشاند". كانت تقول: "صدّقني يا حبيبي، لست كبقية فتيات "آمريتسار". حياتهن راكدة. راكدة تمامًا. والغريب أنهن راضيات بتلك الحيوات التافهة. لا أستطيع أبدًا أن أتخيل نفسي على تلك الصورة.. فأنا أحب القراءة واستكشاف أمور جديدة.. وأعتبر كل يوم في حياتي بمثابة تجربة مفيدة. والآن.. انظر لما أنا فيه في هذه اللحظة تحديدًا.. ينتظرني الولد الغبيّ بائع "السواري" في حجرة، وذلك الجواهرجي الطمّاع في حجرة أخرى! بينما تموج في رأسي أفكار لا علاقة لها بهذه التفاهات.. أفكار عن الحياة مثلًا.. فأنا

أؤمن بأنها مغامرة، وأنك حين تحاول استكشاف جوانبها المختلفة، فإنك في الحقيقة تعيد اكتشاف ذاتك.. كما تعلم".

أضافت: "أنت تعرف مدى ثراء أبي، وبأني غير محتاجة للعمل، ومع ذلك حرصت على نيل درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي، بل وكنت الأولى على زملائي دائمًا. أنا إنسانة مبدعة. عقلي لا يتوقف عن التفكير.. وهو غير راضٍ عن كل هذه الأشياء. أحب، بطبيعة الحال، ارتداء الملابس الجيدة والمجوهرات الفخمة، وأن أعيش في مستوى راقٍ ومتميز.. لكن ذلك كله له سبب واحد فقط وهو انتمائي في الأساس لعائلة غير عادية. لكنني طبعًا لا أكتفي بهذا.. لأنه ليس نهاية الطريق بالنسبة إليّ. الموضوع بالنسبةلي وسيلة، وليس غاية".

توقفت عن الحديث. بدا أنها تستمع للمتحدث على الطرف الآخر..

قالت فجأة بحماس شديد: "بالضبط! نعم.. هذا بالضبط هو ما أشعر به أنا أيضًا! ماذا عن روحي؟ ماذا عن ملكاتي الإبداعية؟ لقد انتهيت، بالأمس فقط، من نظم قصيدتي الجديدة. إنها من تلك الأشعار التي أعبّر من خلالها عن فهمي للمعنى الحقيقي للحياة. هل تعرف متى كتبتها؟ حين كان بائع الأساور الكريستال في انتظاري. شعرت برغبة ملحّة في الكتابة. قلت لنفسي إن الأساور بإمكانها الانتظار، أما عملية الإبداع لديّ فيجب أن تتواصل وتستمر طوال الوقت".

صمتت لفترة، ثم سمع "رامتشاند" صوتها ثانيةً: "في الواقع، أفكر جدّيًا في كتابة رواية. في المؤتمر الذي عقدته الكلّية مؤخرًا، قابلت إحدى الأكاديميات من جامعة "دلهي". لقد أكّدت لي بأنني أمتلك موهبة حقيقية وأصيلة. وأنت تعرف مسز "ساتشديفا" طبعًا، أليس كذلك؟ هي أيضًا دائمة التشجيع لي".

اختفى صوتها من جديد، وبدا أنها تستمع إلى ردّ ما..

"أنا سعيدة حقًا لأنك أنت أيضًا تؤازرني وتحثني على الإبداع. حين عرف أبي أن من أحبه ضابط في الجيش، بات مغمومًا. لأنه كان يؤكد لأصدقائه دائمًا أنه لن يزوّجني إلا لشخص فاحش الثراء، وأن حفل زفافي سيكون أسطوريًا. لكنني تمكنت من إقناعه في نهاية الأمر كما ترى. الزوج الغني هو آخر اهتماماتي.. وماذا يحدث بعد أن أتزوجه؟ أمضي أغلب وقتي في حضور شتى الحفلات والمناسبات الاجتماعية؛ ثم إنني، في الواقع، لست بحاجة للمزيد من المال".

انقطع صوتها. كان صمتها طويلًا هذه المرة. ثم قالت: "باي حبيبي.. عليّ أن أسرع الآن. أحبك جدًا. لا أصدق أننا، أخيرًا، سنتزوج. لا أطيق الانتظار حتى يجمعنا بيت واحد".

سمع "رامتشاند" صوت السمّاعة وهي تعاد إلى مكانها، ثم صمت مطبق. جلس مفكّرًا، محاولًا استيعاب المكالمة. أيًّا كان ما فهمه، فإنه متأكد تمام التأكد من أمر واحد... لقد أشارت إليه بـ"الولد الغبي بائع السواري". فكر قليلًا، ثم قال لنفسه وهو يشعر بالإشفاق لحالها بأن أعصابها متوترة، ولا شك، لاقتراب زفافها. هذا كل ما في الأمر. لا بد أن تكون أعصاب شخصية متميزة ومرهفة وبالغة الحساسية مثلها، مشدودة ومتلَفة. تنازعته المشاعر المختلفة. لا يعرف إن كان عليه أن ينزعج من الطريقة المهينة التي تحدثت بها عنه، أو أن يسعد لأنها تحاول اكتشاف ذاتها.. وإن لم يفهم تحديدًا ماذا قصدت بـ"أعبّر عن فهمي للمعنى الحقيقي للحياة".. بدت العبارة جميلة وموحية على كل حال.

حين دخلت الحجرة، نظر إليها بحذر. لم تهتم بالنظر إليه أصلًا. دخلت أمها وراءها، وسرعان ما انهمكتا في اختيار المزيد من "السواري"، بسرعة وثقة، كما المرة السابقة تمامًا.



ممتلئًا بالحماس، بعد سماعه لكلام "رينا" عن الكتابة والإبداع و"المعنى الحقيقي للحياة"، قرر "رامتشاند" أن يبدأ في تصفح كتاب "موضوعات التعبير البرّاقة". وعلى عكس "فن الرسائل" الأجنبي في كل شيء، فإن من وضع هذا الكتاب سيدة هندية.. وقد كتب اسمها على الغلاف.. "شاليني"، متبوعًا بشهادتها "ماجستير في اللغة الإنجليزية". أحس "رامتشاند" بالسعادة، حين اكتشف أن الكتاب يضم، في نهايته، بعض الرسائل أيضًا.

بدأ بقراءة موضوع تعبير مخصص للتلاميذ الصغار، عنوانه "الشحّاذ الهندي".

"الشحاذون منظرٌ مألوف في بلدنا. قد تقابل أحدهم خارج دور العبادة، أو في موقف الحافلات، أو في السوق أو الطرقات. هناك المئات من أنواع الشحاذين في "الهند". بعضهم كفيف، حُرم من نعمة الإبصار، وليس لديه القدرة على ممارسة أيّ عمل، ولهذا يلجؤون لاستجداء الآخرين. هذا النوع يستحق عطفنا. هناك صنف آخر، يتكون من المُقعدين والمجذومين، وهم أيضًا لا يستطيعون كسب عيشهم. وهناك أيضًا شحاذون يتمتعون بالشباب والعافية والأجساد القوية، لكنهم اختاروا الشحاذة مهنة. وهناك نوع له منظر العابدين الزاهدين، ولكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة، فمعظمهم من مدمني المسكرات، أو مرتكبي الآثام، أو اللصوص".

أحسّ "رامتشاند" بالإجهاد بعد ما بذله من تركيز لقراءة الموضوع.

بدأ في قراءة الفقرة من جديد، ببطء هذه المرة. قرأها كلها دون أن يتلعثم مرة. ملأه ذلك بالفخر. لقد قرأ فقرة كاملة باللغة الإنجليزية، وتمكن من فهم

ما جاء فيها أيضًا! الكلمات المستخدمة في هذا الكتاب أسهل بكثير من تلك الواردة في "فن كتابة الرسائل". أحسّ بالسعادة.

لكن المحتوى لم يسعده أبدًا.

فكر بأنه إذا أتيحت له فرصة مقابلة "شاليني ماجستير في اللغة الإنجليزية".. فإنه لن يحبّها أبدًا.

حين أوى إلى فراشه تلك الليلة، بعدما لبس الجوربين الأزرقين المليئين بالثقوب، أمسك بالقاموس محاولًا البحث عن كلمة "أعبّر" التي استخدمتها "رينا". استغرق الأمر حوالي نصف ساعة، وأخيرًا قرأ: "التعبير عن النفس".. والمعنى "أن يقول الواحد ما يقصده".

فهم "رامتشاند" أخيرًا.

كان يدرك مدى صعوبة ذلك.





مرّت عدّة أيّام.

تمّ إبلاغ "رامتشاند" بأنه ليس بحاجة للذهاب إلى منزل "كابور" خلال الأيام المقبلة. وأنه إذا أرادت السيدات هناك رؤية المزيد من الأقمشة، فسوف يتم إعلامه بذلك.

حين لم تكن لديه زبونات، كان يمضي وقته في مطالعة كتاب التعبير. لم يعد يقرأ كتاب الرسائل بعد التشوّش الذي شعر به عقب خطابي "فيليس" و"بيجي"، وحديثهما عن التجوّل بالسيارة. لكنه كان يفتش فيه أحيانًا عن الكلمات الصعبة التي يضمّها، ليبحث عن معانيها لاحقًا في القاموس، ثم يسجّلها في دفتره.

خطرت له فكرة جديدة. تراءى له أنها أروع ما مرّ على عقله من أفكار، على الإطلاق؛ إذ قرر أن يحفظ جميع الكلمات المكتوبة في القاموس بمعانيها، بالترتيب الموجودة عليه. يبدأ بحرف A، وينتهي بـ Z. سيواظب على ذلك يوميًا. حين ينتهي، يكون قد تمكّن من إجادة اللغة الإنجليزية، بجميع كلماتها وبكل ما لتلك المفردات من معانٍ متعددة.

صدمته الفكرة لعبقريتها الفائقة، حتى تلاحقت أنفاسه في حماس وإثارة.. تساءل عمّا إذا كانت قد مرّت ببال أيّ من المتخصصين من قبل..

سيستغرق تنفيذها وقتًا طويلًا بالطبع، ولكن لا يوجد شيء مستحيل أبدًا.

خصّص "رامتشاند" نصف ساعة كل مساء، بعد انتهاء الوقت المخصص لكتاب التعبير، لحفظ بعض الكلمات الجديدة ومعانيها.

بدأ بالكلمة الأولى في القاموس. اكتشف أنها حرف الـ a. ولدهشته البالغة، عرف للمرة الأولى أنه ليس مجرد حرف.. بل إن له – كما يبدو- مليون معنى واستخدام!

قرر أن يتجاهل هذه المعاني تمامًا، وأن يحفظ الكلمة التالية.

خلال ستة أيام، نجح في تعلم عدد لا بأس به من المفردات الواقعة تحت الحرف الأول من الأبجدية. صار يمضي أغلب وقته في قراءة القاموس، وحين يكون في الدكان يظل يردد الكلمات لنفسه.

بعد انقضاء حمى حماس الفكرة الجديدة، بدأت سرعته في دراسة القاموس تتباطأ قليلًا، واتخذت إيقاعًا متمهلًا، منتظمًا.



ولمّا كان الفصل شتاءً، فإن ساعات النهار قصيرة. وإلى أن يعود "رامتشاند" إلى مسكنه، يكون الظلام قد حلّ.

يجلس إلى طاولته مساءً، ويدرس بجدّية. أما في الآحاد، فيبدأ في الاستذكار مبكرًا، يجلس على صندوقه المعدني، بجوار النافذة الخلفية، ليقرأ.

يمكّنه هذا الـشبّاك مـن رؤيـة حـوش البيـت وغرفـة المعيـشة، بالإضـافة للمطـبخ. هنـاك حجرتان صغيرتان للنوم وحمام، لكنها خارج مرمى بصره من مكانه هذا.

كثيرًا ما يراقب "سودها" وهي تحضّر الطعام في المطـبخ. يراهـا هنـاك في مختلـف فـصول السنة، منذ أحد عشر عامًا. يتابعها وهي تمسح عرقها الغزير أمام الموقد في شهور الـصيف، أو تعدّ بسعادة الشاي بالزنجبيل في أيام الشتاء الباردة. يراهـا وهـي تقطّـع جبنـة الــ"بـانير" إلى مكعبات، وتقشر البطاطس، وتفرم الزنجبيل، وتنظـف حبّـات الفاصـوليا مـن أطرافهـا، وتـدقّ التوابل في الهاون الحجري الـصغير، وتعجـن الـدقيق لتخبـز أرغفـة مـستديرة شـهية، وتقلّـب العدس أو المرق، وتغلي الحليب في آنية كبيرة، أو تقلي الـ"باكورا" لأسرتها مساءً.

يلمحها أحيانًا وهي تنظّف غرفة المعيشة. إنها ربّـة بيـت ممتـازة. تزيـل الغبـار عـن كـل الأسطح، وتمسح شاشة التليفزيون بحرص شديد. تواظب على تغيـير المـلاءة التـي تغطـي بهـا الأريكة، أسبوعيًا. كما تقوم بنفض مفرش المائدة يوميًا.

حين أتى "رامتشاند" ليقيم في بيتهم، كانـت "سـودها" عروسًـا جديـدة، لا تـزال في مقتبـل العمر.. رشيقة ولها وجه ممتلئ ينتهي بـذقن مـدبّب بعـض الـشيء. لم تكـن جميلـة بـالمعنى المتعارف عليه، فأنفها أفطس ورقبتها قصيرة، لكنها على الرغم من ذلك تتمتع بقدر هائل مـن الجاذبية، في عينيّ "رامتشاند"، الذي يراها أكـثر النـساء حـلاوة عـلى الإطـلاق. حـين تـصادفه، تبتسم وتومئ له برأسها. كل مرة.

في بداية زواجها، كانت تلبس سواري لامعة، تظهر خصرها الرشيق الناعم. في أحيان أخرى، كانـت ترتـدي ثوبًـا قـصيرًا وسروالًا، بـألوان فاقعـة وتطريـز كثيف، مع أوشحة محلاة بـ"الترتر" أو قطـع المرايـا الـصغيرة. تجمـع شـعرها

الطويل في كعكة غير مرتّبة، في معظم الأحيان. تتزين بوضع بودرة حمراء في مفرق شعرها، ودائرة من اللون ذاته على جبهتها، وبعض الكحل في عينيها اللامعتين. وتضع في أذنيها زوجًا من الأقراط الذهبية على شكل ورود.

كان "رامتشاند" مفتونًا بمنظرها الزاهي اللامع.

عرف اسمها بالصدفة، حين سمع زوجها يناديها صباح أحد الأيّام طالبًا منها كوب شاي.

يذهب زوجها للعمل يوميًا، راكبًا دراجته البخارية الزرقاء، ماركة "بجاج". حصل عليها من أهل "سودها" كجزء من المهر الذي دفعوه له. قبل عودته، كل مساء، تستحم وتتعطّر وتصفف شعرها بطريقة بالغة التعقيد مستخدمة الكثير من دبابيس الشعر الملونة.

كان "رامتشاند" يعود من عمله قبل صاحب البيت بقليل. وأول ما كان يفعله فور دخوله الحجرة هو فتح الشبّاك الخلفي بهدوء وحذر، وهو يشعر بتشوق كبير. يراها واقفة في الحوش، ترفع الثياب التي جففتها الشمس، عن الحبال. ومع كل خطوة تخطوها، تصدر فردتا الخلخال الفضيتان أصواتًا رقيقة.

يراها أحيانًا جالسة على الأرض وهي تنقّي بعض الأرز من الشوائب، ويتابعها وهي تقطع البصل والزنجبيل.

في الأشهر الستة التي أعقبت زفافها، كانت "سودها" تضع حول معصميها الأساور الحمراء والبيضاء الخاصّة بالعرائس. خلعتهما بعد ذلك، ووضعت حول رسغها الأيمن سوارًا سميكًا من الذهب. جميل الشكل. يتوسطه رأسا فيلين متقابلين، وقد رفع كل منهما خرطومه، كأنه يحيّي الآخر. لم تخلعه من

يدها منذ وضعته أبدًا. وزيادة في الحرص، تضع "دبوّس مشبك" لامعًا بين الرأسين، حتى تتأكـد من أن يظل مقفلًا.

حين تبتلّ يداها، بعد أن تفرغ من غسل الملابس أو الصحون، يلمع الـسوار الغلـيظ عـلى جلدها الذهبي.

حول معصمها الأيسر، تضع أساور زجاجية ملونة، تستبدلها كل يوم بما يتناسب مع ألـوان ثيابها. حين تنقّي الأرز أو تقطّع بعض الخضراوات، تصطدم تلك الأساور ببعضها، محدثة رنينًـا لطيفًا. تنفلت بعض الخصلات من شعرها فتدفعها باستياء خلف أذنيها.

في بعض الأحيان، تجلس في الحـوش لتقلـيم أظـافر قـدميها.. (أو لتزيـد مـن جـمال تلـك الأظافر البديعة، كما يقول "رامتشاند" لنفسه في وله).. يسقط طرف "الساري" عن كتفها حين تنحني للوصول إلى الأظافر البعيدة.. عندئذٍ يحملق "رامتـشاند" في الجـزء النـاعم الواقـع بـين رقبتها وصدرها، حيث تستريح السلاسل والعقود طلبًا للدفء.

صباح كل أحد، تغسل شعرها بخلـيط مـن الأعـشاب، ثـم تجلـس تحـت أشـعة الـشمس لتجففه، وقـد تبلـل ظهـر بلوزتهـا بـشكل جـذّاب. تظـل تتخلـل خـصلاته الكثيفـة بأصـابعها الرشيقة.

أثناء ذلك، يشمّر زوجها سرواله المنزلي حتى الـركبتين، ويغـسل دراجتـه البخاريـة بحـرص كبير.

بدأ "رامتشاند" يحلم بها في أوقات فراغه.

كانت معلوماته عـن تكـوين جـسم الأنثـى محـدودة جـدًا، اسـتقاها مـن بعـض الكتـب الإباحية التي تباع على الأرصفة القريبة من محطة الأتوبيس الرئيسية، بعد تغليفها ببلاسـتيك سميك.

كانت تلك الكتب، عادة، تضمّ صورًا لنساء أوروبيات، يمرحن عاريات في البحر، أو يتخـذن أوضاعًا مثيرة بنظرات مغرية.

شاهد "رامتشاند" في إحدى المرات كتابًا أجنبيًا قديمًا ملوّنـا. لم تكـن النـساء فيـه عاريـات فعلًا، وإنما يلبسن ثيابًا خليعة، ويضعن جميعًا أحمر شفاه شديد اللمعان، ولهـن شـعور ذات ألوان غريبة.. شعر أحمر، وشعر ذهبي.. وألوان أخرى عجيبة جدًا.

لكن توافر مثل تلك الكتب الملونة كان أمرًا نادرًا، ولذلك اعتمد على الكتب المطبوعة باللونين الأبيض والأسود. أحدث صورة رآها كانت لسيدة بيـضاء عاريـة، بثـديين كبـيرين، توجه لعدسة الكاميرا نظرة باردة. كانت تقف أمام حمام سباحة وقد باعدت بين سـاقيها قليلًا.

كانت المسافة بـين جـسم "سـودها" المحتـشم، الـذي تغطيـه "الـسواري" الزاهيـة، وتلـك الأجساد العارية في الكتب الإباحية.. شاسعة جدًا، لكنه استطاع – بطريقة ما – تكوين صـورة معينة في ذهنه.

خلال عمله بالدكّان، المعبّق بالأنوثة طوال الوقت، شاهد "رامتشاند" أعدادًا غير محـدودة من الزبونات. لكن تظل "سودها" هـي الوحيـدة القـادرة عـلى إشـعال رغباتـه بكامـل ثيابهـا المحتشمة، وهي تؤدّي الأعمال المنزلية التقليدية.

كان يستمتع برؤيتها حين ترفع الطرف السفلي لـ"الساري"، أو تشمر ساقيّ سروالها، وتنهمك في فرك وشطف قطع الثياب تحت مياه الصنبور الذي يتوسط الحوش. تفعل ذلك بتمهّل وهدوء بالغين. ليست مثل زبونات الدكّان المتطلبات للخدمة والاهتمام، ولا مثل نسوة الحارة اللاتي لا يتوقفن عن الشجار مع بعضهن البعض في الشارع.

كثيرًا ما كان يجرّدها في خياله من ملابسها، ويمرر يديه على خصرها وكاحليها الشاحبين، ويغوص بأصابعه في شعرها الغزير. يعضّ رقبتها المزغبة، ويفتح أزرار البلوزات الضيقة التي تلبسها تحت "الساري".

كانت تلك التخيلات المحمومة تجعله يشعر بأنه لا يحترمها جيدًا، كما ينبغي عليه أن يفعل. وليشعر بالرضا عن نفسه، يتعمد أن يكون بالغ التهذيب وفي منتهى الأدب عندما يلتقي بها صدفة في أرجاء البيت. أما حين يختلي بنفسه، فلم يكن باستطاعته في كثير من الأحيان أن يتغلّب على تلك التصورات المتلاحقة.

سرعان ما ودّعت مرحلة العروس الجديدة، لتصبح أمًّا. أنجبت ثلاثة أطفال في أعوام متقاربة.. ولدين وبنتًا. أسمتهم "مانوج" و"فيشنو" و"آلكا". كلما رآهم "رامتشاند" يلعبون في الحوش يتساءل بدهشة: كيف أنجبت هذه المرأة الفتيّة الرشيقة هؤلاء الصغار الرائعين.. بأجسامهم الصحيحة المعافاة؟

الولد الأكبر "مانوج"، كبر قليلًا ليصبح فتى ذكيًا ساخرًا، يعامل "رامتشاند" بازدراء واستعلاء كلما قابله. ورغم أعوامه التي لا تتجاوز التاسعة إلا ببضعة أشهر، يستطيع أن يبث الرعب والاضطراب في نفس "رامتشاند". فأيّ شيء ينطق به الأخير، كفيل بإثارة سخرية الصبي وتعليقاته اللاذعة.

أمَّا شقيقه "فيشنو" فطفل ودود، شديد الصخب، يدمن الاستماع إلى أغاني الأفلام التي تذاع على الراديو طوال اليوم.. يرقص على نغماتها في الحوش بحماس عظيم، وهو يحاكي خطوات النجمين "شاروخان" و"هريتيك روشان" في أفلامهما الشهيرة.

"آلكا"، أصغر الثلاثة، هي الأقرب شبهًا بأمها، في الشكل وفي الطباع. تميل للزهو والمباهاة. حين تلبس فستانًا جديدًا، تتسمّر أمام المرآة المعلقة في غرفة المعيشة لفترات طويلة. تحبّ أن تقف وسط الحوش لتغني الأناشيد بالإنجليزية.. وتظل تردد "با با بلاك شيب"، بصوت مرتفع. لها عينا "سودها" وأنفها الأفطس.

يشعر "رامتشاند" تجاهها بما يشبه الأبوّة.

والدهم مثار دهشة واستغراب "رامتشاند"، بسبب طموحه العظيم وأحلامه الضخمة من أجلهم. في البداية، كان يجده رجلًا باردًا كئيبًا، لكنه بدأ يراقب التغيرات التي طرأت عليه بعد إنجابه للصغار الثلاثة، وتأكد من أنه أبٌ جيّد، يهتم بهم كثيرًا، ويسعى لأن يقدم لهم الأفضل فقط. وحتى ثيابهم، يختارها بنفسه بألوان فاقعة.. أخضر، وليموني، وبرتقالي. يطعمهم حبّات اللوز، طوال العام، لينمّي ذكاءهم، ويجبرهم على تناول زيت السمك شتاءً، ليحميهم من أمراض البرد. حرص على أن يلحقهم بمدرسة تعلّم المناهج باللغة الإنجليزية.

تكتفي الزوجة بطهي الطعام وتنظيف المنزل وغسل الثياب. تمارس ذلك بالهدوء الذي يطبع جميع تصرّفاتها. بينما أخذ هو على عاتقه مسؤولية تربية الأطفال وإعدادهم لمواجهة الدنيا الجديدة الآخذة في التشكّل حولهم.. دنيا الوظائف

التي يجب أن يتقن العاملون بها اللغة الإنجليزية، ودنيا الجوازات والتأشيرات والسفر.. والشركات الضخمة في "لوديانا" و"تشانديجار" و"دلهي".

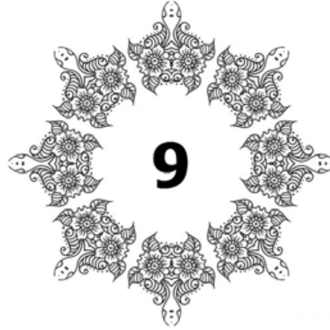
في إحدى المرات، حين صعد إلى حجرة "رامتشاند" ليتسلّم منه مبلغ الإيجار الشهري، أسرّ له:

- النقود التي آخذها منك لا أصرف منها روبية واحدة. أضعها في حساب خاصّ بالبنك، لأدخر مبلغًا يكفي لننتقل من وسط المدينة هنا إلى إحدى الضواحي الجديدة. هناك، يمكنني تسجيلهم في مدارس أفضل. سيتعلمون مستوى أعلى من الإنجليزية ويتحدثونها بإتقان. وربما أمكنني أن أعلمهم السباحة أيضًا.

عندما سمع "رامتشاند" ذلك، شعر بغصّة، لأنه تذكّر أباه، والأحلام التي كان يخطط لتحقيقها من خلاله، عبر إلحاقه بمدرسة إنجليزية.

لم تنتقل الأسرة من بيتها بعد، لكن "مانوج" يستطيع بالفعل ترديد أغانٍ إنجليزية كاملة..





مرة أخرى.. يجلس "رامتـشاند" عـلى سـجّادة غرفـة الاسـتقبال الـوثيرة في منـزل "كـابور"، واضعًا أمامه صرة ضخمة من البضاعة الثمينة.

ذلك الصباح، أنبأه "مهاجان" بأنهن يردن بعض أقمشة التنانير المطرّزة، مع ما يناسبها مـن أوشحة.

كان "رامتشاند" يهمّ باستعراض ما جلبه، أمام مـسز "كـابور" وابنتهـا الكـبرى، حـين دخـل "راجو" وقال باحترام:

- سيدتي.. هناك زائرة للآنسة. تقول إن اسمها مسز "ساتشديفا".

ظهر الامتعاض على وجه المرأة وقالت بضيق:

- "رينا"! لقد بدأت هذه النوعية من معارفك تتجرَّأ وتحضر لمنزلنا. أنت تعرفين أن زوّارنـا هم علية المجتمع وأرقى العائلات المحترمة فقط.. سواء هنا أوفي "دلهي". لكن بفضل تبسطك مع الجميع، صارت هذه المرأة وأمثالها يأتوننا في أي وقت.

نظرت الفتاة إلى والدتها نظرةً باردةً:

- أمي.. تعلمين ولا شك أن هناك أمورًا أخرى في الحياة لا تقل أهمية عن المال والثروة. هناك ناس يتمتعون باحترام كل من يعرفهم، لسبب واحد، هو إنجازاتهم. وأنا لا أعني احترامًا صادرًا عن بضعة أشخاص يرون أنهم أفضل من غيرهم، وإنما احترام العالم أجمع، وخاصة من المثقفين والأكاديميين.

أضافت وقد لمعت عيناها:

- من الأفضل يا أمي أن نأخذ أفضل ما في هذين العالَمين.. المال والمعرفة معًا.

التفتت إلى الخادم وقالت:

- "راجو"، دعها تدخل هنا، ومن فضلك أحضر لنا بعض المشروبات الباردة أو الشاي.. أو أيّ شيء نشربه.

دخلت مسز "ساتشديفا". ترتدي "ساري" حريريًّا تجتمع فيه درجات اللونين النحاسي الهادئ والبيج. تضع حول عنقها عقدًا رفيعًا من اللؤلؤ، وتزين أذنيها بقرطين من حبّات اللؤلؤ الصغيرة، وتجمع شعرها في كعكة بسيطة. اقتربت من "رينا" وهي تمدّ يدها. وقفت "رينا" مبتسمة. تصافحتا. قالت مسز "ساتشديفا":

- تسلمت بطاقة الدعوة لعرسك يا عزيزتي. سعدت جدًا جدًا لهذا الخبر الجميل. كنت قريبة من هنا، ففكرت في الدخول لتهنئتك.

قالت "رينا":

- شكرًا جزيلًا.. هذا كرم منكِ.

التفتت مسز "ساتشديفا" إلى مسز "كابور" وألقت عليها التحية. اكتفت صاحبة المنزل بابتسامة متكلّفة، ردًّا عليها.

قالت مسز "ساتشديفا" لـ"رينا":

- أخبريني يا عزيزتي.. كيف حالك؟

استأذنت الأم وغادرت الحجرة، بعد أن قالت لـ"رامتشاند" إنها ستعود إليه بعد قليل. فكّرت وهي تكاد تغلي من الغيظ أن تلك المرأة تتعمد أن تتحدث الإنجليزية، لا لشيء إلا لتضايقها فقط. تساءلت:

- لماذا أفكر في واحدة مثلها أساسًا؟ إنها حتى لا تملك المنزل الذي تقيم فيه.. إنه تابع للكلّية أصلًا!

جلس "رامتشاند" منتظرًا. بدا أنهم غير مهتمين بوجوده. ظل في مكانه على السجادة، والأقمشة أمامه. راح يراقب المرأتين وهما تتبادلان المجاملات بالإنجليزية. أصغى إليهما بانتباه. بعد كل ما قام بدراسته، يتوجب عليه أن يفهم الحوار بأكمله. كان هذا بمثابة امتحان له.

بعد مغادرة مسز "كابور" انطلقت ابنتها والضيفة في الكلام.

- خبر سعيد فعلًا يا "رينا". أعجبني أنك لم تختاري زوجًا من العائلات المشتغلة بالتجارة والأعمال. أرجو أن لا تجدي في كلامي شبهة إهانة، لكن فتاة مثلك بحاجة إلى جوّ أكثر ثقافة. تحتاجين لعوالم أكثر رحابة، تكتشفين فيها إمكانياتك المتعددة.

زمّت الفتاة شفتيها. حاول "رامتشاند" أن يركّز. كانت الجملة الأخيرة مستعصية على الفهم.

قالت:

- الحقيقة يا سيدتي أن مدينتنا، كما تعلمين، تمتلئ بعائلات من تجّار الأقمشة والمجوهرات، وكلها عائلات عريقة جدًا، تمتد أعمالها لما قبل سنوات الانفصال، ولذلك يصعب على المرء أن ينفصل عن إطار التجارة المحيط بحياته. هناك طبعًا من يمكن أن نسمّيهم طبقة الموظفين، الذين يوجهون لنا - نحن الأثرياء غير المثقفين - نظرة ازدراء. والحقيقة أننا نحن أيضًا نبادلهم النظرة ذاتها. لأنهم لا يملكون المال الكافي، ولا البيوت الكبيرة المتسعة؛ ولكن يجب أن أضيف أنهم في هذه الأيام، بكل الرشاوى التي يتلقونها، صاروا يعيشون حياة رغيدة. لمعظمهم منازل ضخمة على أطراف المدينة. لديهم بعض الممتلكات الموروثة أيضًا، كما أعتقد. فبعض العائلات السيخية، حتى من لا تبدو عليهم أمارات الثراء، يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية في بلداتهم وقراهم.

كانت مسز "ساتشديفا" تنصت إليها في اهتمام واضح. واصلت الفتاة كلامها:

- لكن الفجوة بين طبقتنا والطبقات الأخرى لا تزال عميقة. ربما كنت أحاول سدّها بطريقتي الخاصّة.

تنهدت المرأة الأكبر سنًّا بارتياح، وقالت:

- أنا معجبة بكِ فعلًا. ربما كان من الأنسب أن تحصلي على شهادتك العليا في مجال الأنثروبولوجيا. لديك القدرة على تحديد موقعك وأسرتك في المجتمع بموضوعية كبيرة.

ابتسمت "رينا". في تلك اللحظة، دخل "راجو" حاملًا صينية يعلوها كوبان من الشاي، ووعاء عميق من الزجاج اللامع يمتلئ بالمكسرات. قدمت الفتاة الشاي لضيفتها، وواصلت كلامها:

- بين الأدب والأنثروبولوجيا علاقة متينة. أرجو فقط أن أحقق شيئًا ما. أو أن أفهم على الأقل منطق الأمور، ولكن في مجتمع غريب ومتعدد الطبقات مثل مجتمعنا فإن هذا أمر بالغ الصعوبة.

ظنّ "رامتشاند" أنه فهم شيئًا من هذا الحوار. على الأقل الجزء الخاص بفهم منطق الأمور. لكنَّ المرأتين انخرطتا في حديث مطوّل عن "مرحلة ما بعد الاستعمار".. وعن نماذج وتبعات الفقر، والكتابات الهندية المتأثرة بالإنجليزية.. والكثير من الموضوعات الأخرى التي مرّت عبر أذنيّ "رامتشاند" دون أن يفهم منها شيئًا. أحسّ بالحزن والضيق، ثم تنبّه إلى أنه لم ينتهِ بعد من حفظ القاموس. طمأن نفسه بأنه حالما ينتهي من ذلك، سيكون قادرًا على فهم "ما بعد الاستعمار".. وكل المفردات والعبارات العجيبة الأخرى. حين توصل لهذه القناعة، زايله الإحساس بالضيق.

نظرت مسز "ساتشديفا" لساعتها وقالت:

- ياه! لقد مرّت نصف ساعة كاملة يا عزيزتي! لم يكن في نيّتي أن أبقى لديكم كل هذا الوقت.

أضافت وهي تلتفت صوب "رامتشاند" بنظرة عابرة:

- لقد أفسدت بزيارتي هذه عملية الشراء التي كانت ستبدأ قبل حضوري، كما يبدو.

لم تتعرف إلى "رامتشاند"، ولم تدرك أنه البائع الذي فرد أمامها مئات "السواري" من قبـل، ولم تعرف أنه المسكين الذي يصاب بالصداع في كل مرة يبيعها شيئًا.

وقفت وبدأت في ترتيب ثنيات "الساري" الذي ترتديه، وقالت معتذرة:

- أرجو ألّا أكون قد أزعجت والدتك ببقائي كل هذه المدة.

أجابتها "رينا" مبتسمة:

- أبدًا.. إطلاقًا. أنا شخصيًا أحبّ الزيارات غـير المخطـط لهـا، أكـثر مـن تلـك ذات الطـابع الرسمي. ستحضرين حفل الزفاف بالتأكيد، أليس كذلك؟

قالت مسز "ساتشديفا":

- بالطبع يا عزيزتي.

وضعت يدها على كتف "رينا" وأضافت:

- في بعض الأحيان يتحول التدريس إلى مهنة رتيبة ومضجرة. وأسأل نفسي في نهايـة اليـوم عمّا إذا كان هناك ما يستحق كل هذا الجهد. لكن العمـل معـكِ، كطالبـة، كـان ممتعًـا حقًـا. سوف أتابع أعمالك المستقبلية وإنجازاتك بكل اهتمام. أرجـو فقـط أن لا تـسمحي يـا "رينـا" لأمور الحياة العادية بأن تطغى على الأشياء الحقيقية الصادقة.

أجابت "رينا" بتصميم عظيم:

- أبدًا.

دخلت مسز "كابور" الغرفة. ابتسمت لها الزائرة، وهي تودعها. استعادت "رينا" أسلوبها العملي السريع، الذي يجعلها شديدة الشبه بأمها. اختارتا ما تريدان بسرعة. غادر "رامتشاند" راكبًا الدراجة، وهو يستعيد في ذهنه كل الكلمات التي سمعها اليوم، محاولًا فهم المزيد من الحوار.



مساء السبت، أومأ له "هاري" وراح يغمز بعينه ويشير له بأن يذهب إلى الزاوية البعيدة من الدكان. حين ذهب "رامتشاند" إليه، قال "هاري" هامسًا:

- لديّ ثلاث تذاكر لفيلم "كاهو نا بيارهيه" لعرض العصر غدًا في سينما "سانجام". إنهم يعيدون عرضه طوال هذا الأسبوع. لا أدري لماذا لا يحضرون لنا أبدًا الأعمال الجديدة التي نسمع عنها؟ على كل حال، أنا أحب هذا الفيلم ولا أمانع في مشاهدته في أيّ وقت. ما رأيك؟ هل ستأتي معي أنا و"سوباش"؟كان "رامتشاند" على وشك الرفض. ألم يعقد النية على عدم إضاعة وقته أيام الآحاد في مشاهدة الأفلام مع "هاري"؟ لكنه كان يدرس باجتهاد طوال الفترة الماضية. ستكون فرصة يلتقط فيها أنفاسه. قال هامسًا:

- نعم.. لا بأس.

قال "هاري":

- صباحًا، سنشاهد أنا و"سوباش" فيلم "غدر". إنه جديد. هل ترغب في الذهاب معنا؟ يفترض أنه عمل ضخم وناجح جدًا. لم نحصل على التذاكر بعد، لأنه يعرض في سينما "أدرش". الذهاب إلى هناك لحجز تذاكر، ثم العودة ثانية،

سيستغرق النهار كله. مسافة طويلة جدًا. قررنا أن نجرب حظنا ونذهب غدًا. لعلنا ننجح في الحصول على مقعدين. ليتك تأتي معنا.

أجابه "رامتشاند" بتردد:

- ولكن، فيلمين في يوم واحد؟

قال "هاري" بمرح:

- ولِمَ لا؟! فكّر "رامتشاند" قليلًا، ثم تذكر القرارات التي كان قد توصل إليها. وقال لنفسه بأن معظم أفلام الممثل "ساني ديول" مليئة بمشاهد دموية عنيفة لا تعجبه أصلًا، فقال:

- كلّا.. اذهبوا أنتم لمشاهدة "غدر". سأقابلكم أمام "سانجام" لنحضر معًا عرض "كاهونا بيارهيه". سأكتفي بفيلم واحد فقط.

- لكنك شاهدته من قبل يا أخي!

- صحيح، لكنني نسيت الكثير من أحداثه، فأنا لم أشاهده مئة مرة كما فعلت أنت! كما إنني أحب جميع أغنياته. والحقيقة أن "غدر" كلّه عنف. لقد رأيت صوَره وملصقاته.

فكر "رامتشاند" بأنه سيستغل فترة الصباح في قراءة كتبه واستذكار قدر من الدروس، ليستطيع أن يخرج العصر بضمير مرتاح وبال رائق.

هزّ "هاري" كتفه باستسلام وقال:

- حسنًا.. كما تحبّ.

في ساعة مبكرة من اليوم التالي، غسل "رامتشاند" ملابسه ونظّف حجرته وقام بالاستحمام بعدها، ثم جلس في هدوء ممسكًا كتاب التعبير. بدأ يقرأ موضوعًا عنوانه: "العلم: نعمة أم نقمة؟". صار بإمكانه الآن أن يقرأ بسهولة أكبر.

"طوّر العلم أمورًا كثيرة لخدمة الجنس البشري. بسبب العلم، تطورت مجالات الطب والتكنولوجيا بشكل كبير، فتمّ التوصل لعلاج الكثير من الأمراض. كما ساهم العلم في تيسير أمور الحياة اليومية، مثل توفير جميع الأجهزة المنزلية. قام أيضًا بحلّ العديد من مشكلاتنا".

ولكنَّ لكل عملة وجهين..

"قد يكون العلم نعمة، لكنه في بعض الأحيان نقمة أيضًا. فبسببه، هناك تلوث، وهناك حروب. الأكياس البلاستيكية وغازات المصانع تدمّر البيئة. السموم تختلط بمياه الشرب. لذلك يتوجب علينا استخدام العلم بحرص بالغ".

جملة واحدة أثارت إعجاب "رامتشاند" بشدّة، وأحس بأنها عميقة جدًا: "لكل عملة وجهان".. نعم.. هناك دائمًا طريقتان للنظر إلى الأمور والحكم عليها. لم يخبره أحد بذلك أبدًا. فبالنسبة لكل من حوله.. "جوكل" و"مهاجان" و"هاري" و"شيام" و"راجيش" وصاحب البيت (كان من النادر أن يتحدث مع "تشاندر").. فإن الأشياء والأوضاع عندهم إما جيدة فقط أو سيئة فقط. لكن هذا أسلوب جديد في النظر للأمور. أعجبه جدًا. أنّب نفسه. كان عليه أن يدرك هذه الحقيقة بنفسه، فقد مرّت أمامه أمثلة كثيرة في الدكّان، تذكرها الآن.. فمثلًا إذا رفضت زبونة أحد "السواري" وألقته جانبًا بإهمال، سارعت زبونة أخرى بالتقاطه على الفور ودفع ثمنه.

قال لنفسه إنه ولكثرة مشاهدته لهذا الموقف المتكرر، كان ينبغي عليه أن يتوصل لهذه النتيجة. "لكل عملة وجهان"، لكنه يفتقر للتفكير الأصيل!

يا لتكوين الجملة البديع! "لكل عملة وجهان".. يا لجمال التعبير!

دوّنها في دفتره، بخط يتحسّن كل يوم.

ظلّ ينظر إلى الساعة كل قليل. العرض يبدأ في الثالثة. عند تمام الساعة الثانية، مشط شعره مرة أخرى، ووضع بعض النقود في محفظته ليسدّد لـ"هاري" ثمن التذكرة. دسّ عبوة مرهم "زاندو" المسكّن للألم في جيبه، تحسّبًا لإصابته بالصداع.

ثبّت القفل على باب حجرته، وهبط السُلَّم. وجد الكلب الأجرب الذي يقطن شارعهم مستلقيًا على عتبة الباب الخارجي. تخطاه بحرص، وسار باتجاه السينما.

الأسواق مغلقة. تمدّدت الكلاب الضالة في الطرقات طلبًا للدفء.

تهادت سيارات قليلة، تحمل أفراد الأسر المقيمة في الضواحي الجديدة، البعيدة قليلًا، وقد أتوا – كما كل يوم أحد – لوسط المدينة لزيارة المعبد الذهبي وتناول وجبة في أيّ من المطاعم الشعبية المشهورة عقب ذلك.

أمَّا خارج دار السينما، فقد تزاحمت جموع الناس المتدافعين حول شبّاك التذاكر، كما نصبت لوحة إعلانات ضخمة لبطليّ الفيلم "هريتيك روشان" و"آميشا باتيل"، وقد تم رسم وجهيهما بشكل سيئ وبلون مائل للأحمر.

حاول "رامتشاند" البحث عن "هاري" و"سوباش".

سرعان ما رآهما يلوّحان له من وسط البشر المتزاحمين. أسرع بالانضمام إليهما:

- يا أغبياء!! مالكما تقفان وسط الزحمة هكذا؟!

قال "هاري":

- نحن الأغبياء؟! هل تظن أننا تعمدنا الوقوف هنا يا ذكي؟ كـان المكـان هادئًـا ثـم تكـاثر الناس من حولنا ووجدنا أنفسنا في منتصف هذه الأعداد الغفيرة.

تبادل الثلاثة الضحكات والشتائم، وراحوا يضربون بعضهم في مزاح.

وهكذا، كانوا في المزاج الملائم للاستمتاع بالفيلم معًا.

قال "رامتشاند" وهو يتابع الأمواج البشرية المتلاطمة أمام شبّاك التذاكر:

- الحمد لله أن تذاكرنا معنا.

قال "هاري":

- صحيح. لقد تعذبنا صباح اليـوم إلى أن اسـتطعنا، أخـيرًا، الحـصول عـلى تـذكرتين لفـيلم "غدر".

سألهما "رامتشاند":

- كيف كان؟ هل أعجبكما؟

أجابه "سوباش":

- ممتاز! عمل عظيم! وآه من "ساني ديول" يا أخـي! أعتقـد أنـه لـو قابـل مجموعـة مـن الباكستانيين في الحقيقة لما تردد في أن يوسعهم ضربًا، كما فعل معهم في الفيلم!

قال "رامتشاند":

- ولهذا السبب أنا لا أحبّه.

سأله "هاري" مستنكرًا:

- لماذا؟ ألا تظن أن الباكستانيين يستحقون الضرب؟

تملّص "رامتشاند" من الإجابة:

- يا سيدي ما لنا وما لهم الآن؟ دعونا نسأل إن كان الدخول للقاعة قد بدأ.

كان الدخول قد بدأ فعلًا. دلف الثلاثة إلى القاعة المظلمة، ذات الجدران القذرة المبقعة، والأرضية المغطاة بقشور الفول السوداني وأكياس الـ"شيبسي" الخاوية.

الجلوس هنا لا يتم وفقًا لأرقام المقاعد، ولذلك دار نضال شرس بين الحضور للحصول على الأماكن التي يرغبونها. جلسوا أخيرًا في انتظار بدء الفيلم. توسط "هاري" رفيقيه، وأخرج كيسًا من الفول السوداني من جيبه. بدأوا في تكسير القشور الخارجية ومضغ ما بداخلها وهم يتبادلون الحديث والضحك.

رفع "هاري" و"سوباش" أقدامهما على ظهور المقاعد أمامهما، وبدأ الأخير يسرد عليهما بعض القصص المسلّية عن "ليديز فانسي ستور".

- منذ بضعة أيام، دخلت امرأة لتشتري زوجًا من الأقراط. بعدها بدقائق، دخلت سيدة أخرى لتبتاع مجموعة من الأساور. وفجأة سألتا معًا عن سعر أباجورة خضراء ذات حوافّ ذهبية. وحين قلنا إنها القطعة الأخيرة في الدكّان، لن تصدّقا ما فعلتاه! أخذتا تتعاركان وتتشاجران كما الكلاب المسعورة! لم نعرف

كيف نتصرف، وبخاصة حين بدأتا في تبادل السباب والشتائم. ما هذا؟ كل ذلك من أجل أباجورة؟! النساء كائنات عجيبة والله. لديهن القدرة على ارتكاب أي حماقة!

قال "هاري":

- أما نحن، فلا نشهد شجارات مثل هذه لدينا في الدكان. أليس كذلك يا "رامتشاند"؟

أضاف ضاحكًا:

- يبدو أنك أنت السبب يا "سوباش" إذًا.. وجهك القبيح يثير عصبية الزبونات ويجعلهن في حالة مأساوية!

لكمه "سوباش"ممازحًا، ثم انفجر في الضحك ومعه "رامتشاند". انطلقت قهقهات "هاري" حتى كاد يختنق بحبّة فول سوداني.

قال "سوباش":

- وأتتنا زبونة أخرى، وانحنت لتتفحص بعض دبابيس الشعر المعروضة على الرفّ السفلي.. بينما رحت أنا أتفحص ما ظهر من الفتحة المتسعة لبلوزتها!

ضحك "هاري" بصوت مرتفع، لكن "رامتشاند" كان أكثر تحفظًا. قال "هاري" لابن عمه بجدّية مصطنعة:

- أرجو أن تتخيّر حكاياتك بعناية، فالقدّيس "رامتشاند" لا يحب هذه النوعية من القصص من فضلك.

ابتسم "رامتشاند"وقال بهدوء:

- لا.. الأمر ليس كذلك بتاتًا.

كان يفكر في "سودها" في تلك اللحظة. ما الداعي لأن يتصرف الإنسان بغباء وحماقة كلما رأى امرأة؟ "سودها" تكفيه.

أظلمت القاعة تمامًا، وأصبحت حالكة السواد. قال "هاري":

- سيبدأ الفيلم حالًا.

تتابعت أسماء الممثلين على الشاشة، وبدأ المشاهدون في التصفير وضرب الأرض بأقدامهم طربًا لأغاني الفيلم التي يعرفونها جيدًا، لتكرار عرضه منذ ظهوره الأول قبل عامين. اشترك "هاري" و"سوباش" مع الجمهور المستمتع. قال "رامتشاند" بانزعاج:

- ما هذا؟ توقفا الآن رجاءً.

قال "هاري" بدهشة:

- ما الأمر يا أخي "رامتشاند"؟ لقد جئنا لنستمتع بوقتنا. إننا نجلس في الدكان بمنتهى الهدوء ستّة أيام في الأسبوع.. من حقنا أن نمرح قليلًا.

استسلم "رامتشاند" ولاذ بالصمت.

البطل عازف جيتار فقير، والبطلة فتاة ثرية، يرقصان وسط مجموعة من الشباب المتأنقين والفتيات النحيلات على سطح سفينة. يظهران بعدها على جزيرة بمفردهما، ويتصارحان بحبّ كل منهما للآخر، فتبدأ الأغنية الرئيسية التي يحمل الفيلم اسمها. تأمَّل "رامتشاند" تفاصيل المشهد بسعادة. مال نحو "هاري" قائلًا:

- انظر إلى مياه المحيط.. كم هي زرقاء ومترامية الأطراف. تخيل لـو أنـك عـلى جزيـرة ولا شيء حولك سوى هذه المياه الجميلة والسماء الصافية.

قاطعه "هاري" بسرعة:

- اخرس أرجوك! أي ماء وأي سـماء؟ انظـر يـا أخـي إلى سـاقيّ "آميـشا باتيـل"، مـا هـذه الروعة؟!

أحس "رامتشاند" باستمتاع بالغ وهـو يـستمع للموسـيقى المتميـزة للأغنيـة، فـيما ارتفـع صوت "هاري" بالغناء، وشاركه "سوباش" بترديد الكلمات التي يحفظها الجميع. نظرت إلـيهما امرأتان تجلسان على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف نظرات حادة تُنبئ عن ضـيقهما البـالغ. قـال "رامتشاند" بحرج بالغ:

- "هاري"! اخرس! لقد تضايقتا من غنائكما. السيدات ينزعجن من غناء الجمهور ويجـدن أن ذلك عدم احترام لوجودهن.

أجابه "هاري":

- وما دخلك أنت بهن؟ لماذا تخاف على مشاعرهن؟ هل هن زوجات أبنائـك مـثلًا وأنـا لا أدري؟!

واصل الغناء، واندفع يصيح مع الآخرين:

- "كاهونا بيارهيه".

و مرة أخرى، استسلم "رامتشاند".

خلال الاستراحة، تناول كل واحد منهم كوبًا من الشاي وحبّة "ساموسا". ثم ذهب "رامتشاند" للحمام. كانت الرائحة هناك مقززة بطريقة تفوق الوصف. أخرج عبوة المرهم من جيبه ومسح القليل منه على جبينه للقضاء على الصداع الخفيف الذي بدأ يشعر به.

بقية الفيلم مشوقة جدًا. يُقتل البطل على يد مجموعة من الأشرار، ثم يظهر شخص يشبهه تمامًا، ويقدّم رقصة جميلة في نادٍ ليلي، مرتديًا ملابس سوداء ضيقة، تظهر رشاقته. امتلأ الفيلم بمناظر طبيعية مذهلة؛ جبال، ومساحات شاسعة من الخضرة، وشوارع فائقة النظافة أحبّها "رامتشاند" جدًا.

تساءل في نفسه:

-أين تقع هذه الأماكن؟ وأيّ أناس محظوظين يعيشون فيها، ويتمتعون كل يوم في حياتهم بهذا الجمال المبهر؟

حين عاد إلى حجرته، كان يشعر بحزن عظيم يثقل قلبه. فبعد الانفعالات المختلفة التي أحس بها وهو يتابع الأحداث، وبعد المناظر الطبيعية الساحرة، والأغاني الجميلة، وزحام الناس. بدت حجرته هادئة جدًا. غمره إحساس فظيع بالوحدة.

كان "هاري" قد عرض عليه أن يتنزه معهما حتى حلول الليل، ليذهبوا بعدها ويتناولوا عشاءهم لدى "لاكان". لكنه اعتذر قائلًا إنه يعاني من ألم في رأسه ولا يشعر برغبة في التنزه. قال له "سوباش" بأنه يتصرف كامرأة عجوز. ابتسم وتركهما متوجهًا لمسكنه.

فتح الشباك الخلفي فور وصوله، ونظر منه إلى الطابق الأرضي. رأى غرفة المعيشة المريحة، الدافئة، وقد اجتمع فيها كل أفراد الأسرة. جلس الأب على الكرسي، فيما تجاور الصغار الثلاثة على الأريكة، وقد غطوا سيقانهم بلحافٍ ثقيل.

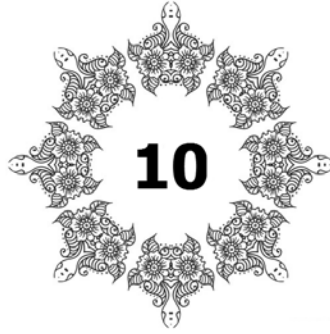
انتقل ببصره لنافذة المطبخ. رأى "سودها" واقفة أمام وعاء يغلي على الموقد. انعكست النار على قرطها الذهبي، فبدا كحشرة مضيئة تحط على أذنها. دخلت الغرفة التي تجلس فيها أسرتها، وهي تحمل صينية وضعتها على الطاولة. عليها كوبان من الشاي لها ولزوجها، وثلاث كؤوس طويلة من الحليب المضاف إليه مسحوق الشعير "هورليكس". يعرف "رامتشاند" ما في داخل الكؤوس، لأنه كثيرًا ما رآها تغسل برطمانات "هورليكس" الزجاجية بعد أن تفرغ، ثم تملؤها بالعدس أو الملح أو التوابل المختلفة.

كانت تغطي جسمها الدافئ بثوب قصير وسروال لهما قماش سميك، وتحيط كتفيها بشال من الصوف البُنّي، لفته حولها بإحكام.

تزايد إحساسه بالحزن، وشعر برغبة واشتياق لأن يتمتع بذلك الدفء الذي يولّده الشال في جسدها.

دفّأ زوجها أصابعه على السطح الخارجي لكوب الشاي، قبل أن يرتشفه بتلذذ واستمتاع.

ارتجف "رامتشاند". تسللت البرودة الشديدة إلى حجرته. أغلق النافذة. أحس بأن حجرته عارية، وأنها خاوية جدًا.



في أحد الأيام، تغيّب "تشاندر" عن العمل. تذمّر "مهاجان" قليلًا، لكنه لم يفعل أكثر من ذلك.

لم يحضر في اليومين التاليين أيضًا، ولم يبعث برسالة مع أحد توضّح أسباب تغيّبه.

في اليوم الثالث، بدا "مهاجان" في حالة من الغيظ الشديد، وراح يوبّخ كل من يمرّ منهم أمامه طوال الصباح. قال لـ"هاري" أن أيّ قرد جاهل يستطيع أن يعمل بطريقة أفضل منه بكثير. علَّق "هاري" بعد ذلك بأنه سيطلب من "مهاجان" أن يعرّفه على قرد متعلم، وأنه شخصيًا يفضّل أن يكون ذلك القرد من حملة الماجستير!

أحس "رامتشاند" بالتوتر عند سماعه ذلك، وبخاصة أن "هاري" تحدّث بصوت مرتفع. قال له مؤنبًا:

- اصمت تمامًا. ستجعله يفقد أعصابه أكثر بتعليقاتك السخيفة، وهذه الابتسامة العريضة التي تملأ وجهك.

ضحك "هاري" بعدم اكتراث وواصل عمله وهو يدندن بالغناء.

حرص "رامتشاند" طوال الصباح على ألا تلتقي عيناه بعيني "مهاجان". ظل يعمـل بهـدوء تام وصمت كامل، ورغم ذلك، مع ساعات الظهيرة الأولى، صاح "مهاجان" فجأة:

- "راامتشاااند"!

كاد أن يصاب بإغماءة من شدة الفزع. ذهب إليـه وهـو يفـرك يديـه ببعـضهما في قلـق، وقال بتهذيب بالغ:

- نعم يا سيدي؟

قال "مهاجان" بعصبية:

- سأعطيك الآن عنوان "تشاندر"، وأشرح لك كيفية الوصول إلى هناك.

واصل كلامه وقد علا صوته بغضب:

- اذهب فورًا لتكتشف أسباب غياب هذا الفاشل.. واسـأله بـالمرة إن كـان يظـن أن هـذا دكان أبيه ليأتي ويذهب وقتما يشاء سيادته! قل له أن يحضر ليراني بأسرع ما يمكن.

أحس "رامتشاند" بارتياح كبير عقب ما سمعه، واسترخى جسده المتوتر، فقد كـان متأكـدًا من أن "مهاجان" عرف بأنه لم ينفذ أوامره المتعلقة بتنظيف بعـض الرفـوف؛ لكنـه في الوقـت ذاته أحس بالشفقة حيال "تشاندر".

أنصت بتركيز لـ"مهاجان" وهو يصف تفاصيل الطريق الذي ينبغي أن يسلكه للوصول إلى هناك. حين انتهى قال بصوت هادر:

- والآن.. أعد على مسامعي كل ما قلته. أودّ أن أتأكد من أنك فهمت جيدًا ما قلتـه للتـوّ. لا أريدك أن تضيع في الطرقات، فأضطر لإرسال شخص آخر للبحث عن سموّك.. ثـم تخرجـون الواحد تلو الآخر، ليبحث بعضكم عن بعض! والـلـه إنني أتساءل أحيانًـا إن كنـت حقًـا أديـر دكانًا للأقمشة أم مستشفى للمجانين؟!

كرر "رامتشاند" ما قاله مديره منذ لحظـات، وهـو يـشعر بالاضـطراب. أي كلمـة خاطئـة ستثير حنق "مهاجان"، الغاضب أصلًا.

أنصت "مهاجان" لما يقوله، وهو يومئ برأسه مصدّقًا على ما يـسمعه. انتهـى "رامتـشاند" أخيرًا، وغادر شاكرًا، وهو لا يصدق حظه الطيب الذي جعله بعد سنوات مـن بقائـه محبوسًـا بين جدران الدكان، يخرج بصورة متكررة لقضاء مـشاوير مختلفـة. منـزل "كـابور" في البدايـة، والآن بيت "تشاندر". صحيح أن هذا المشوار الأخير يفتقر لأي إثـارة أو تـشويق، لكنـه أفـضل من الجلوس بالساعات داخل الدكّان.



يبعد بيت "تـشاندر" عـن الـدكان بمـسافة كبـيرة. يقـع في الأحيـاء الأكـثر فقـرًا، في الجـزء الداخلي من المدينة. سار "رامتشاند" لنصف ساعة متواصـلة. كلـما اقـترب مـن تلـك المنـاطق الداخلية، تزايد الازدحام، وأصبحت الشوارع والأماكن أكثر قذارة.

رأى "رامتشاند" زقاقًا ضيقًا، يقع على جانبه معبد صغير للإله "هانومان"[4]، تمنى أن يكون هو المعبد الذي وصفه "مهاجان". واصل سيره، ومرّ بجواره، سمع أصوات ترانيم وصلوات، وأجراس تقرع بشكل متواصل.

ولج إلى الزقاق بالغ الضيق. ليس سوى شقّ بين بضع بنايات صغيرة، يزدحم بأناس يحاولون اختراق الأجساد الكثيرة المتراصّة التي وجد "رامتشاند" نفسه وسطها. اقتربت منه امرأة ذات وجه لامع، تحمل أكياسًا ممتلئة بالخضراوات، وحاولت أن تمر بسرعة، فلكزته بكوعها بقوة. أوشك على السقوط، فمدّ ذراعه بطريقة غريزية ليستند إلى أيّ شيء، ودون قصد اصطدمت يده بصدر امرأة تلبس ثيابًا رخيصة من اللون الأخضر، وتضع وشاحًا من قماش النايلون الأسود. التفتت إليه بقوة وصاحت بغضب:

- يا ابن الحرام. هل أنت أعمى يا ابن الكلب؟

نطقت تلك الكلمات بحنق، وكأنها تبصق على وجهه في احتقار.

شلّته الصدمة تمامًا، فلم يقوَ على الحركة أو الكلام. ظل واقفًا، يحملق فيها بصمت. أوشك على أن يعتذر لها. حاول أن يتكلم. احتبس صوته. هناك شيء وحشي في وجهها المتحجر. تتقاطع على سطحه خطوط عميقة، رغم أنه متأكد من أنها لا تتعدى الثلاثين بأيّ حال من الأحوال، إن لم تكن أصغر. كان جسدها مشدودًا ومتوترًا من فرط الغضب. واصل "رامتشاند" النظر إليها وقد فغر فمه قليلًا. التقت عيناهما. حدقت به وهي ترتجف من شدة الغيظ. تحركت جموع الناس، وألفت نفسها تتحرك معهم.

(4) هانومان: إله هندوسي على هيئة قرد، يتميز بالشجاعة والقوة والإيمان.

ظل "رامتشاند" شاخصًا إلى ظهرها حتى غابت في الزحام.

واصل سيره وقد تسارعت نبضات قلبه وغمره إحساس بخوف غامض، والكثير من القلق والتوتر. سار في الأزقة والحارات على غير هدى، دون انتباه. وأخيرًا، قرر أن يتمالك أعصابه.

توقف حين لمح كشك شاي. قال لنفسه بأنه طالما خرج من الدكان، فلم لا يحظى بشيء من المتعة بالمرّة؟ كوب من الشاي الساخن كفيل بتهدئته. ارتشف كوبًا، ثم تناول بضع حبات "باكورا" ساخنة، كان البائع يقليها داخل الكشك. اختتم ذلك بكوب آخر من الشاي.

أحس بالنعاس وهو يمضغ الـ"باكورا" الساخنة ذات الرائحة الشهية الخلّابة، تحت أشعة الشمس الدافئة.

بعد نصف ساعة، غادر الكشك وهو يشعر بتحسن كبير. أخذ يسأل الناس عن العنوان. في النهاية، وجد نفسه – ثانيةً – في أول الزقاق، بجوار معبد "هانومان". واصل سيره إلى أن وجد نفسه أمام منزل "تشاندر". أحس بصدمة. المسكن أقرب للجُحر منه إلى البيت. بدا متداعيًا، كما لو كان سينهار في أي لحظة. صحيح أن البائعين العاملين في المتاجر والدكاكين من الفقراء، لكن فقرهم لا يصل لهذه الدرجة من البؤس. ثم إن "تشاندر" ليس له أولاد ينفق عليهم دخله، ليكون بهذا العوز.

لطالما ظن بأن الشارع الذي يقطن فيه هو أكثر الأماكن قذارة، لكنه اكتشف للتوّ أن هناك ما هو أسوأ. هذا الشارع الذي تفيض فيه مياه المجاري ذات الرائحة الكريهة المقززة، والتي تطفو على سطحه القاذورات السوداء اللزجة.

قرع الباب ووقف منتظرًا وهو يأمل أن يكون قد نجح في الوصول للبيت الصحيح. أحس بأن الباب المتهالك يوشك على السقوط. قرعه مرة أخرى. سمع صياحًا آتيًا من الداخل. فكر بدهشة بأنه لم يسمع أبدًا "تشاندر" وهو يتحدث بصوت مرتفع من قبل. إنه أحد ألطف وأهدأ الرجال الذين قابلهم في حياته. فُتح الباب فجأة، بقوة كبيرة، وظهر "تشاندر" واقفًا وقد التوت قسمات وجهه من الغضب. استعاد شيئًا من ملامحه المألوفة حين رأى "رامتشاند". قال بنبرة معتذرة:

- ماذا هناك؟

كان "رامتشاند" على وشك أن يجيبه، حين مدّ بصره إلى داخل الحجرة. هناك، جلست امرأة ضعيفة في أحد الأركان، وقد انطبعت علامات كفوف، بوضوح على وجهها. مخلّفة آثارًا حمراء. سقط غطاء رأسها الأسود على الأرض وظهر شعرها الأشعث. غطت الدموع وجهها، وسال الدم من زاوية فمها المجروح.

أدرك أنها المرأة سليطة اللسان التي تشاجرت معه في الطريق منذ قليل. بدت مختلفة الآن. ضعيفة ومنكسرة. أصبحت الخطوط على وجهها أكثر عمقًا. أما عيناها فخاويتان، مظلمتان. لم تتحرك ولم تتكلم. حوّل "رامتشاند" نظره عنها.

أحس فجأة بأنه يرى "تشاندر" للمرة الأولى. شخص غريب لا يعرفه. خاطبه بوَجَل:

- إنهم في الدكان.. أعني أنهم يسألون هناك متى ستأتي؟

غمغم "رامتشاند":

- سأذهب.. آه.. غدًا. إنني مريض. قل لـ"مهاجان" بأني مريض. سآتي صباح الغد بكل تأكيد.

انبعثت من أنفاسه رائحة كحول قوية. لاحظ "رامتشاند" عينيه الحمراوين. قال له:

- حسنًا.

لم ينظر للمرأة مرة أخرى، رغم وجودها الذي فرض نفسه بقوة على المكان، كأنها المخلوق الوحيد في الكون بأكمله. قبل أن يستدير مغادرًا، قال:

- أراك غدًا إذًا.

ظلت المرأة ملقاة في ذلك الركن بجوار صندوق معدني قديم.

لبقية اليوم، ظل "رامتشاند" يشعر بالاضطراب.



ذلك المساء، غادر الدكّان بمفرده. لم تكن لديه أي رغبة في الحديث مع أحد. ورغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا على تناول العشاء، توجَّه إلى مطعم "لاكان" قبل ذهابه لحجرته.

حين وصل، وجد الرجل العجوز يحاول إشعال الفرن. قال له فور دخوله:

- اجلس يا "رامتشاند". سيستغرق هذا بعض الوقت.

لم يكن في المطعم إلا رجل واحد يشرب الشاي في أحد الأركان.

جلس "رامتشاند" مستغرقًا في التفكير. لم يستطع أن يمحو صورة زوجة "تشاندر" من خياله، منذ رآها، حتى بعد أن تركها بمنتهى القسوة ملقاة هناك. ما الذي كان سيفعله؟ المرأة زوجة "تشاندر" على كل حال، وليس

بإمكانه أن يتدخل في حياة الرجل الأسريـة. لكنـه يريـد الاطمئنـان عليهـا.. ليـت بمقـدوره أن يعرف إن كانت على ما يرام الآن. وإن كانت قد توقفت عن البكاء.

اشتعل الفرن الطينيّ أخيرًا، وألقى بظلاله الحمراء على وجه "لاكان" المتعب.

يتعمد "رامتـشاند" تجنّـب أيّ حـوار معـه، حتـى لا يجـرّهما ذلـك للحـديث عـن ولديـه المتوفيين. لكنه اليوم، ربما بسبب اضطرابه وانشغال باله، وجد نفسه يسأله دون تدبير:

- كيف حالك؟

رفع الرجل رأسه وقال بهدوء:

- عيد ميلاد ابني اليوم. الولد الأكبر.

لم يقل "رامتشاند" شيئًا سوى:

- أوه..

ثم التزم الصمت. شرب كوبًا من الشاي، وتناول رغيفين من الخبـز، وصـحن مـن الخـضار المشكّلة المطبوخة.

إنه يسرف في تناول الشاي، ويدمنه تقريبًا، فهو علاجه في كل مرة يشعر فيها بـصداع في رأسه، وهو ردّ فعله على أيّ اضطراب يشعر به، وعلى توبيخ "مهاجان" له. يعرف جيدًا أنه لا ينبغي عليه شرب تلك الكميات الهائلة منه، وخصوصًا أنه يسبب لـه الحموضـة في كثير من الأحيان، لكنـه لا يـدخن ولا يـشرب أيّ نـوع مـن الخمـور، ولـذلك فإنـه متعتـه الوحيدة في الحياة.

تحرّك "لاكان" في أنحاء المطعم، يشرف على الأمور المختلفة، يتحدث إلى مساعديه، يتحرك بآلية، بعينين مطفأتين. كعيني رجل ضرير. حين اقترب منه، استجمع "رامتشاند" شجاعته وسأله:

- كيف حال زوجتك؟ هل هي بخير؟

عند سماعه ذلك، تهاوى القناع المتماسك الذي يضعه "لاكان" على وجهه..

- كلّا. ليست بخير. لقد مرّ على القصة نحو خمسة عشر عامًا أو أكثر، لكنها تأبى النسيان. أنا آتي إلى هنا، وأعدّ قدور العدس، وأطبخ الخضراوات وأقطع الكزبرة وأصنع صلصة النعناع.. وأضيف السكر للأرز بالحليب. وأنهمك في تقليب طبخاتي إلى أن أنسى؛ أما هي.. فتظل في الداخل تبكي بالساعات وهي تقبّل صورهما، وتستعيد كل ما مرّ بهما من أحداث ومواقف. تتحدث عن اليوم الذي خطا فيه الولد الأكبر خطوته الأولى، وتتذكر كيف غمرتنا السعادة في تلك اللحظة، فقررنا أن نذهب به للمعبد الذهبي لنتلقى البركة نحن الثلاثة. تستعيد ذكرى مرض ابننا الأصغر، حين خرج مع ولد من أصدقائه وقاما بشراء بعض الحلوى من أحد الباعة الجائلين، وكيف أمضى الليلة وهو يتقيأ ويعاني من إسهال حادّ. لقد كدنا نموت من القلق عليه. وحتى بعد أن شُفي تمامًا، لم يفارقنا خوفنا عليه، فظللنا نتناوب على الاستيقاظ فجرًا، لنغلي له الماء، بحيث يجد ماءً معقمًا يشربه باردًا حين يصحو من نومه. تظل تستعيد هذه الذكريات وغيرها، طوال الوقت. لا تنسى.. ولا تتيح لي فرصة للنسيان. هل تعلم كيف حدث ذلك؟

أحس "رامتشاند" بانقباض حادّ في معدته. لا يريد أن يعرف. لكن الوقت قد فات، ولم يعد بإمكانه أن يتراجع الآن..

واصل "لاكان" كلامه بصوته الهادئ الرتيب:

- لو أننا كنا نعرف، ذلك الصباح، أن اليوم سينتهي بتلك الطريقة البشعة، لكنّا على الأقل قمنا بالدعاء والصلاة وطلب بركة "جورو ناناك"[5]. لكن، كيف كان ذلك سيغير من الأحداث أصلًا؟ كل ما جرى تمّ في المعبد. بيت الإله أساسًا. سمح بذلك، ولم يمنع الأذى عن صغارنا. نشعر بالغضب تجاهه أحيانًا. نكفُر به في أحيان أخرى. ثم نخاف. ماذا لو أن أرواح ولدينا بمعيّته الآن؟ هل سيعاقبنا على عدم إيماننا، بإيذائهما؟

أضاف:

- الواقع إنهما لم يذهبا للمعبد يومها، بغرض الصلاة. كل ما في الأمر أنه كان نهارًا بالغ الحرارة، وكانا يشعران بالضيق لوجودهما داخل المنزل. وكما أتذكر، فإن الحرارة جعلتنا كلّنا نشعر بالانزعاج، وكنا جميعًا في مزاج سيىء. قمت بالصراخ على الولد الأكبر لأنه كان يغني، بصوت مرتفع، أغنية لا أحبها. ويعلم أنني أجدها سوقية. تعمد أن يزعجني بمواصلة ترديدها. الولد الأصغر ظل يضايق أمه ولا يطيعها في أي شيء تطلبه منه.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه وهو يستعيد ذكريات اليوم الأخير من حياتهم كأسرة واحدة:

- وفي الحقيقة، فإنني أنا وزوجتي، بدورنا، تشاجرنا أيضًا ذلك النهار. وبعد ذلك، تحمّم الولدان، ووجدت الأصغر يلف على رأسه عمامة جديدة كحلية اللون. قلت له إنها جديدة، وسألته لمَ لا يحتفظ بها ليرتديها في أي مناسبة خاصة قادمة، بدلًا من أن يفسدها بالعرق في هذا الجوّ الذي لا يطاق؟ وأجابني بأنه سيلبسها لأنه يريد ذلك ولأنه يرغب في أن يبدو أنيقًا ووسيمًا. ضحكت أنا،

(5) جورو ناناك: مؤسس السيخية، ولد عام 1469، وتوفي في العام 1539.

لكن أمه انزعجت من ردّه وأسلوبه، وقالت إنها لطالما تمنت أن يرزقها الربّ ببنات هادئات ومطيعات بدلًا من هذين الولدين الوقحين. ظللت أخرج وأدخل، لأطمئن على سير العمل في المطعم، فيما واصلا مضايقة أمهما. يطلبان عصيرًا. ويسألانها عن سر زواجها بي؟ ولماذا لم تتزوج برجل غني لا يصر على الاحتفاظ بالثياب الجديدة للمناسبات الخاصة فقط؟ كانت تلبي طلباتهما مرة.. تضحك مرة.. تؤنبهما الأخرى. حتى كادت أن تجن من صخبهما. وأخيرًا قالت لهما وقد نفد صبرها بإنهما طالما يرتديان ملابس خروج، فلم لا يخرجان بالفعل ويتركانها في سلام لساعة أو اثنتين؟ وعلى الفور قال الولدان بصوت واحد إنهما سيذهبان إلى الحديقة العامة "كومباني باغ". لكنها رفضت لأنها بعيدة جدًا. فاقترح الأكبر أن يذهبا للمعبد الذهبي. وصاحت زوجتي بأنه عديم الأدب والاحترام لأنه يساوي في الأهمية بين حديقة عامة وأقدس معبد لنا نحن السيخ. ووصفته بالحيوان. وهكذا توجه الولدان، في نهاية الأمر، للمعبد.

أطرق "لاكان" وسكت لبرهة. أحس "رامتشاند" بعِظم آلامه، لكنه لم يعلّق. انتظر أن يكمل الشيخ قصّته، رغم أنه – مثل كثيرين – يعرفها جيدًا. الأصوليون السيخ المتحصّنون في المعبد الذهبي. الأوامر الصادرة من "أنديرا غاندي". حصار قوّات الجيش الهندي للمكان. دخولهم بأحذيتهم حرم المعبد المقدس، المعركة بين الأصوليين والجنود، القصص العديدة المؤسفة عن الأبرياء من زوّار المعبد – أو "المؤمنين" كما أشارت إليهم الصحف بعدها – الذين تعرضوا هم أيضًا للحصار، ثم القتل بلا رحمة. أوقفوهم في صفوف منتظمة، ثم ضربوهم بالرصاص. هذا ما أكّده بعض الناجين، الذين استطاعوا، بطريقة ما، الخروج سالمين من هذه المعركة. إلا أن الجيش لم يعترف أبدًا بارتكاب تلك المجزرة. تحدث الناس بعدها عن أكوام الجثث التي تمّ تحميلها في سيارات الجيش الضخمة.

استعاد "رامتشاند" في ذهنه كل هذه الأمور. توقع أن يسرد عليه "لاكان" تفاصيل ذلك العمل الوحشي، إلا أنه لم يفعل. قال بصوت يغالب البكاء:

- ولداي الصغيران. لقد ربطوا أيديهما خلف ظهريهما مستخدمين العمامتين اللتين كانا يلبسانها. أوقفوهما ضمن الصفوف وأطلقوا عليهما الرصاص، مع غيرهما من الناس. لم نجد جثتيهما بعد ذلك، لكن "ساتويندر سينج" أخبرنا بالتفاصيل بعد تمكنه من الفرار.

جلس "رامتشاند" صامتًا ومتحجرًا كما لو كان صنمًا. لم يسأل من يكون "ساتويندر سنج".

قال "لاكان":

- كان الأمر بأكمله فظيعًا وغير محتمل. كلما فكرت بالعمامة الجديدة التي كان يلبسها ابني. لقد قيدوا يديه بها. تلك العمامة الكحلية. لا شك أن الولدين كانا مرتعبين في تلك الدقائق الأخيرة من حياتهما القصيرة. أنا متيقن من ذلك. آه.. كم كانا وسيمين. لقد كنت أقول لهما دائمًا إنهما يشبهان القرود. لكنهما كانا جميلين حقًا. لماذا ماتا بهذه الطريقة المرعبة؟ لماذا لم يذهبا للحديقة العامة ذلك اليوم؟ لماذا.. لماذا؟



في تلك الليلة، حين أمسك "رامتشاند" بكتاب "فنّ كتابة الرسائل"، كان فاقدًا للتركيز تمامًا. في فصل عنوانه "النوادي، المجتمعات، إلخ.. " بدأ بصفحة "خطاب طلب دفع اشتراك متأخر مستحَقّ للنادي". دون أدنى حماس أو رغبة، فتح القاموس بحثًا عن الكلمات غير المفهومة. جال بعينيه على الكلمات

المكتوبة. تمعن في أشكال الحروف دون أن يقرأها. بدأ يشعر بألم في رأسه. ما الهدف من كشف غموض كلمات صعبة؟ لقد ترك تلك المسكينة ملقاة على الأرض ولم يساعدها بأي وسيلة. لا يعرف كيف كان سيفعل ذلك. ذكّر نفسه للمرة الألف بأنها في النهاية زوجة "تشاندر"، ولا شأن له هو بها. لكنه ظل منزعجًا، وبخاصّة أنه أحس بالعجز للمرة الثانية، في اليوم ذاته، أمام أحزان "لاكان". اعترته رغبة عارمة، وهو ينصت إليه، في الهروب. أن يقوم ويختفي فجأة. لم يكن قادرًا على مواجهة ذكريات الرجل المسن الأليمة.

ما حدث حينها هو أن الرجل ظل يتحدث بشكل متواصل، مستغرقًا في استعادة ذكرياته. استرسل في الكلام، وبدا أنه لن يتوقف أبدًا. قاطعه "رامتشاند" بشكل مباغت، طالبًا منه إحضار كوب آخر من الشاي. ظهر الذهول على وجه "لاكان" لوهلة، متبوعًا بألم لا يوصف. لكنه سرعان ما استعاد ملامحه الجامدة. سكت على الفور، ونهض بهدوء. أوصى أحد عمّاله بإحضار الشاي، ثم خرج من الباب الخلفي للمطعم.

ابتلع "رامتشاند" بقايا الشاي الذي برد، ممسكًا الكوب بيدٍ مرتجفة. ألقى ببضع أوراق نقدية على الطاولة وغادر مسرعًا. كان ينوي تناول المزيد من الطعام، وشرب كوب جديد من الشاي. لكنه لم يفعل. خرج من المطعم وهو لا يزال جائعًا، لكنه في الوقت ذاته لم يكن يشعر بأدنى رغبة في تناول الطعام. سار عائدًا إلى مسكنه.

لماذا هو دائم الهروب؟ لمَ لا يستطيع – على الأقل – أن يستمع للآخرين، وأن يعزّيهم ببعض الكلمات الطيبة ليجعلهم يشعرون ببعض التحسن والراحة؟ لماذا يلازمه الإحساس بالاختناق؟ إنه ليس سوى شخص جبان

. أناني. عديم الاهتمام. رأى ذلك بنفسه منعكسًا بوضوح على وجه "لاكان" الحزين، وملامحه المتشوقة لأيّ ردّ فعل من "رامتشاند".

ألقى بنفسه على السرير، والكتاب لا يزال في يده. هل كان بإمكان "لاكان" أن يخمّن أنه غادر المطعم مضطرًا، لأنه كان يشعر بضيق شديد جعله يتنفس بصعوبة بالغة؟

يا لها من حياة قذرة.. حقيرة.. محدودة.. تلك التي يعيشها.

ربما ليست حياته فقط. وإنما الحياة بأكملها كذلك. قذرة ودنيئة ومترهلة وعديمة المعنى. حياة ذليلة وخائفة. وسقيمة ومريض.. وكلها صفاته هو أيضًا. إن بقاءه فيها لا يعني سوى شيء واحد. انعدام الكرامة.

أحس بألم حارق في معدته بسبب الحموضة.

الأمر لا يتعلق بحياتك وحدك. وما فائدة أن تتعلم، وأن تطور عقلك وتنمّي طريقة تفكيرك. وأن تصبغ جدران غرفتك بالجير الأبيض. حين يكون غيرك ملقى على الأرض في حجرة حقيرة، بعد أن ضُرب وأُهين؟ أو حين يكون غيرك محبوسًا داخل ذكريات مظلمة. كأنها حجرات بلا أبواب أو نوافذ؟ حجرات لن ينجح في مغادرتها يومًا.

فتح "رامتشاند" كتاب الرسائل مرة أخرى. حاول أن يركّز انتباهه على الكتاب، وأن يتناسى أيّ أفكار أخرى.

قرأ الكلمات بيأس. قرأ الرسالة دفعة واحدة.

ثري تاريتس،

بورسفيلد،

كينت،

الآنسة / بلانكيت

آنستي العزيزة.. يؤسفني إعلامكم بأن الاشتراك الخاص بنادي "فيكتوريا" للتنس، لم يتم سداده حتى الآن. ووفقًا لقوانين النادي (القانون رقم سبعة) فإن جميع الاشتراكات يجب أن تسدّد في الأول من يناير من كل عام، ولا يسمح لأي عضو باستخدام الملاعب، بعد الأول من شهر أغسطس، لحين دفع المبلغ المتأخر.

(ماذا لو كانت يداه هو المربوطتان خلف ظهره؟ ماذا لو كان يعرف بأنه سيتم إطلاق الرصاص عليه خلال لحظات معدودة؟ كيف كان سيشعر؟).

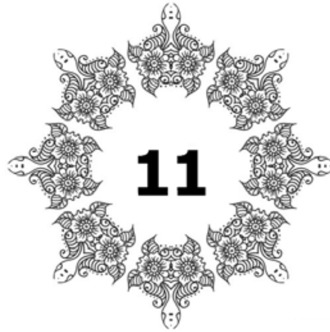
وبناءً على ذلك، برجاء التكرم بإرسال الاشتراك المحدد وهو عشرون جنيهًا إسترلينيًّا.

المرسل: م. جيسوب.

تساءل "رامتشاند" بيأس: "جنيه إسترليني؟ وما معنى هاتين الكلمتين أصلًا؟".

أغلق الكتاب بقوة وألقاه على الطاولة. لم يهدأ الغضب الذي كان يتنامى بداخله منذ النهار. وضع الكتب وقلم الحبر والدفتر جانبًا. ولأول مرة، منذ أسابيع، أمضى ساعات الليل مستلقيًا على سريره، محدّقًا في سقف الحجرة.





يوم الأحد، فتح "رامتشاند" الشبّاك الخلفي وجلس على صندوقه واضعًا كتاب التعبير على ركبتيه، شاخصًا ببصره إلى الخارج. قال لنفسه بتصميم إنه لن يستسلم للاكتئاب. الدنيا ستظل هي الدنيا. لا يوجد سبب يجعله يتوقف عن تحسين مستواه في القراءة والكتابة.

ورغم أنه راح يردد هذا الكلام لنفسه، فإنه لم يستطع السيطرة على ذهنه الشارد.

الوقت آخر العصر. استطالت الظلال، وبدأت نسائم المساء تعلن عن نفسها.

في الحوش، غطّ صاحب البيت في نوم عميق على سرير من الخشب والحبال، وقد غطى وجهه، منعًا للضوء، بوشاح أزرق خاصّ بـ"سودها"، يعرفه "رامتشاند" جيدًا ويحب لونه الرقيق المزين بزهور صفراء ناعمة. تلبسه في أحيان كثيرة. نظر إليها وهي مستغرقة في تصفّح العدد الأخير من مجلة "ساريتا". فرغت من أعمالها المنزلية اليومية وانتهت من طهي العشاء ولم يعد لديها ما تفعله إلا تسخينه ليلًا.

انهمك "فيشنو" و"آلكا" في كتابة واجباتهما المدرسية. يتوقفان أحيانًا

ليتنازعا على قلم رصاص أو ممحاة.

جلس "مانوج" تحت شبّاك "رامتشاند" تمامًا، غارقًا في عالمه الخاصّ، وهو يلوّن صورة رسمها، بألوان شمعية. يحب نيل الدرجات النهائية في جميع المواد، لذلك يحرص على ألا تخرج الألوان عن خطوط الرسم. ألقى "رامتشاند" ببصره عبر النافذة إلى ورقة الرسم التي أسندها الولد على ركبتيه. كانت اللوحة نفسها التي يحرص على رسمها دومًا. تخطّ يداه الخطوط ذاتها كل مرة، ليضمن الحصول من خلالها على أعلى درجة. خط أفقي يتوسط الصفحة، يمثّل الأفق، تعلوه بضعة جبال، عبارة عن مثلثات منتظمة يرسمها بالمسطرة. وكوخ، عبارة عن تكوين يشبه الصندوق، بنافذة واحدة، وسقف مائل، ومدخنة. شجرة طويلة. وشريط أزرق يمثّل النهر. وأخيرًا. يرسم شمسًا في السماء. دائرة تخرج منها خطوط طويلة وقصيرة بالتبادل.

اللمسة الإنسانية الوحيدة على هذه الرسمة بالغة التنظيم والترتيب، هي أنه كثيرًا ما ينسى رسم الشمس في البداية. لا يتذكرها إلا بعد تلوين السماء بالأزرق، فيضيف دائرة صفراء. يختلط الأزرق بالأصفر، وينتج عن ذلك لون مائل للأخضر، فتبدو الشمس كما لو كانت مريضة وتوشك على التقيؤ، على العالم ذي الألوان الزاهية تحتها.



قرر "رامتشاند" أن كتاب الرسائل عديم الفائدة، إلا جزءًا واحدًا منه يتميز بالوضوح والسهولة. ولعله مفيد أيضًا؛ إذ يضم صفحة تلخص العبارات الافتتاحية في جميع أنواع الخطابات.. عارضًا تشكيلة متنوعة منها:

أجدني ملزمًا بـ..

كان كرمًا منك أن...

يؤسفني إبلاغكم بـ..

ردًّا على طلبك بشأن..

مرفق بالخطاب..

إنه لمن دواعي سروري/ أسفي، أن أبلغكم أن...

أودّ أن أشير إلى..

أحبّ العبارتين الأخيرتين بشكل خاصّ. تخيل نفسه ذاهبًا إلى "مهاجان" ليقول له العبارتين معًا:

"إنه لمن دواعي سروري/ أسفي إبلاغكم بأنك شخص مقيت، سمين، عبّاد للفلوس، خنزير، أناني. وأود أن أشير إلى أنني متأكد من أن زوجتك المسكينة هي أتعس وأشقى نساء الأرض..".

ثم يعقب ذلك بعبارات مناسبة من الإهانات.

كلما كانت الجمل التي يفكر في استخدامها جادة ورسمية، كلما أحبها "رامتشاند" أكثر. سيحاول أن يحفظها عن ظهر قلب. إذا فشل في ذلك، سيقوم بكتابتها وقراءتها بصوت مرتفع.

ولكن، فيما عدا هذه الصفحة، قرر "رامتشاند" أن كتاب الرسائل غير جيد. تفكر قليلًا بحكمة، وتوصل إلى أنه من غير المعقول أن ينبهر بأشياء لمجرد أنها بالإنجليزية. معظم الخطابات تبدو كأنها كتبت من قبل أشخاص كسالى، لا هموم لديهم من أي نوع. كبعض الزبونات اللاتي يترددن على المتجر. ليس لديه الرغبة في تعلم أي شيء عنهم وعن أمثالهم.. بأي لغة من اللغات.

في هذا المجال، يعرف ما فيه الكفاية!



في أحد الأيام، دخل "شيام" و"راجيش" الدكان معًا، كالعادة. لكن ابتساماتهما في ذلك اليوم كانت أكثر سعادة. بدا واضحًا أنهما عائدان من المعبد. ربما أدَّيا الصلاة هناك، أو قدّما القرابين. فقد وضعا خطًا من الـ"تيلاك" على جبينيهما.

حمل "شيام" في يده ثلاث علب متماثلة من الورق المقوّى، كتب عليها "بانسال للحلويات".

محل "بانسال للحلويات" بعيد جدًا. يقع في شارع "لورنس"، ويعدّ من أغلى أماكن بيع الحلوى في "آمريتسار".

توجها إلى "مهاجان" فور دخولهما، وناولاه علبتين وهما يهمسان بأشياء لم يتمكن الباقون من سماعها، وقد اتسعت ابتساماتهما. ظهر الحبور على "مهاجان" أيضًا. تزايد فضول "هاري" مع مرور كل ثانية، وعلق بدهشة بالغة:

- انظروا!! "مهاجان" يبتسم!!

قال "رامتشاند" و"جوكل" على الفور، بصوت واحد:

- اسكت!

أضاف "رامتشاند":

- أظن أنهما يحتفلان بمناسبة ما.

علق "جوكل" ساخرًا:

- ما كل هذه العبقرية؟! لم أكن لأخمن الأمر دون مساعدتك!

قال "هاري" وهو لا يزال يتابع الموقف، وقد أغرق في الضحك:

- ربما نزل الإله "براهما" إلى الأرض ليلة البارحة، ومنح "مهاجان" قلبًا بشريًا. وهو سبب وجيه لكل هذا السرور!

ابتسم "رامتشاند" عند سماعه هذا التعليق. لم يبدِ "تشاندر" اهتمامًا بما يجري حوله، وظل شاخصًا ببصره من النافذة التي يجلس بجوارها.

اقترب الرجلان من بقية البائعين. حلّ "شيام" الشريط المحيط بالعلبة الثالثة. قال وهو يقدم لهم محتوياتها من حلوى "البارفي" شهية المنظر:

- تفضلوا.. تفضلوا.

قال "جوكل":

- بشرنا بالأخبار السعيدة أولًا، وبعدها سنتناول الحلوى.

- ابنتي، التي تبلغ الثامنة عشر. ستصبح زوجة ابن "راجيش"، بمشيئة الرب، عما قريب.

أجابه "جوكل" بغضب مصطنع:

- ما كل هذا اللؤم؟! اتفقتما على كل شيء دون علمنا. وتخبراننا الآن فقط؟! لا بد أنكما لا تعتبراننا أصدقاءكما!

ضحك "راجيش" وألقى ذراعه بمودة حول كتفيّ "جوكل":

- أي اتفاقات يا صديقي؟! لم نقـم بـأي شيء أصـلًا. مجـرد صـلوات في المعبـد. لـسنا مثـل الناس الأغنياء، حفل تلو الآخر لأسبوع كامل قبل الزفـاف! كـل مـا هنالـك أننـا قررنـا أن يـتم الزواج العام المقبل. استشرنا المنجّم، وأبلغنا بأن التاريخ المناسب للعرس لن يكـون قبـل سـنة كاملة. وأنتم جميعًا أول المدعووين بالطبع. والآن. هلا تفضلتم بتناول الحلوى؟

عاجله "هاري" بالسؤال:

- لماذا أعطيتما "مهاجان" علبتين كاملتين من الحلوى؟

رمقه "جوكل" بنظرة مؤنبة، لكن "شيام" أجاب ببساطة:

- واحدة له، والأخرى ليرسلها إلى "بيمسن ست".

أومأ "هاري" برضا بعد أن أشبع فضوله، ووضع قطعة بارفي في فمه.

قال "راجيش" بحماس بالغ:

- لا يكتمل أي احتفال دون أكواب من الشاي وبضع حبات من الـساموسا. سـأتولى هـذه المسألة.

هللت المجموعة كلها بسعادة. ستكون وجبة خفيفة ممتازة، ولـن يعلّـق "مهاجـان" عـلى احتفالهم وتناولهم للطعام، فالزواج أمرٌ مقدّس على كل حال.

سرعـان مـا كـانوا يلتهمـون الطعـام باسـتمتاع بـالغ. غـادرهم "مهاجـان" بابتسامة مرحة. كانوا جميعًا يدركون أنه إن دخلت زبونـة في أي لحظـة الآن،

فإنه يتعين على واحد منهم أن يقوم فورًا لخدمتها. راحوا يتبادلون الضحكات والتهاني. وحده "تشاندر" ظل صامتًا ومتباعدًا.

بعد مدة، حين تم تنظيف المكان من الفتات، وجاء صبي الكشك ليستعيد أكواب الشاي الفارغة، وهدأت روح الاحتفال قليلًا، اقترب "هاري" من "جوكل" وسأله:

- ما سر حزن "تشاندر" الدائم؟

كانوا قد عادوا لأماكنهم المعتادة. "شيام" و"راجيش" و"تشاندر" في جانب من الدكان؛ و"رامتشاند" و"هاري" و"جوكل" في الجهة الأخرى المواجهة لهم. أضاف "هاري" متفكرًا:

- أعني أنه حين تتناول "البارفي" و"الساموسا"، بالإضافة إلى شاي جيد وساخن، في يوم شتوي شديد البرودة مثل هذا. ينبغي أن تبدو سعيدًا.

- ليس كل الناس خنازير مثلك! لا يسعدهم إلا الطعام!

- وما العيب في ذلك؟ الحياة قصيرة، من يدري ماذا سيحل بنا غدًا؟ ولذلك يتوجب علينا الاستمتاع بكل ما يسعدنا. الطعام والنوم ومشاهدة الأفلام واللهو والمرح. ثم ما الذي يريده "تشاندر" بالضبط؟ لديه وظيفة، أليس كذلك؟ ومال يكفي لطعامه، أليس كذلك؟ ما الذي ينقصه إذًا؟

- ما زلت صغيرًا يا "هاري"، لا تعرف شيئًا عن الحياة. "تشاندر" يعاني من مشكلات كثيرة في بيته. إن لم يكن للرجل حياة أسرية هادئة ومستقرة. فما جدوى الوظيفة وغيرها من الأمور؟

صمت "هاري" للحظات وهو مستغرق في التفكير، ثم قال:

- أنا أيضًا أعاني من مشكلات في حياتي الأسرية. أبي دائم التأنيب لي، وأمـي لا تتوقـف عـن تقريعي والتشاجر معي.

- لا تكن غبيًا يا "هاري". حين يؤنبك والدك فإنه يفعل ذلك لأنك مثلًا تصر على مـشاهدة فيلمين في السينما، بدلًا من الاكتفاء بواحد فقط كل أحد؛ وليس مـن اللائـق أن تتحـدث عـن والدتك بهذه الطريقة، وهي التي تعدّ لك طعامك، وتغسل ثيابك لتقابل الناس بمظهر نظيـف ومرتب.

أحسّ "رامتشاند" بشيء من الأسى وهو ينصت لعبارات "جوكل" الأخيرة لزميله.

واصل "جوكل" حديثه قائلًا:

- أيها الأحمق!! هـذه ليـست مـشكلات أسريـة. ألا تنـاكفني "لاكـشمي" يوميًـا؟ ألا يـبكي طفلي الصغير بصوت مرتفع طوال الليل دون أي سبب؟ لكن هذه الأمور تتكرر في كـل بيـت، وهي جزء طبيعي من الحياة العائلية. لكن "تشاندر" يعاني من مشكلات حقيقية.

سأله "هاري" بفضول واضح:

- أي مشكلات؟

أجابه "جوكل" بقدر من المراوغة:

- زوجته امرأة غير صالحة.

تذكر "رامتشاند" المرأة سليطة اللسان، التـي تبـين لـه لاحقًـا أنهـا زوجـة "تـشاندر". كـما تذكرها وهي متكومة في ذلك المنزل المتداعي.

تدخل في الحوار، سائلًا بحذر:

- ماذا تعني؟

قال "جوكل" على الفور:

- لا أقصد أنها على علاقة برجال آخرين. ليس الأمر كذلك على الإطلاق. كنا سنسمع شيئًا، ولا شك. ليس هناك رجال في حياتها، إلى هذه اللحظة على الأقل! ولكن، مع امرأة مثلهـا، مـن يدري؟ الحقيقة أنني لم أكن أرغب في الحديث عن هذه المسألة، ولكـن طالما أنكـما تـسألان، فسوف أخبركما.

سكت لبرهة، بطريقة درامية، ثم أضاف:

- إنها... تشرب!

شهق "هاري"، وقد أحس بصدمة عنيفة. شرب الخمور أمر معيـب وسـيىء في حـد ذاتـه. لكن أن يصدر ذلك الفعل الشائن من امرأة تحديدًا؟!

واصل "جوكل" حديثه:

- وهي لا تمتلك صفة واحدة من صفات سيدات العائلات المحترمة، فهي لا تستحم صباح كل يوم كما يفعلن، ولا تصلي، ولا تضع الـ"سيندور"[6] في مفرق شعرها. أي "سيندور"؟! إنها لا تمشط شعرها أصلًا! لا تفعل شيئًا سوى التسكع. وتلـك الكلـمات البذيئـة التـي ترددهـا!! يـا ساتر!! آه.. لا يمكنني أبدًا أن أعبر عن مدى إشفاقي عـلى "تـشاندر". فهـي لم تكـن عـلى هـذا الحال حين اقترن بها. أنا متـيقن مـن ذلـك. سـمعت هـذا الكـلام كثـيرًا مـن العديـدين ممـن

(6) السيندور: بودرة حمراء تضعها السيدة المتزوجة في مفرق شعرها.

يعرفونهما في تلك المنطقة. لقـد تغـيرت. يقـول الـبعض إنهـا مجنونـة. يقولـون إنهـا تعرضـت للإجهاض. أو أنها هي من أجهضت نفسها.. شيء من ذلك القبيل. ثـم أصـيبت بـالجنون بعـد ذلك. ولكن، هل يبرر فقدانها لجنينها هذه التصرفات؟ إنه أمر يتكرر كثيراً بين عـدد كبـير مـن السيدات. هل يتصرفن جميعًا بعدها على هذا النحـو العجيـب؟ سـينهار المجتمـع لـو فعلـن مثلها!

اكتست ملامح "هاري" بالجدية والرزانة.

استرسل "جوكل" في شرحه للوضع:

- وهذا ليس كل ما في الأمر. إنها تضعه في مآزق متوالية مع الجميع. تتعامل بوقاحة مـع الآخرين. تستوقف المـارة في الطريـق وهـي في حالـة ثمالـة لتتـشاجر معهـم وتـتهمهم بـأنهم مدينون لها بمبالغ مالية مختلفة. وحين تلمح كاهن معبد "هانومان" القريـب من بيتهـا، تبـدأ بالصياح وتناديه بالمنافق. وتمثل بأنها تمسك بحجر وبأنها توشك على رجمه به! كما لـو كانـت تخيف كلبًا مثلًا!! والآن قل لي، كيف لـ"تشاندر" أن يكون سعيدًا؟

تنهَّد بأسى، وأردف:

- على المرأة أن تدرك موقعها جيدًا. ربما تمـر بهـا مـصاعب مختلفـة، وتواجههـا مـشكلات عديدة. لكنها في كل الأحوال، ومهما كانـت الظـروف يجـب أن تفهـم بـأن واجبهـا الأول هـو العناية بزوجها ورعاية بيتهما، ثم لها أن تفكر بعد ذلك بنفسها وشؤونها.

أصغى "هاري" لحديث زميله باهتمام بالغ. أنصت "رامتشاند" في صمت، وهو يتذكر آثار الكفوف الحمراء على وجه زوجة "تشاندر"..

واصل "جوكل" سرده:

- بعض الناس يؤكدون أنها لا تعاني من الجنون، وأن كل ما في الأمر هو أنها امرأة شريـرة، سيئة الطباع. شيطان في صورة امرأة. النسوة في منطقتهم يحاولن إبعاد صغارهن عـن عينيهـا الحاسدتين، وبخاصة الأطفال الرضع. يكفي أنها لا تصلي. كما أنهـا دائمـة العبـوس. ولا تبتـسم أبدًا.

سأله "رامتشاند" بصوت يقترب من الهمس:

- ولم لا تبتسم؟

قال "جوكل" بامتعاض:

- تردد دائمًا بأن "جوكل" لا يعطيها أي نقود، وأن البيت يخلو من الطعام.

أضاف منتقدًا:

- كان بإمكانها أن تحسن ظروفهـا بالعمـل في البيـوت، كمنظفـة أو طاهيـة، ولكـن ذلـك مستحيل بالطبع. فأي عائلة محترمة تقبل بـأن توظـف لـديها امـرأة سـليطة اللـسان وبذيئـة الألفاظ مثلها؟

"لكل عملة وجهان".

خطرت العبارة في ذهن "رامتشاند" فجأة.

فكر بكآبة: "أكثر من وجهين ربما".



سيظلّ الناس يتذكرون حفل زفاف "رينا كابور"، في جميع أنحاء "آمريتسار"، باعتباره مهرجانًا ضخمًا. ولن ينسوا إطلاقًا أنه الحفل الذي قُدّم فيه أربعون صنفًا من الحلويات المختلفة.

قبل الحفل، تحدّث الناس عنه في كل مكان، حتى بدأ "رامتشاند" يشعر بفضول قاتل.

حين ذهب "مهاجان" إلى منزل "كابور" لينهي معهم حسابات الفواتير، أعطوه بطاقة دعوة. عند عودته للدكان، أخرجها ليريها لـ"شيام" و"راجيش"، وقال بطريقة اجتهد أن تبدو غير مبالية:

- دعوة زفاف ابنة "كابور".

أظهر "شيام" و"راجيش" انبهارهما وهما يتفحصان البطاقة باهظة الثمن، بدقّة. وبعد استئذان "مهاجان"، تمّ عرضها على البقية. علَّق "جوكل":

- هل لكم أن تخمّنوا سعرها؟ انظروا فقط لهذا الـورق اللامـع المـصقول! إنـه كـصفحات المجلات الأجنبية.

حين تناولها "رامتشاند"، وتحسسها بأصابعه، أحـسّ هـو أيـضًا بالانبهـار. لا لكونهـا غاليـة المظهر فقط، وإنما لجمالها الفائق. ورق سميك، فضيّ، كُتِب عليه بلون أزرق مبهج "أوم". حين فتحها، وجد الـدعوة مطبوعـة باللغـة الإنجليزيـة، ترجـو النـاس أن يـشرّفوا المناسـبة المباركـة بحضورهم. مرّر أصابعه على الحروف، وقد تملّكته السعادة لقدرته على قراءة جميع الكلمات المكتوبة. انتبه للتاريخ والوقت والمكان.

قال "هاري" بحماس:

- كل الأشخاص المهمين سيكونون هناك، بلا شكّ.

أضاف موجهًا حديثه لـ"مهاجان":

- هل ستذهب يا سيّدي؟

هزّ رأسه بأسى وقال:

- كلّا. لن أستطيع. ابن أخي سيتزوج اليوم نفسه. إنه تاريخ ميمون كما يبدو، فهناك أكثر من عرس في ذلك التاريخ. ولما كان شقيقي متوفًّى، كما تعلمـون، فإنـه يتوجـب عـليّ أن أكـون موجودًا في زفاف ابنه.

أبدى الجميع تعاطفهم وتفهمهم. بإيماءات وهمهمات خافتة. وقال "هاري" بذكاء:

- أنت قدّيس يا سيدي والـلـه. دائمًا تلتزم بواجباتك فقط، وتهمل التفكير في الأمـور التـي تسعدك.

انفرجت أسارير "مهاجان" وهو يهبط السُلَّم، لهذا الإطراء.

لكز "هاري" جاره "جوكل" بكوعه وهو يغمز بعينه، وضحك الجميع بصوت خافت.



يوم حفل "رينا كابور"، ظلّ "رامتشاند" منشغل البال، يفكـر فيـه منـذ الـصباح. لم يحـضر "مهاجان" للدكّان بسبب عرس ابن أخيه. قال "هاري" بغيظ:

- لا شكّ أنه الآن يملأ بطنه السمين بأطايب الطعام والحلوى، بينما نعمـل نحـن المـساكين الجوعى في هذا المكان الشبيه بالقبر.

و لما كان لم يتوقف عن الأكل طوال النهار، إذ ظـل يتنـاول البطـاطس المقليـة مـن كـيس ورقي بجواره، ولم يقم بأيّ عمل إطلاقًا، فإن أحدًا لم يعره أيّ انتباه، عدا "جوكل" الذي قال له موبخًا إنه يتوجب على كـل شـخص احـترام مهنتـه ومكـان عملـه، وإن تـشبيه مكـان رزقهـم بالقبور أمر مشؤوم وجالب للنحس. فهمـس "هـاري" بـصوت غـير مـسموع بـبعض الـسباب البذيء للدكان ولـ"مهاجان" ولمصّاص الدماء "بيمسن ستّ"! ثم خرج ليشتري بعض المكسرات الساخنة. انتقد "جوكل" أسلوبه وتصرفاته، بحكم العادة لا أكثر.

ظلّ "رامتشاند" يفكر في حفل عائلة "كابور"، ولم يسمع معظم ما قاله "جوكل".

مساءً، تلقّى "رامتشاند" مفاجأة سارّة؛ فـ"جوكل" الـذي ظـل يـشتكي مـن صـداع مـؤلم في رأسه طوال النهار، بدأ يشعر ببوادر حمى. قال له:

- "رامتشاند"، هل بإمكاني أن أطلب منك معروفًا؟

- اطلب ما شئت يا أخي "جوكل".

- هل يمكنـك أن تأخـذ دراجتـي لمسكنك الليلـة، وتعيـدها إليّ في الغـد؟ أحـضرها معـك للدكان صباحًا. الصداع يزيد، وأشعر بارتفاع في درجة الحرارة. لا أظن أنني سأسـتطيع قيادتهـا وأنا متعب هكذا. ربما كان الصداع بسبب "هاري" وثرثرته التافهة!

ابتسم "رامتشاند" لعلمه بأن "جوكل" يحبّ الفتى ووقاحته، مهما داوم على تأنيبه.

دلّك "جوكل" جبينه بأطراف أصابعه وقال:

- أظن أنني سأركب "توك توك" وأعود للبيت. هل يضايقك أن تأخذ دراجتي؟

تدخّل "هاري" في الحوار:

- سآخذها أنا يا أخي "جوكل". لا تقلق بشأن شيء بتاتًا.

تحدّث بجدّية غير معتادة، وبدا كما لو كان مقدمًا على تضحية عظيمة، يقوم بها - فقـط - إكرامًا لصديق عزيز.

قال "جوكل":

- الأمر مرفوض تمامًا يا "هـاري" ولـن نناقـشه أصـلًا. سـتحطم دراجتـي طبعًـا. وأنـت يـا "رامتشاند". ما رأيك؟ هل ستأخذها؟

وافق "رامتشاند" على الفور. بعد لحظات، غادر "جوكل" الدكان. ركب "توك توك" وتوجه لمنزله وهو يئن ويتألم. أحسّ "هاري" بإحباط شديد، لأنه كان يمني نفسه بأخذ الدراجة، وقيادتها إلى كشك الآيس كريم البعيد، ليتناول بعضًا منه ممزوجًا بحبّات اللوز والفستق.

حين أنهى "رامتشاند" عمله، وقف أمام الدكّان متأملًا الدرّاجة، ومقبضيها اللامعين. أدرك في تلك اللحظة فقط أنه يجب عليه أن يذهب إلى منزل "كابور" لإلقاء نظرة سريعة. مجرد نظرة سريعة. لا أكثر.

الإغراء أكبر من أن يقاوَم.

اعتلى الدراجة، وتوجه إلى "جرين آفنيو" حيث يقع منزل "كابور".

غربت الشمس، وبدأ أصحاب المتاجر في إغلاقها، وإنزال الواجهات الحديدية أمام أبوابها، والعودة إلى بيوتهم. تأمّل "رامتشاند" منظر الغروب بافتتان. الوقت قبيل الظلام، وقد امتدّ في السماء خيال ذهبي من بقايا النهار. أعمدة الإنارة مضاءة. علّق أصحاب عربات الخضراوات والفاكهة مصابيح زيتية أعلى العربات. لمعت أكوام الطماطم والباذنجان والفلفل الرومي تحت الأضواء بشكل جذّاب. وقفت ربّات البيوت وبعض الكهول أمامها، يفاصلون ويشترون ويعبّئون أكياسهم، وهم مدركون أن الشراء في هذا الوقت من اليوم يمكن أن يتمّ بأثمان بخسة.

واصل "رامتشاند" دربه على الدراجة، وقد استبدّت به أحاسيس التشوّق والإثارة.



وصل إلى "جرين آفنيو"، ودلف إلى الشارع الذي يقع فيه المنزل. توقف فجأة، في حالة من الذهول البالغ. على مدخل الشارع، تمّ نصب بوّابة حديدية

بالغة الضخامة مغطاة بالورود والأزهار: أقحوان، ورد جوري، ياسمين، أوراق خضراء زاهية. اختفى الحديد تمامًا تحت حبال الورود الملفوفة حوله. فاح شذى الأقحوان في المكان بأكمله، حاملًا معه شيئًا من الذكريات البعيدة. للحظة، عاد "رامتشاند" إلى طفولته التي يتذكّرها بالكاد. لاح له وجه مبتسم، تعلو جبينه دائرة حمراء. وأنف مستقيم تزيّنه ورقة شجرة ذهبية. زهور صفراء يحملها بيدين صغيرتين، وتتسلل رائحتها إلى أنفه. أجراس نحاسية كبيرة، يتردد رنينها في صباحات أيام الإثنين السعيدة.

وقف أمام بوابة الأزهار وكأنه في حلم. سما عقله إلى حالة من النشوة والسعادة.

أفاق أخيرًا، فواصل السير بالدراجة وهو ينظر إلى المصابيح الصغيرة، دقيقة الحجم، التي زيّنت بها حوائط وأشجار الحيّ، وهي تهتزّ على أسلاكها الرفيعة، كلّما هبّت نسمة لطيفة.

وللحظة، أحسّ أن هذا هو الواقع. هذه هي الحقيقة. أما المدينة الخانقة، القذرة، المزدحمة، والحارات، والأزقة. فغير موجودة إلا في خياله المريض.

وصل أمام البيت. وجده يشعّ بالأنوار والمصابيح، بطريقة مبهرة للغاية. الورود تزيّن أرجاء المكان. في الحديقة الشاسعة المواجهة للمنزل، تمّ نصب أعمدة طويلة مُدّت بينها أقمشة حمراء وبيضاء، فبدت كخيام مفتوحة. انتشرت أعداد كبيرة من الناس المتأنقين في المكان. يتنقلون بخفّة - كما لو كانوا يطيرون - بين المنزل والخيام الرحبة. تأمل "رامتشاند" ثيابهم الجميلة.

السيارات الطويلة اللامعة تملأ الطريق، رغم أن الوقت لا يزال مبكرًا.

نزل عن الدراجة، وجرّها بجانبه متمهلًا، وهو غارق في بحر من البهجة لم يعرفه قبلًا.

فجأةً.. أوقفه أحدهم.

- هيه! من أنت؟

استفاق "رامتشاند" من حلمه السعيد على صوت حارس الأمن. نظر له باستياء، وقد أدرك أنه لو كان يرتدي ثيابًا فخمة وأنيقة، لما تجرأ على إيقافه أو سؤاله. ثم لاحظ أن الرجل يضع سلاحًا ما في جراب بحزامه فتلجلج.

- أنا.. في الحقيقة يعني..

ظهرت بضع قطرات من العرق على جبينه. وقف الرجل منتظرًا. ثم جاء حارس آخر ووقف بجانبهما. نظر "رامتشاند" حوله بوجل، حاول أن يفكر في شيء يقوله، لكن ما صدر عنه كان مجرد كلمات قليلة قالها وهو يتلعثم.

- انظروا.. الأمر.. الآنسة "رينا"..

قال الحارس الثاني لزميله:

- الأفضل أن نصطحبه للآنسة "رينا"، وإلا غضبت منّا إن تصرّفنا من تلقاء أنفسنا.

وهكذا رافقه الحارسان إلى داخل المنزل، بسرعة عظيمة. بدأ يتصبّب عرقًا. ما الذي سيحدث الآن؟



وقفت "رينا" أمام المرآة الطويلة في غرفتها، يملؤها الإحساس بالرضا التامّ.

لم تكن متحمسة لأيّ من خبيرات التجميل الموجودات في "آمريتسار"، وخشيت أن يقمن بتزيينها في ليلة زفافها بطريقة فجّة. وفي النهاية استقر رأيها على الاستعانة بـ"دوللي". إحدى أشهر خبيرات التجميل في "دلهي"، التي قامت بالإشراف على ملابس "رينا" وزينتها وتسريحة شعرها. كانت قد أمضت أكثر من خمس ساعات في عمل متواصل مع "رينا"، وتركتها للتوّ لاستراحة قصيرة، تعود بعدها لوضع لمساتها على "تينا".

قالت "رينا":

- الحمد لله!

وجّهت كلامها لشقيقتها التي جلست على السرير مرتدية تنورة خضراء فاتحة، مليئة بنقوش مطرزة. أضافت:

- لم أكن أرغب في أن أجعل أيّ من خبيرات التجميل هنا تقوم بتزييني. تخيّلي كيف كنت سأظهر في صور زفافي! خدود حمراء لامعة. وشفتان مصبوغتان بلون فاقع، وظلال جفون برّاقة! وطبعًا إصرار أمثالهن العجيب على أن تضع العروس الكثير من الذهب، وأن تلبس ثلاث سلاسل على الأقل حول رقبتها!

وافقتها "تينا":

- كلهن غبيات ولا يعرفن شيئًا عن الأناقة الراقية.

بدت "رينا" مختلفة بالفعل عن معظم العرائس. لم يكن طقـم التنـورة والبلـوزة القـصيرة الذي ترتديه من دكّان "سـيفاك بيـت الـساري"، وإنمـا أحـد إبـداعات مـصمم أزيـاء شـهير في "مومباي"، صممه لها بصفة شخصية وحصرية. اختار لـه اللـون الأحمـر الـداكن، وجمـع فيـه بأناقة بين قطع من أقمشة الحرير والشَبَك والـ"بروكاد" المطرّز بخيوط من الـذهب الخـالص، ووزّع على البلوزة قطعًا من العاج الأصلي. وبدلًا من السلاسل الذهبية المتعددة التـي تـضعها العرائس عادة، اكتفت "رينا" بسلسلة واحدة مطعمة بالماس واليـاقوت، ارتـدت معهـا قـرطين من الأحجار نفسها، ووضعت على جبينها حلية مماثلة، أضاءت وجهها.

قبل العـرس بيـومين، حـضرت امـرأة راجـستانية لتـضع لهـا الحنّـة، بنقـوش مـن الزهـور والطواويس وأوراق الشجر، وغيرها من الزخارف التي تعلمتها وتوارثتها عن جدّاتها.

اليوم، بدت الحنة التي تغطي يديها وقدميها الصغيرتين وكاحليها الرقيقين، آية في الجـمال والدقة.

وضعت لها "دوللي" مساحيق هادئة غير لامعة عـلى وجهها، وجمعـت شـعرها في عقـدة بسيطة تتواءم مع الوشاح الذي ستثبّته على رأسها.

راحت "رينا" تتأمل صورتها المنعكسة على سطح المرآة. أعجبها ما رأت.

كان أحدهم يدقّ الباب. فتحته "تينا". وجـدت خادمـة في رداء وردي فـاقع، تـضع بعـض الياسمين في شعرها:

- هناك شخص في الدور السفلي يقول إن الآنسة "رينـا" قـد وجّهـت لـه الـدعوة لحـضور الحفل. والحرّاس يستأذنون في أن يتأكدوا من ذلك من الآنسة شخصيًا.

قالت "رينا" وعيناها لا تفارقان المرآة:

- فلينتظروني في قاعة الاستقبال. سأنزل لهم بعد قليل.

فكرت الخادمة بأنها لم ترَ في حياتها عروسًا تتصرّف بهذه الطريقة أبدًا. لكنها لا تجرؤ على قول ذلك. فالآنسة حادّة الطباع. ولو سمعتها تنطق بشيء من هـذا القبيـل فلـن تـتردد في أن توجّه لها كلمات قاسية وباردة لا تخلو من التهكم والسخرية بشكل مهين.

فـالعروس عـادةً تجلـس في حجرتهـا، لا تبارحهـا، وحولهـا صـديقاتها وقريباتهـا وكلهـن لا يتوقفن عن الضحك والمزاح، وتظل سيدات العائلة يعـدن ترتيـب غطـاء رأسـها ومجوهراتهـا، وهن يهمسن في أذنها بسيل من النصائح.

لكن لا شيء من ذلك طبعًا في عرس "رينا كابور"! لأنها ترى نفسها بنتًـا عـصرية ومتفتحـة كما تقول دائمًا! وأصرت على ألا يوجـد معهـا سـوى شـقيقتها وتلـك الــ"دولـلي" التـي جـاءت بالطيارة. بشعرها القصير! وأمرت كل الخـدم والحـراس أن يلجـأوا إليهـا إن احتـاجوا إلى شيء، بدلًا من إزعاج والدتها التي ستكون مشغولة باستقبال الضيوف المهمين.

أومأت الخادمة، ونزلت إلى الطابق الأرضي.

بعد نحو خمس دقائق أمضتها "رينا" أمام المرآة، ذهبـت لقاعـة الاسـتقبال، حيـث وقـف "رامتشاند" مرتعدًا بين الحارسـين. احمـرّت أذنـاه وشـعر بخـزي حـين رآهـا. راقبتـه الخادمـة بفضول واستمتاع وهي تقضم أظافرها. سرى عبير الياسمين في القاعة.

قالت "رينا"، وهي تعي مدى فتنتها:

- نعم؟

قال أحد الحارسين وهو يقبض على كوع "رامتشاند" بقوّة:

- كان يتسكع في الخارج. يقول إن سيادتك قد وجهت له الدعوة للحضور.

قال "رامتشاند" وهو مرتعب:

- أنا بيّاع "السواري".

نظرت إليه دون فهم للحظة، لأنها لم تتعرف عليه في بادئ الأمر. لكنها حين أدركت الموقف، بدأت تبتسم. ثم اتسعت ابتسامتها كما لو أنها تتسلى بأداء لعبة صغيرة.

سألته وهي لا تزال مبتسمة:

- وأنا دعوتك، أليس كذلك؟

أطرق دون أن يجيب. فاجأته حين التفتت إلى الرجلين الواقفين على جانبيه وقالت:

- نعم، لقد دعوته ليحضر عرسي بالفعل.

عند ذلك، تركاه واقفًا هناك، وانصرفا بهدوء.

حملق في العروس المزينة بطريقة أخّاذة، بانبهار شديد. ضحكت بهدوء، وغادرت القاعة إلى الطابق العلوي. سمع حفيف تنورتها وهي تصعد الدرج الرخامي كملكة.



وهكذا انتهى الأمر باستمتاع "رامتشاند" بحفل زفاف "رينا كابور" لأقصى درجة. لم يتحدث لأيّ شخص. سار في المكان، متأملًا كل شيء، وهو يرتشف مشروبًا مثلجًا أخضر اللون، لا يعرف اسمه. تناول بعض قطع الـ"باكورا" المحشية بالجبن، التي كان يوزعها بعض الندل بملابسهم الأنيقة ذات اللونين الأبيض والأسود. كما تناول العديد من الأطعمة ذات الشكل الجميل الدقيق، ولم يعرف اسمها أيضًا؛ لكنه لاحظ أنه تمّ غرس أعواد تنظيف الأسنان في كل قطعة منها.

حين وصل موكب العريس، وقف وراء جموع المرحبين والمهنئين، وهو يمدّ عنقه ليرى العريس راكبًا الحصان، حاملًا فوق رأسه مظلة حريرية. تقدّم الموكب بعض الأقارب وهم يرقصون بحركات سريعة.

لوقت طويل، ظل الأقارب يرقصون ويرحبون ببعضهم ويتبادلون الهدايا. راقب "رامتشاند" كل ذلك بلا كلل.

ثم دخل أفراد الموكب الخيام المفتوحة، ليتناولوا عشاءهم. سمع "رامتشاند" شخصًا يقول إن الطقوس الرئيسية سوف تقام في وقت متأخر جدًا من الليل، وأنها مخصصة للأهل والأصدقاء المقرّبين فقط.

حين سمع ذلك، قرر أن يتناول عشاءه الآن مع الضيوف، ويغادر بعدها على الفور.

دخل الخيام الحمراء والبيضاء المزدانة بكميات هائلة من الورد. المزيد من المُتع كانت بانتظاره هناك.

وقف الخدم على مداخلها، يرشّون أيدي الضيوف بماء الورد. بدا المكان كقاعة احتفال كبيرة. لمعت الثريات وألقت بأضوائها على المكان. لم يستوعب عقل "رامتشاند" ذلك. ثريات في خيمة؟!!

رفضت "رينا" فكرة الجلوس على مقاعد حمراء ضخمة، كما جرت العادة، وفضّلت أن تستعيض عنها بأرجوحة خشبية كبيرة، من الطراز القديم، طلبت تزيينها بأقمشة حريرية، وأضافت للديكور نافورة صغيرة.

العشاء في تلك الليلة كان عظيمًا وفاخرًا بحقّ، رغم خلوّه من اللحوم والنبيذ؛ فالعائلة نباتية ولا يشرب أفرادها أيّ نوع من الخمور.

قُدّم الطعام على طاولات طويلة مغطاة بمفارش بيضاء منشّاة، في أطباق من المعدن المحفور بالزخارف الدقيقة. وتحت كل طبق منها شمعة صغيرة لحفظ الطعام دافئًا.

أحسّ "رامتشاند" بالدهشة. كيف فكروا في أمر عجيب كهذا؟

الصحون الخزفية التي وزّعت على الضيوف، كانت دافئة وجافّة وتلمع من شدّة النظافة، ومع كل منها منديل ورقي أبيض، بحواف منقوشة من زهور زرقاء. تساءل "رامتشاند" عمّا يفعله الناس بهذه المناديل المطوية الجميلة. قرر أن ينتظر ليرى كيف يتصرّف بقية المدعووين. أحس بالرعب من فخامة المائدة، فلم يتذوق كل شيء كما اشتهى. ملأ صحنه بأرز ذي رائحة شهية، وأضاف له عددًا من الأشياء الأخرى التي لا يعرفها.

تفاجأ لرؤية العديد من السيدات اللاتي يترددن على الدكان. رأى مسز "جوبتا" بالساري الأخضر الذي اشترته منذ بضعة أشهر، وهي تقدّم للجميع عروس ابنها، المغطاة بكميات كبيرة من المجوهرات البرّاقة، والتي لا تفارق شفتيها ابتسامة ثابتة. كما رأى مسز "ساندو" مرتدية ثوبًا قصيرًا وسروالًا تتحدث مع امرأة بدا أنها سيخية مثلها أيضًا، سمعها "رامتشاند" تقول لرفيقتها بصوت يمتلئ بالقلق:

- الكتب ضخمة جدًا، والمناهج طويلة ومعقدة. لقد بدأت الهالات السوداء تحيط بعينيّ "مانو". أرجو أن ينجح في الاختبارات القادمة بتفوق. فتلك هي الخطوة الأولى والرئيسية في تأسيس مستقبله. وبعد أن يتخرج، سيرتاح ويعيش حياة رغدة بقية عمره.

كما لمح مسز "ساتشديفا" ضمن المدعوين، مرتدية "ساري" "بيج"، يتذكر جيدًا شراءها له. ولن ينسى أبدًا تفاصيل ذلك اليوم المريع. كانت تتبادل الحديث مع رجل طويل أصلع، خمّن – بطريقة ما – أنه ليس من "آمريتسار"، وفكر بأنه أستاذ زائر على الأرجح. كما شاهد مسز "بنداري" بصحبة زوجها الوسيم، ترتدي ذلك "الساري" من "البروكاد" الأزرق المائل للأخضر، الذي ساومت في ثمنه حتى أصيب "مهاجان" العنيد نفسه بالصداع، واضطر للانصياع إلى رغبتها في تخفيض السعر.

حملق "رامتشاند" في الجميع، مندهشًا لرؤية كل تلك الوجوه المألوفة، وجميع تلك الأقمشة التي يعرفها جيدًا، في مكان غير الدكان.

اكتشف أن الدكان، عالمه الوحيد، حيث تبدأ كل الأمور وتنتهي بالنسبة له. ليس بالنسبة لهن سوى نقطة انطلاق. ففي حين ينتهي دوره عند عرض الأقمشة عليهن، كن هن يشترينها ويلبسنها، وينطلقن لممارسة حيواتهن.

تلفّت حوله. "هاري" محقّ. كل أفراد الطبقة الراقية في "آمريتسار" متواجدين في الحفل. تذكر "رامتشاند" فجأة حذاءه الأجرب ورائحة قدميه النفّاذة وقميصه المخطّط، وشعره غير الممشط. بدأ يأكل بسرعة أكبر. خشي أن يتعرف عليه أحد الحاضرين ويخبر "مهاجان" عن ذلك. ارتعد خوفًا لمجرّد التفكير في ذلك.

عند انتهاء العشاء، أحس بصدمة حين وجد الناس يمسحون أصابعهم المتسخة في المناديل الورقية الجميلة، ثم يكوّرونها ويرمونها دون أدنى اهتمام بزخارفها البديعة. هؤلاء الناس!! لا يملكون أيّ منطق فعلًا! ربما كان هذا هو التصرف السليم فعلًا. ولكن ألا يرون كم هي خفيفة ورقيقة وناعمة؟ وتلك الأزهار الزرقاء. ألم يلاحظوا كم هي صغيرة؟

وضع المنديل في جيبه بحرص.

أخيرًا، تمّ تقديم الأربعين صنفًا من الحلوى.

ران الصمت على جميع الحضور، بعد رفع صحون العشاء ووضع أطباق الحلوى الكثيرة مكانها.

تذوق "رامتشاند" ثلاثةً منها، وحين أحسّ بالشبع التامّ، وبالإثارة، وبشيء من الاضطراب أيضًا. ركب الدراجة عائدًا إلى مسكنه.



بعد ثلاثة أيام من حفل الزفاف، تعرّض "رامتشاند" لأضخم مفاجأة في حياته.

كان ذلك الصباح في الدكان هادئًا. جلس يتبادل الحديث مع "هاري" الذي شاهد فيلم "غدر" للمرة الثانية، فراح يقص عليه الأحداث مشهدًا مشهد. استغرق "رامتشاند" في سماع تفاصيل الحكاية.

خلال ذلك، دخلت "رينا كابور" بمفردها.

أحسّ "رامتشاند" بذهول كبير. فخروج العرائس الجدد بمفردهن أمرٌ غير مألوف، إذ يتوجب عليهن حضور العديد من المناسبات المختلفة في تلك الفترة. عليهن

تلبية دعوات الغـداء والعـشاء في بيـوت المعـارف، والمـشاركة في جلـسات الـصلوات الخاصـة. والأغرب هو ثيابها البسيطة، طقـم مـن ثـوب قـصير وسروال بـاللون الأصـفر، دون نقـوش أو تطريز. كما أنها تخلت عن المجوهرات الكثيرة والحلي الذهبية التـي تميـز العـرائس، واكتفـت ببضع ماسات محدودة. فغر "رامتشاند" فمه حين رآها. راقب عينيها اليقظتـين وهـما تلقيـان سهامهما الحادة في أرجاء المتجر. توقفتا حين لمحتاه. أقبلت نحوه دون تـردد. أحـس بالرعـب للحظة. لقد التزمت الصمت خلال حفل زفافها، لكنها ربما قررت أن تشكوه لمـديره الآن، لأنـه تجرأ على الذهاب لمنزلها والمشاركة في حفلهـا دون دعـوة. سـوف تـصمم عـلى أن يطـرد مـن وظيفته فورًا عقابًا له.

بدأ يتصبب عرقًا. وقفت أمامه بصمت تام، وسددت نظراتها إلى وجهه.

حيّاها وهو يتلعثم. نظرت إليه بشيء من المرح، كما في آخر مرة رأته فيها.

سألها بوَجل:

- "سواري" يا سيدتي؟

ابتسمت بغموض هذه المرة:

- لا بأس. أرني بعضًا منها.

قالت ذلك بنوع من الاستسلام.

فجأة، ظهر "مهاجان" على قمّة السُلَّم. أقبل نحوها في لهفة:

- سيدتي! لقد رأيت سيارتك وسائقك أمام الدكَّان. تفضلي بالجلوس. لماذا حضرتِ بنفسك؟ كان بإمكانك أن تتصلي بي، لأرسل لك على الفور كل ما تريدين.

التفت إلى "هاري" صائحًا:

- هيه! أنت يا ولد! أحضر للسيدة زجاجة كوكا كولا، مع شفّاطة. لا تنسَ أن تجلب كأسًا نظيفة أيضًا.

قال مخاطبًا "رينا كابور":

- تفضلي أرجوكِ. سأعرض عليك بنفسي كل ما تريدين.

رفعت يدًا متعجرفة. أوقفت تلك الحركة جميع الكلمات المتدافعة من فمه. نظر إليها بإجلال وقد علا وجهه تساؤل حائر. أشارت بإصبعها تجاه "رامتشاند":

- ما اسمه؟

قال على الفور:

- "رامتشاند" يا سيدتي.

- دعه هو يقوم بخدمتي.

أضافت ببعض الحدّة:

- بهدوء ودون إزعاج.

فهم "مهاجان" التلميح فغادر مسرعًا، وقد انعكست على ملامحه الحيرة، التي امتدت إلى "رامتشاند" أيضًا. لقد جاءت بمفردها، بعد ثلاثة أيام فقط من العرس. لا أحد يشتري المزيد من الثياب بعد هذه المدة بالغة القِصَر. ظلت تنظر إليه دون أن تفارقها الابتسامة. كأنها تعرف عنه سرًّا لا يعرفه هو شخصيًا.

استدار ليحضر لها مجموعة من "السواري"، من الرف الواقع خلفه. تذكر أنه لم يسألها عن النوع الذي ترغب به. التفت ليسألها عن ذلك. ألقت برأسها إلى الوراء وأطلقت ضحكة عميقة، قالت بعدها:

- حرير.

أخرج عددًا من المنسوجات الحريرية وأخذ يعرضهم عليها. ألقت عليها نظرات خاطفة، دون اهتمام. لكنها استفسرت عن مكان سكنه وراتبه الشهري، وأرادت أن تعرف أيضًا إن كان متزوجًا أم لا. أجابها بمنتهى التهذيب. ثم بدأت تسأله عن أشياء أخرى. رأيه في موضوعات مختلفة، وذوقه في الأشياء، وتحدثت معه حول مشاعره وعواطفه.

سرعان ما بدأ يشعر بعدم الارتياح، فلأول مرة تسأله امرأة عن أمور شخصية كهذه. أربكه الموقف تمامًا، وبخاصة أنها امرأة غير عادية. احمرَّ وجهه وتصرّف بشكل غير معتاد. بدأ يثرثر. قال أشياء لم يكن يعنيها، وترك بعض العبارات معلّقة وناقصة. على أمل أن تفهم بنفسها ما يعنيه.

لم تفارق النظرة المرحة عينيها.

جاء "هاري" بصينية عليها كأس نظيف، مملوء بـ"الكوكاكولا"، وقد وضع به شفّاطة. تناولته ووضعته بجانبها على الأرض، دون أن تتناول منه رشفة واحدة. بدت مستغرقة في الإنصات لكل كلمة يتفوّه بها. فاقم هذا من إحساسه بالانزعاج، لأنه يدرك جيدًا أن كل ما يقوله تافه وسخيف.

في النهاية، شكرته بلطف، وتناولت عشوائيًا "ساري" يجمع بين اللونين الأزرق والأسود. ابتسمت له، مرة أخرى، بودّ ومرح. دفعت ثمن الساري، ثم ركبت سيارتها الرمادية اللامعة.

عقب مغادرتها، صعد "مهاجان" إلى الطابق العلوي. اعتقد "رامتشاند" أنه سيكون غاضبًا لأن "رينا" طردته ببرود. لكن ابتسامته الكبيرة أكدت عكس ذلك. قال بانشراح:

- ممتاز يا ولد. ممتاز. لا بدّ أنك تركت لديهم انطباعًا طيبًا حين ترددت عليهم في منزلهم. هذه هي طريقة الحفاظ على الزبائن. عظيم. عظيم.

لمح كأس "الكولا" المثلّجة. أشار لها وسأل "رامتشاند":

- ألم تشرب السيدة؟

أجابه:

- كلّا. لم تتناول رشفة واحدة.

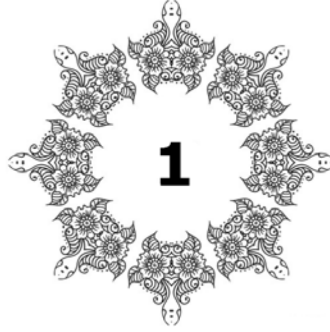
قال بسعادة:

- إذًا. اشربها أنت، مكافأة لك.

بعد أن هبط "مهاجان" السُلَّم، نظر "رامتشاند" حوله. لم يكن أحد ينظر إليه. رفع الكأس التي كانت قد حملتها بيدها البيضاء الجميلة. وضع شفتيه على الشفاطة، وامتصّ المشروب كلّه، وقد احمرَّ وجهه تمامًا.

الجزء الثاني





جاء الربيع، وذهب بسرعة، كما يفعل عادةً.

غابت النسائم المنعشة المعطرة بشذى الزهور، وحلّ محلها هواء شهر مايو الجافّ والساخن والممتلئ بالغبار. خبّأ الأولاد طائراتهم الورقية، لأن أسطح بيوتهم التي وقفوا عليها طوال الربيع، ليطلقوا منها طائراتهم الملوّنة، صارت حارّة ومشبّعة بشمس الصيف.

أصبح الهواء في الأسواق معبّقًا برائحة المانجو الناضجة، التي تدير الرؤوس. أما الثمار غير الناضجة، فقد هرعت ربّات البيوت إلى تخليلها. وسرعان ما لاحت البرطمانات الزجاجية الكبيرة، وقد امتلأت بقطع المانجو الخضراء، على أسطح البيوت وشرفاتها المشمسة.

استطالت ساعات النهار، وضاقت نفوس الناس، وغدت أعصابهم مشدودة ومتوترة. اشتاق الجميع للمطر، لكن السماء الصافية خلت من أيّ غيمة. تبخرت مياه الصرف الصحي، مخلّفة قاذورات عطنة الرائحة. كما جفّت البرك القليلة المحيطة بـ"آمريتسار". دفنت الجواميس أجسادها السوداء الساخنة في الطين البارد، مظهرةً أعينها فقط.

امتلأت الطرقات بالأتربة، وحملت وجوه المشاة وراكبي الدرّاجات ملامح التعب والإرهاق. تنقطع الكهرباء بصفة يومية. وفي جميع أنحاء "آمريتسار" بات الناس متعبين وسريعي الغضب، أو كسالى ومنعزلين.

الأمهات يصحن في وجوه صغارهن المزعجين. الحموات يتشاجرن مع الكنّات الشابّات. صغار العاملين والموظفين يتلقون صرخات وتأنيب رؤسائهم دون ذنب ارتكبوه.

حين ينقطع التيار الكهربائي، تلجأ العائلات للنوم في الشرفات المظلمة. ترفرف ذكرياتهم المشتركة فوق رؤوسهم، مع أسراب البعوض.

تجلس العجائز على سررهن الخفيفة، وهن يحركن الهواء الراكد بمراوح يدوية من الخيش، وقد أمسكن باليد الأخرى، التي بللها العرق، مسابح الصلاة. يتمتمن في هدوء بأدعية مختلفة.

خيّم على المدينة بأكملها جوّ من الظلم وانعدام العدل.

وحتى الأغنياء، وهم كثر في "آمريتسار"، يفقدون أعصابهم من الطقس الفظيع، حين يخرجون من بيوتهم المكيّفة الهواء.

خلال الظهيرة، يغيب الجميع ولا يبقى سوى باعة الآيس كريم البؤساء، وقد غطاهم العرق. إضافةً إلى سائقي "التوك توك"، وقد وقفوا بعرباتهم تحت الأشجار الكبيرة يستظلون بها. وبالطبع، الكلاب الضالّة التي تتمدد على الطرقات المهجورة وهي تلهث.



لمنزل "تشاندر" سقفٌ من الصفيح. بعد أن تضربه شمس مايو، ولو لساعة واحدة، يتحول إلى قطعة جمر ملتهبة. ويصبح البيت الصغير أشبه بفرن مشتعل. هناك، في ذلك الطقس غير المحتمل، جلست زوجة "تشاندر" صباح أحد الأيام، وقد أغرق العرق جسدها. اسمها "كاملا"، رغم أن الجميع في "سيفاك - بيت الساري" يشيرون إليها في أحاديثهم بـ"زوجة تشاندر"، دون ذكر اسمها أبدًا.

منذ أعوام، كانت "كاملا" طفلة، بضفيرة مهوّشة خلف رقبتها، وجسم نحيل، وعينين كبيرتين فضوليتين، تعيش في منزل صغير في "جانديالا". بلدة صغيرة جدًا، أكبر بقليل من قرية صغيرة، تبعد بحوالي عشرين كيلومترًا عن "آمريتسار".

في تلك الدار الصغيرة، عاشت مع أمها وأبيها وشقيقها الذي يكبرها ببضعة أعوام. حين كانت في الثامنة، كان هو في الثالثة عشرة. والدها عامل في مصنع صغير، ينتج نوعًا غير معروف من مسحوق غسل الملابس.

بعد أن يتوجه أبوها إلى المصنع، ويذهب أخوها إلى محل الخياطة حيث يعمل كـ"صبي ترزي"، تخرج أمها للعمل في بيوت الناس. تطبخ طعامهم وتنظف منازلهم. في بعض الأحيان، تصطحب "كاملا" معها لتساعدها.

حين كانت في الثامنة، لم يكن لديها سوى فستانين فقط، وكانا - في الأساس - ملكًا لطفلات بعض البيوت التي تتردد عليها أمها. أعطوهما لها حين ضاقا على تلك الصغيرات. كان قماش أحدهما منقوشًا بمربعات من اللونين الأحمر والأزرق، وبه جيبان. والآخر قديم جدًا، لونه وردي، به شريط ممزق من الـ"دانتيلا" في الياقة والذيل.

اعتادت "كاملا" أن تخدم نفسها. فرغم أن أمها كانت تغسل ثياب ابنها وتعد له الشاي وتخدمه، فإنها كانت تنبّه ابنتها إلى أن الفتيات يجب أن يُجدن الأعمال المنزلية، وأنهن كلما أسرعن في تعلّمها وإجادتها، كلما كان ذلك أفضل لهن ولمستقبلهن. ولذلك، وفي محاكاة جادّة لوالدتها، تجلس "كاملا" أمام صنبور الماء، مرة في الأسبوع، وتفرك ثوبيها بالصابون، ثم تشطفهما وتعصرهما جيدًا، وتقوم بنشرهما تحت الشمس بعد ذلك.

كانت تحب الفستان الأحمر والأزرق أكثر، رغم أن الـ"دانتيلا" في الفستان الوردي تشعرها ببعض العظمة، كأنها إحدى البنات اللاتي يعشن في بيوت كبيرة، ويركبن السيّارات حين يخرجن، ويبتعن تلك الشوكولاتة المغلّفة بأوراق بنفسجية. لكنها تفضّل الثوب الآخر لأن به جيبين يمكنها أن تضع فيهما أيّ شيء. كما أنه يبدو في حال أفضل من الوردي المهترئ. وفوق ذلك، فإن ألوانه مرحة وزاهية. اعتادت "كاملا" أن تلبسهما بالتبادل. الوردي في يوم، والمربّعات في اليوم الذي يليه وهكذا..

في أحد أيام ارتدائها الفستان المربّعات. توفيت أمّها.

كانت "كاملا" وأمها بمفردهما في المنزل. الوقت يقترب من المغرب، وهما منهمكتان في إعداد العشاء.

تعلمت "كاملا" منذ فترة قريبة كيف تقشر البطاطس. جلست على الأرض، تقشر بضع حبّات بسكين غير حادّ، لأن أمها تخاف عليها من استخدام السكاكين الحادّة. راحت تثرثر بصوت مرتفع جدًا. اعتلت أمها كرسيًا صغيرًا لتحضر برطمان الطرشي الكبير من فوق خزانة المطبخ.

- وهل تعرفين يا أمي ماذا قالت "جانجا" بعد ذلك؟ قالت إن "مينا" دائمة الغش في اللعب، وإن الحجر كان على حافة خط الطباشير، لكنها حرّكته بقدمها دون أن نلاحظ. ولكن أنا كنت أراقبها. لم تفعل ذلك. أمي.. هل تظنين أن "جانجا" تكذب؟ أنا عن نفسي لا أظن ذلك. ممكن يعني تكون مخطئة فقط.

ظلّت الأم تومئ برأسها، و"كاملا" تواصل حديثها، دون انتظار لأي إجابة على أسئلتها. وقفت الأم على أطراف أصابعها، ومدّت ذراعها لأقصى ما تقدر، محاولةً الوصول للبرطمان البعيد.

- هل أخبرتكِ أن أخت "جانجا" التي تزوجت، جاءت لزيارتهم؟ لقد أحضرت هدية لـ"جانجا" عبارة عن سوار فضّي. لا أقصد يعني أن لونه فضي يا أمي. لكن أنه من الفضّة الحقيقية. وبه أجراس صغيرة صوتها حلو. وهل تعرفين ماذا تفعل "جانجا" طوال الوقت؟ تهزّ يدها هكذا حتى نسمع رنين الأجراس. تغيظنا يعني.

بعد عدّة محاولات، نجحت أمها في الوصول للبرطمان. أمسكته، وجرّته نحوها. قالت:

- ها هو أخيرًا! يمكننا الآن أن نضع القليل منه على العشاء ونحن..

هنا.. ترنحت قليلًا فوق الكرسي، وارتفع حاجباها في دهشة بالغة، وهي لا تزال تمسك به بين يديها. وفجأة، انزلقت، ووقع المقعد على جانبه، محدثًا صوتًا مكتومًا، صاحبه صوت آخر لتحطُّم شيء. وصمتت أم "كاملا" دون أن تكمل جملتها الأخيرة.

تكوّنت بركة من الدماء تحت رأسها. انكسر البرطمان أيضًا. بدأت طبقة من زيت الخردل تزحف نحو بركة الدماء. امتزج الاثنان. تناثرت قطع من الليمون والجزر حول الدم المختلط بالزيت. جلست "كاملا" في مكانها، وفمها مفتوح قليلًا، وهي ممسكة بحبة بطاطس نصف مقشرة في يدها اليسرى، وبسكين ثلم في يدها اليمنى. تجمعت قشور ملتوية بجوارها على الأرض.

هكذا وجدها أخوها حين عاد من عمله بعد ساعتين. استوعب المشهد الماثل أمامه، وأحس بطعم شديد المرارة في فمه. أزال السكين من يدها، وأرسلها لتحضر عمّتهما من منزلها القريب.

في البداية لم تتحرك "كاملا" من مكانها، وبعد ذلك دفعها شقيقها في ظهرها برفق، وقال بصوت مختنق:

- اذهبي يا "كاملا".. هيا.. اذهبي لتحضري عمتك. أخبريها بما حدث. ستأتي معك. سأذهب بعدها لأحضر أبي من المصنع.

سارت في الطريق المؤدّي لبيت عمتها وهي ذاهلة عمّا حولها. حين وصلت هناك، ظلت تعيد وتكرر أن البرطمان قد تحطم. بعد ذلك، انفجرت في البكاء فجأة. هزّتها العمة من كتفيها، وسألتها عمّا حدث بالضبط. قالت من جديد:

- البرطمان.. لقد تحطّم.

لكنها أضافت هذه المرّة:

- وأمي معه.

مرّت الأيام التالية على "كاملا" وهي لا تـزال عـلى ذهولهـا وصـدمتها الأولى. كـان والـدها وشقيقها متباعديَن عنها. انشغلا بالتحضير لحرق الجثّة ولترتيب أمر الصلوات. انشغلت العمة أيضًا بخدمة الضيوف من الأقارب، الذين أتوا ليقيموا معهم خلال فترة العزاء. كانت تعد لهـم الطعـام، وتهيّـئ لهـم أمـاكن ينـامون فيهـا. وكانـت "كـاملا" تـساعدها طـوال اليـوم. تقطّـع الخضراوات، وتطوي الملاءات والأغطية، بينما قلبها يتمزق ألمًا في كل لحظة.

قالت لها العمة:

- اسمعيني جيدًا. صار عليكِ الآن أن تتولى شؤون البيت، مثلما كانت أمك تفعل بالضبط. ستعتنين بأبيك وشقيقك. اتفقنا؟ أنت الآن فتاة كبيرة.

أومأت "كاملا" برأسها في طاعة.

بدأت تخرج للعمل، كما اعتادت أمها أن تفعل.

وكما أمها، كانـت عمتهـا تطـبخ وتنظـف في البيـوت الكبـيرة. أخـذت "كـاملا" تحـت جناحها، وصارت تصطحبها معها إلى المنازل التي تتردد عليها. الفتاة سريعة التعلّم. تكنس الغرف بحركات سريعة وخفيفة، تنظّـف تحـت الأسرّة وخلـف الأرائـك وتحـت الـسجّاد. تستلقي على بطنها، وتصل بالمكنسة إلى الزوايا البعيدة. تنظف رفوف المطـبخ، وتمـسحها بخرقة مبللة، لتزيل عن أسطحها بقع الزيت والصلـصة. تنظـف أحـواض المطـابخ بدقـة.. تزيل فتات الأطعمة وبقايا قطع السلطة، حتى لا تُسَدّ الأحواض. تقطع البصل والطماطم والزنجبيل لمكعبات صغيرة متساوية، ثم تغطيهـا بـصحون مقلوبـة، لتـستخدمها صـاحبة المنزل فيما بعد، عند طهي الغداء.

سرعان ما بدأت تحصل على مئة روبية شهريًا، بـسبب رضـا أصـحاب المنـازل عـن عملهـا المتقن.

واصلت ارتداء الفستانين بالتبادل، حتى ضاقا عليها، فبدأت تلبس أطقمًا من أثواب قصيرة وسراويل.

حين بلغت الرابعة عشر، تزوج شقيقها. ولتأمين مكانتها في المنزل، حرصت زوجة الأخ على أن تكون هي المسؤولة عن المطبخ، وجعلت "كاملا" مجرد مساعدة لها. صارت الآن هي التـي تقرر نوعية الطعام وكمّيته، وتطهوه بطرقها الخاصّة.

انحصر دور "كاملا" في تقطيع الخضراوات، والتنظيف وأداء المهام التي تأمرها زوجـة الأخ بها.



في الـسادسة عـشرة، حـين تزوجـت "تـشاندر"، كانـت "كـاملا" فتـاة جميلـة بعينـين جذّابتين، تتسم بالمرح في معظم الأحيان. لكنها كانت تستسلم، في بعض الأوقات، لفـترات صمت طويلة. لم تفهم العائلة أبدًا سرّ هذا الصمت التامّ الذي تمتنـع فيـه عـن الحـديث مع أيّ شخص كان، وتكتفي فقط بالكلام مـع نفـسها، بهمهمـة غـير مفهومـة، أو تنهمـك بتطريز الورود على بقايا الأقمشة التي يحضرها أخوها من المصنع، الذي صار يعمـل فيـه مسؤولًا عن قصّ الأقمشة، إلى جانب عمله كحائك. وحين كانت تتعـرض لهـذه الحالـة، لم تكن تجيب على أيّ سؤال، لا بإيماءة ولا بحركـة، وهـو مـا كـان يثـير حنـق وضـيق أفـراد أسرتها. ومع ذلك، كانوا يتقبلون الوضع – في معظم الأحيـان – لأنـه لم يكـن يـضرّ أحـدًا.

وكانوا مقتنعين بأن السبب الوحيد لما هي فيه، هو فترة المراهقة التي تمرّ بها. كانوا أيضًا متأكدين من أنها ستصبح طبيعية، بمجرد أن تتزوج.

في تلك الفترة، صارت "كاملا" طاهية ماهرة. تتردد على ثلاثة بيوت مختلفة يوميًا، لتطبخ لهم الخضراوات والعدس والأرز، ثم تغسل أوانيهم وأوعيتهم، وتتركها لامعة. برّاقة، قبل انصرافها. كما ارتفع دخلها الشهري إلى أربعمائة روبية، وأصبحت تحصل على بعض الثياب القديمة بين الحين والآخر، ووجبة طعام يومية في المنزل الكبير ذي اللون الأبيض، وكوب واحد من الشاي في البيت الجميل المزدان بالنباتات المتسلّقة. وتناولها كل أسرة عشرين روبية إضافية وبعض الحلويات في كل عيد "ديوالي". في بعض الأحيان، تعود للدار برغيفين يبست حوافهما قليلًا، وبعض قطع المانجو المخللة، التي يغطي الزيت سطحها الداكن.

بينما كانت تكنس الأرض في أحد تلك البيوت، لمحت "كاملا" - مرّة - خرزة زجاجية جميلة، لونها أحمر لامع. لاحظت أن بها ثقبين متقابلين، لإدخال خيط فيهما. توقفت يدها اليمنى التي تقبض بأصابعها على المكنسة. انحنت ومدّت يدها اليسرى لتلتقطها. رفعتها تجاه نور الشمس المنسكب عبر النافذة. تزايد لمعانها، واكتسبت الخرزة بريقًا جديدًا. ابتسمت "كاملا".

ربّة المنزل امرأة طيبة، تقضي معظم وقتها في متابعة الأفلام. حوّلت عينيها عن الشاشة وقالت:

- "كاملا" ما هذه الابتسامة العريضة؟

- إنها هذه الخرزة يا سيدتي. إنها جميلة. كلّا.. إنها جميلة جدًا جدًا.

- آه.. تلك التي في يدك؟ إنها رخيصة جدًا. ابنتي الصغيرة اشترت علبة كاملة منها لتصنع بعض العقود لدميتها. لكنها انتهت من ذلك. ما أكثر السخافات التي تقوم بها تلك البنت! ليتها تذاكر دروسها بدلًا من ذلك. أيّ مستقبل ينتظر فتاة غير متفوقة؟ هذه الأيام حتى الزواج يحتاج لشهادة بكالوريوس! المهم.. بقية العلبة لا تزال موجودة. خذيها بدلًا من أن تظل هنا دون فائدة. سأحضرها لك الآن.

أومأت "كاملا" بعدم تصديق. قامت المرأة من على مقعدها، وسارت بخطوات بطيئة، وعادت بعد قليل بعلبة صغيرة من الورق المقوى، ناولتها لخادمتها.

فتحتها. وجدتها ملأى بمجموعة كبيرة من الخرز اللامع المصقول. قالت وهي تضمّ العلبة إلى صدرها بفرحة:

- أشكرك يا سيدتي.. شكرًا.. شكرًا..

- هاه.. سعيدة الآن؟

- نعم.

- إذًا، قومي بفرك الملابس جيدًا حين تغسلينها اليوم. القمصان البيضاء لم تكن نظيفة تمامًا بالأمس.

- ولكن تلك البقع كانت ناتجة عن "الكركم" يا سيدتي، وهي لا تزول بشكل جيد، مهما قمت بفركها.



ذلك المساء، كانت "كاملا" تصنع عقدًا من الخرزات الحُمر، بواسطة خيط وإبرة، حين عاد والدها من مصنع الصابون. عادةً، يرجع مـن عملـه منهكًـا وصـامتًا، ولا ينطـق بكلمـة إلى أن يفرغ من شرب الشاي الذي تعدّه له ابنته أو زوجة ابنه. لكنه في ذلك اليـوم، وضـع "عمـود" الأكل الذي اعتادت "كاملا" أن تملأه له بطعام الغداء صباح كل يوم، ونادى أفراد الأسرة.

جاء أخوها، فور سماعه نداء أبيـه، وهـو يتمنـى ألا تكـون هنـاك مـشكلة مادّيـة ينبغـي مناقشتها وإيجاد حلّ لها. لحقت به زوجته، وهي تحمل رضيعها بين ذراعيهـا. ظلّـت "كـاملا" في مكانها، ممسكة بالخيط والإبرة، وقد تناثر الخرز الأحمر في حِجر ثوبها. أخـبرهم الأب بأنـه قد اتفق على تزويج "كاملا" لابن زميل له في العمل. ابتسم الأخ. احتـضنتها زوجتـه. وظهـرت السعادة على وجوه الجميع.

ابتسمت "كاملا" بلا اهتمام، لأنها تتوقع ذلك منذ مـدّة. كـل فتـاة تعـرف أن يومًـا كهـذا قادمٌ لا محالة. بدأ الأب وابنه في مناقشة ترتيبات الزفاف. انسحبت "كاملا" إلى المطبخ لإعـداد الشاي. التزمت الصمت، لإدراكها أن هذا هو المفروض في موقف كهذا، بيـنما انـدفعت زوجـة شقيقها – التي دخلت وراءها – في ثرثرة متواصلة. لم تنتبه للكثير ممّا قالت.

فيما بعد، حـين اسـترد الجميـع هـدوءهم، واسـتعدّوا للخلـود إلى النـوم والراحـة، عـادت "كاملا" إلى عقدها غـير المكتمـل، وواصـلت إدخـال الحبّـات اللامعـة في الخـيط، تحـت ضـوء المصباح الكهربائي. الزواج يتمّ كل يوم، لكن الحصول على خرز أحمر.. قليلًا ما يحدث.

لكن العاصفة لم تهبّ إلا قبل الزفاف بأسبوع، حين علمت أن الرجل الذي ستتزوجه، والذي لم تره أبدًا، ولم تكن مهتمة به بشكل خاصّ.. يعمل ويقيم، بشكل دائم، في "آمريتسار"، وأن عليها الانتقال معه إلى هناك.

بمجرّد سماعها ذلك، انهارت "كاملا"، وانهمرت دموعها دون توقف. انتحبت وأعلنت لأبيها أنها لن تتزوج. اقتربت زوجة شقيقها منها، محاولةً التخفيف عنها. لكن "كاملا" أزاحت ذراعها التي أحاطتها بها، بنفاد صبر. قال لها والدها بنبرات هادئة بأنه يجب عليها ألا تنطق بمثل هذا الكلام، فقد تمّ الاتفاق على كل شيء بالفعل، وانتهى الأمر. أضاف ناصحًا إيّاها بأن عليها فقط أن تركّز تفكيرها واهتمامها في أن تكون زوجة صالحة.

هدأت "كاملا". لأنها تعلم جيدًا أنه محقّ. لكن الشعور بالقلق لم يفارقها. كانت تتوقع أن يكون "تشاندر" – هكذا سمعتهم يرددون اسمه – مثلها من سكّان "جانديالا"، التي لم تغادرها بتاتًا. فكرة أن تعيش بعيدًا عن أسرتها، بمفردها، في مدينة غريبة. أرعبتها لأقصى درجة؛ فاحتكاكها بالعالم الخارجي محدود جدًا، ولا تعرف سوى أسرتها وأقربائها وأصحاب البيوت الثلاثة التي تعمل فيها. لحرص والدها على إبعادها عن شرور الدنيا الواسعة. لطالما خاف من أن تصبح ابنته صعبة المراس وسيئة الأخلاق، في غياب أم ترعاها وتوجهها. الدار الصغيرة التي تجمعهم هي عالمها الحقيقي، والمكان الوحيد الذي تشعر فيه بالأمان، بحجرتيها الضيقتين. لأخيها وزوجته وطفله، واحدة، ولأبيها الأخرى. الأشدّ ضيقًا. والأقرب لجُحر يتسع بالكاد لفراش صغير وزير ماء. أما هي، فاعتادت أن تنام في المطبخ. وضعوا لها هناك سريرًا صغيرًا مغطّى بملاءة خضراء، تستخدمها أحيانًا كشال تتدفأ به في الأيام الباردة. أسفل السرير، وضعت صندوقًا من الصفيح، تحتفظ داخله بممتلكاتها القليلة. هذا هو عالمها

المألوف، الذي اعتادت تفاصيله. وها هي تراه يوشك على الاختفاء، لتحل محله أمور جديدة لا تعرف شيئًا عنها. وهكذا، فإن "كاملا" بدلًا من أن تشعر بالإثارة والتشوّق كأيّ عروس، فإن كل ما أحسّت به هو الخوف الشديد.

ستظلّ أسرتها وأسرة "تشاندر" تواصلان حياتهما المعتادة في "جانديالا". أما هي. فسوف تكون بمفردها في "آمريتسار" مع رجل غريب، في بيت غريب.

صارت تمضي الليالي على فراشها وهي تردد هذه الجملة في رأسها آلاف المرات، حتى تشعر بصداع حادّ. ظلت على هذا الحال فترة طويلة، إلى أن شعرت مرّة بأنها قد تعبت ووصلة لمرحلة الإنهاك والإجهاد. واقتنعت – أخيرًا – بأنها لا يمكنها فعل شيء. قالت لنفسها إنه ينبغي على الفتيات أن يتأقلمن مع ظروفهن، كيفما كانت.

و بدأت تنام بانتظام، مرة أخرى.



في صباح أحد الأيام الصافية، تزوجت "كاملا" من "تشاندر".

بعد ذلك، صارت كلّما حاولت تذكّر ذلك اليوم، يطغى على ذاكرتها أمرٌ واحد.. رائحة حلوى الـ"لدّو"[7].

كُرات الـ"لدّو" الصفراء الشهية، وقد رُصّت بأشكال هرمية على أطباق معدنية. يتمّ تقديمها لضيوف يلبسون ثيابًا مبهرجة. أطفال الجيران يسرقون عددًا منها بخفّة وهم يجاهدون لكتم ضحكاتهم. الأسرة تضع منها للآلهة في

(7) اللدو: حلوى من حبات الحمص الأصفر والسكر والسمن، تصنع على شكل كريات.

المعبد، وتهدي كميات أخرى للأهل والأقارب بعد توزيعها في علب حمراء من الـورق المقـوّى. بنتٌ صغيرة تهرّب حبّة واحدة لـ"كاملا"، التي جلـست في حجـرة شـقيقها وزوجتـه، تنظـر إلى كفّيها المصبوغتين بالحنّة.

في اليوم السابق، أعدت زوجة شقيقها وبعض بنات الجيران الحنّة في إناء صـغير. غمـست عود كبريت في المزيج، ورسمت على كفّي "كاملا" دائرتين، بدقة متناهيـة. ثـم مـلأت فـراغهما بالمزيـد مـن الحنـة. بعـدها، تـشاركت الفتيـات وهـن يتـضاحكن في صـبغ أطـراف أصـابعها بالمعجون الغامق. بعد ساعات قليلة، جفّت الحنة وتقشرت، مخلّفة عـلى يـديها لونًـا برتقاليًـا داكنًا أعجبها. لكنها تمنت لـو أن زوجـة أخيهـا رسـمت شـيئًا أكـثر إبـداعًا وجـمالًا مـن مجـرد دائرتين.

حين دسّت الطفلة في يدها حبّة "لدّو" ملفوفة في منديل قذر، تناولتها "كاملا" بشرود تامّ. تذوقت القليل منها وهي مستسلمة لإحساسها بالقلق والتوتر.

ملأت رائحة الحلوى المكان، وظلت عالقة في جوّ البيت، وغطاء الـسرير الأخـضر القـديم، وفي ملابسها وشعرها أيضًا.

الذكرى الثانية التي تحملها معها من ذلك اليوم هي دموعها، وهي ترجو عمتها أن تدعها تتزين بعقد الخرز الأحمر.

رفضت العمة بحزم وإصرار.

- لن تضعي هذا الشيء يا "كاملا". يا ويلي! ماذا سيقول الناس عنّا؟

- ولكن يا عمتي. إنه مناسب تمامًا لثيابي.

قالتها وهي توشك على البكاء..

كانت تلبس ثوبًا قصيرًا من قماش اصطناعي أحمر، دون نقوش أو تطريز، مع سروال من اللون نفسه والخامة نفسها. استطاع أخوها أن يحصل على الطقم بسعر رخيص من المصنع الذي يعمل فيه. اشترت وشاحًا أبيض، ثم أخذته لمصبغة قريبة، لتتم صباغته بنفس درجة ملابسها. قامت بعدها بتطريزه ببعض الخيوط الذهبية اللون، وخاطت زوجة شقيقها حبيبات معدنية لمّاعة على الأطراف.

بدت "كاملا" جميلة جدًا، وهي تضع الوشاح البرّاق على رأسها. لكنها كانت تتوق إلى تزيين عنقها بالخرز الأحمر.

- أنا أرغب في أن أضع العقد الأحمر يا عمتي.. أرجوكِ.

- كلّا. ستضعين السلسلة الذهبية التي ورثتها عن المرحومة أمّك، وزوج الأقراط الذي اشتراه والدك لك لهذا اليوم خصّيصًا. قد تكون أشياء بسيطة في نظرك، لكنها كافية لأناس مثلنا يا ابنتي. ماذا سيقول الناس حين يشاهدونك تلبسين عقدًا من الزجاج الرخيص؟!

- ولكن يا عمتي، أنا متأكدة من أنني سأشعر بتحسّن إن أنا لبست ذلك العقد وأنا ذاهبة إلى "آمريتسار" الليلة.

أضافت وهي تغالب البكاء:

- على الأقل سأشعر بأنني أنا.. ما زلت أنا.

صاحت المرأة بانزعاج:

- ما هذا الكلام الأبله؟! أنتِ هي أنتِ بالطبع.

أردفت بحنان:

- اسمعيني يا حبيبتي. كل البنات يشعرن بتوتر بالغ في يوم عرسهن. ولكن ينبغي عليكِ أن تهدأي وأن تنفذي ما نقوله لك. لقد صرتِ عروسًا، وستصبحين منذ الليلة امرأة جديرة بتحمل المسؤولية، فكفّي عن التصرّف كطفلة.

- ولكن يا عمتي.

- كفى يا "كاملا". لا تحوّلي الأمر إلى مشكلة. كوني فتاة مطيعة. وكوني ممتنّة لأبيك. قد يكون المسكين رجلًا فقيرًا، لكنه مع ذلك فعل الكثير من أجلك ومن أجل عرسك. لستِ ابنة كنّاس شوارع لتضعي هذا الزجاج القبيح بدلًا من الذهب.

ظلّت العمة متمسكة بموقفها الرافض، بإصرار تامّ، إلى أن استسلمت "كاملا" في نهاية الأمر.

لا تتذكر الكثير عن أيّ شيء آخر يتعلّق بذلك اليوم.

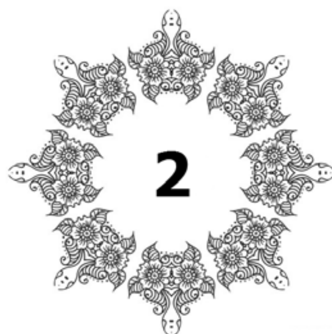
جاءت لتعيش في "آمريتسار" مع "تشاندر"، حاملةً كل ممتلكاتها في صندوقها القديم المصنوع من الصفيح. وضعت بداخله "الساريين" الاثنين اللذين اشتراهما لها والدها بمناسبة زواجها، وبضعة "سواري" أخرى أهدتها إياها ربّات البيوت اللاتي عملت في بيوتهن، قبل رحيلها. إضافةً إلى بضعة أطقم قليلة من الأثواب القصيرة والسراويل. كما حملت معها كل ملابسها الداخلية، ومشط ومرآة، وعبوة "سيندور" وعدد من الـ"بيندي"، وبعض الفوط الصحية التي صنعتها من بقايا أقمشة قديمة.

أشرفت العمة على وضع المحتويات في الصندوق. وبعد مغادرتها، عائدةً إلى بيتها، فتحته "كاملا"، ووضعت المزيد من الأغراض.

وهكذا، أضافت للأشياء التي أخذتها معها إلى "آمريتسار". العقد الأحمر العزيز على قلبها، والفستانين اللذين لبستهما لسنوات خلال طفولتها. الوردي، والآخر ذو المربعات الحمراء والزرقاء (في حال رزقت بطفلة في المستقبل). وعبوة كريم "فير آند لافلي"، التي أمضت الشهرين السابقين على عرسها في ادّخار ثمنها. ودبّوس مشبك نحاسي مستورد، و"إيشارب" من الحرير الصيني أعطتها إياه إحدى ربات البيوت الكبيرة منذ زمن.

كما حملت معها قناعة تامة بأن بقع "الكركم" لا يمكن أن تزول بالصابون، مهما فركتها أثناء الغسيل.





بدأت "كاملا" حياتها الزوجية بالطريقة نفسها التي تتبعها كل الفتيات اللاتي تعـرفهن. لم يكن هناك من ينتظر منها أن تخرج للعمل بعد زواجها، بل توقع الجميع أن تحمل في أسرع وقت، وتلد لهم طفلًا أو أكثر. وكان "تشاندر" قد أخبرها بأنه لا داعي لأن تلتحق بالعمل في بيوت جديدة، لأنها سوف تتركها بعد فترة قصيرة حين تحمل. ونصحها:

- يمكنك أن تبدأي في ذلك بعد أن يكبر الصغار بعض الشيء. وحتى ذلك الوقت، يمكنني تدبّر أمورنا، فلست فقيرًا لتلك الدرجة.

صار لها برنامج يومي تطبقه يوميًا. تطهو الطعام وتغسل الثياب، وتنظف بيتها الجديد المكوّن من حجرة واحدة صغيرة يعلوها سقفٌ من الصفيح. طمأنها زوجها بأنهما سينتقلان إلى منزل أفضل قريبًا، فور أن يدّخر مبلغًا معقولًا، وذكّرها بأنه سيحصل على علاوة عيد الـ"ديوالي" عمّا قريب.

والواقع أن المال كان شحيحًا، وساعات العمل طويلة ومرهقة. اعتاد أن يذهب إلى مصنع الملابس، حيث يعمل، في وقت مبكّر من صباح كل يوم، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. بات لزامًا عليها أن تقتصد وأن توفّر

وتدّخر. لكن ذلك أمر اعتادت عليه. لم يكن الوضع يختلف كثيرًا، من هذه الناحية، عن بيت أبيها. لكنها لم تعرف الوحدة هناك أبدًا.

أصبحت شديدة الاقتصاد. ترفو ثقوب الملابس القديمة، وترتق الأطراف المنسلّة، وتعيد خياطة القطع التي لا تشكو من أيّ عيب، حتى لا تتعرّض للتمزّق. كما تحتفظ بزيت القلي عقب الانتهاء من الطهي، لإعادة استخدامه بضع مرّات أكثر.

اعتمدت في حياتها الجديدة على إعادة استخدام كل شيء، واستغلال أيّ بقايا حولها. من ورق وأقمشة وغيرها. وطهي الطعام بأقل قدر ممكن من التوابل. وتوقفت عن استخدام الثوم تمامًا.

وتنجح بذلك في توفير القليل من الروبيات شهريًا.

لكن شيئًا ما لم يمضِ بطريقة ناجحة. بدأت تفكر بجدّية في حياتها.. وأدركت أنها تشعر بتعب شديد منها.

يسرف "تشاندر" في الشرب، ثم يعود ليضربها. الأمر شائع بالطبع. تعرف ذلك جيدًا. الرجال يضربون زوجاتهم. نوع من الروتين، لا أكثر ولا أقلّ. ليس عليها أن تنزعج من الأمر.

لكن الحقيقة أن الموضوع كان يشعرها بالضيق والانزعاج. يلازمها بعده إحساس حادّ بالمرارة، ويتركها في مزاج سيئ.

تمرّ عليها ساعات اليوم وهي تؤدّي واجبات منزلية متكررة. تفرك وتنظّف وتقطّع وتفرم. والتقطيبة تعلو وجهها، ووحدتها تكبر وتتوحش حتى تكاد أن تخنقها. ويتزايد شعورها - بمرور الأيام - أنه لا طائل من كل ما تقوم به.

الشبّاك الصغير، والضوء الرمادي الشحيح الذي يتسرب عبره، يفاقمان من إحساسها بالاختناق. تراقب الضوء الكئيب وهو يتغير إلى رمادي مُضيء ظهرًا، ثم وهو يستعيد درجته الكابية مع أول المساء. يتبعه الظلام. عندها فقط تنير المصباح الكهربائي الصغير المثبّت على الحائط. أسلاك عارية تربطه بلوحة مفاتيح الكهرباء.

تطهو العشاء، ثم تبدأ في انتظار "تشاندر". يأتي مترنحًا، بعد انتصاف الليل أحيانًا. يسقط على السرير وينام بهدوء في بعض الليالي؛ أو يفتش عن سبب ليتشاجر معها ويضربها في ليالٍ أخرى. وبعدها يلاطفها بكلمات ينطقها بصعوبة، وبلمسات من يديه الرطبتين.

بعد انقضاء ستّة أشهر على زواجها، جاءها نبأ وفاة أبيها. اتصل أخوها بالمصنع الذي يعمل فيه زوجها وترك له الخبر مع رئيسه، الذي غضب لأن "تشاندر" أعطى رقم تليفون المصنع لأقربائه. عاد إلى البيت من فوره وأبلغها الخبر. وقبل أن تتمكن من استيعاب ما قاله لها، كان قد أركبها حافلة كتب عليها "بنجاب رود وايز" ودسّ في يدها عشرين روبية. تقافزت الحافلة طوال الطريق إلى "جانديالا". حين وصلت، توقعت أن ترى شقيقها أو أحدًا من أقاربها في انتظارها. لكنها لم ترَ أيّ وجه مألوف في الموقف. اضطرت لركوب "توك توك" بمفردها، للمرة الأولى في حياتها، وهي تشعر بالذعر.

لحق بها "تشاندر" في اليوم التالي.

في الشهر الذي أعقب وفاة أبيها، خسر شقيقها وظيفته في مصنع "تشاندريكا للملابس الجاهزة"، إذ استعان أصحابه بآلات حديثة لأداء الكثير من المهام، ولم يعودوا بحاجة لعدد كبير من العمّال والخيّاطين.

أمضى شهرين في البحث عن وظيفة جديـدة، لكـن المـصانع كلّهـا كانـت ممتلئـة بأعـداد هائلة من العمّال. في نهاية الأمر، اضطر للانتقال إلى "جالاندار" مع زوجته التي نجـح شـقيقها في العثور له على عمل هناك. بعد أن استقرّ هناك، استغرقته حياته الجديدة تمامًا، ولم يتـصل بـ"كاملا" بأيّ وسيلة من الوسائل. ظلّت تردد لنفسها بأن الأمر غير مهم على الإطـلاق. لكنهـا، في قرارة نفسها، عرفت أنها لم تفقـد أخاهـا فحـسب، بـل فقـدت معـه المكـان الوحيـد الـذي عرفته، وأنست إليه، طوال حياتها. والآن. سـيكون منـزل "تـشاندر" هـو بيتهـا الوحيـد لبقيـة حياتها. كل يوم من عمرها سيبدأ هناك. وينتهي هناك أيضًا.

تزايد إحساس "كاملا" بالوحدة. أكثر من أيّ وقت مضى.



بعد ذلك، حملت "كاملا".

لم يكن لديها فكرة معيّنة عن الحمل. لطالما ظنّت أنها مجرد مرحلة تقليدية، تلي مرحلـة الزفـاف. لم تتخيّـل يومًـا مـدى الأشـواق التـي تـشعر بهـا الأم الحـبلى. ولم تتـصور أن الحمـل سيشعرها بكل تلك السعادة.

بدا أن عالمها قد تغيّر في يوم وليلة، أصبح عالمًا جديدًا. طازجًـا. منعـشًا. أحـسّت بـأن كل أحزان العام الماضي قد انتهت وولّت إلى غير رجعة. بدأت تبتسم لنفسها أحيانًا، وهي تؤدّي الأعمال المنزلية. أصبحت تنتظر وصول طفلها بفارغ الصبر، وهي متيقنـة مـن أنهـا لن تشعر بالسأم بعد قدومه أبدًا، ولا بالقلق أو التوتر؛ وبالتأكيد لن تعرف الوحدة ثانيةً. أصبحت أكثر اهتمامًا بالأشياء من حولها. تقف بالبـاب في بعـض الأحيـان لتراقـب البقـرة البيـضاء القـذرة، التـي تحتـل شـارعهم، وهـي تمـدّ رأسـها في أكـوام القمامـة بحثًـا عـن

الطعام. صارت تتابع بعينيها أطفال الحارة وهم يرسمون على الأرض مربعات بالطباشير، ويتقافزون مبتعدين كعصافير صغيرة، كلّما مرّت درّاجة في الزقاق الضيِّق. ودائمًا، تنصت بشغف لصياح جاراتها المتبادل، وهن يتشاجرن على أولوية استخدام صنبور البلدية العمومي.

بعد عدّة أيام من زفافها، اكتشفت "كاملا" سرّ هذا الصنبور بالصدفة. استيقظت فجرًا وهي تشعر بالضيق والاختناق. كانت الحجرة تغرق في مزيج من الروائح النفاذة، مصدرها العرق والكحول. خرجت من البيت، وهي تحكم لفّ الشال حول كتفيها. أدارت رأس الصنبور النحاسي، على أمل أن تجد فيه قطرات عالقة من الماء، وفوجئت بأن به ماء فعلًا. غسلت وجهها، ثم عادت للحجرة.

لم يكن أحد يعرف بأن هناك ماء، في ذلك الوقت المبكّر من اليوم. احتفظت بالسرّ لنفسها، وصارت تملأ الدلو البلاستيكي الأخضر في الساعة الرابعة فجر كل يوم، حتى لا تضطر للوقوف في طوابير طويلة مع الأخريات، في الساعة التاسعة صباحًا.

حين تقف في الظلام، في انتظار امتلاء دلوها بالماء، كانت تشعر بفيض من الامتنان تجاه البلدية التي لا تدرك هذا الخلل!

بدأت "كاملا" تشعر بالاستقرار في حياتها. تجلس على عتبة الباب، ترنو إلى نسوة الحارة وهن يتبادلن الثرثرة، وتتساءل في حيرة إن كان بإمكانها أن تصاحب بعضهن؟ ربما قبلن صداقتها وتكلمن معها، رغم أنها غريبة عنهن وعن المنطقة. ربما استطاعت، من خلالهن، أن تصبح جزءًا من المجتمع. الأهم من كل ذلك، عليها أن تحاول بدأب كسب ودّهن ليستطيع طفلها أن يلعب مع أولادهن مستقبلًا. عليها أن تبدأ الآن.

لكنها لم تكن بحاجة لكل هذا التفكير والتخطيط؛ ففي الشهر الثالث من الحمل، تعرضت "كاملا" للإجهاض.

كان "تشاندر" في عمله، في ذلك الوقت. فزعت "كاملا" حين رأت الكُتل الحمراء ما بين ساقيها. أدركت فورًا ما كان يحدث، فخرجت إلى الطريق العام بخطوات سريعة.

ركبت "توك توك"، بمفردها، للمرّة الثانية في حياتها. طلبت من السائق أن يتوجه إلى أيّ مستشفى حكومي. أرخص مستشفى يعرفها. جلست وضمّت ساقيها إلى بعضهما، وانتحبت طوال الطريق الذي امتدّ لنحو كيلومترين.

أحسّت بالغضب من حماتها، لأنها بعيدة عنها. وشعرت بالحنق تجاه أمها، لأنها ماتت ورحلت عنها؛ وبالكراهية نحو "تشاندر" الذي يتركها بمفردها يوميًا. راحت تبكي بعنف، وقد امتلأت بالحقد تجاه الجميع. كان إحساس البلل، بين ساقيها، يتزايد في كل لحظة. كان كل ما في المستشفى باردًا. رائحة المطهرات. الوجوه البائسة. الثياب البيضاء التي يلبسها جميع العاملين. البلل المتدفق من جسدها. الأسرّة. كل شيء.

طاردها الخوف في ردهات المبنى المزدحم. شقّت طريقها عبر رائحة الأدوية والدماء المثيرة للغثيان، والناس المنتظرين أدوارهم في الكشف. مرضى وأقاربهم. جاؤوا من القرى القريبة، ينتشرون في المكان. يفترشون قاعة الانتظار. ينامون ويأكلون ويثرثرون في الممرات. بعضهم يحتلّ غرفة المخزن، التي تحوي نقّالات معدنية لحمل المرضى والمصابين. بعض الوجوه قلقة ومتعجلة، والأخرى جامدة ولا مبالية. من طول الانتظار.

سألت بلهفة، والدموع تنهمر بغزارة من عينيها، عن الشخص الذي يتعيّن عليها التوجه إليه. لم يعرها أي شخص أدنى اهتمام، ولم يأخذها أحد على

محمل الجدّية. إلى أن لمحوا الدماء تسيل على كاحليها، من تحت "الساري". هنا فقط، تمّ إدخالها إلى عنبر يمتلئ بأنين مرضى عديدين. طاف في المكان رجلٌ يجمع ضمادات مغطاة بالدماء، ويلقيها في سلة يحملها بيده الأخرى. أحسّت "كاملا" بغثيان شديد، ورغبة ملحّة في التقيؤ.

طلبوا منها الاستلقاء على وجه السرعة. فحصتها طبيبة وقحة، قصيرة وممتلئة، ولها فكّ عريض. تنبعث من فمها وأنفاسها رائحة بصل نفاذة.

دخلت "كاملا" المستشفى، وغادرته في اليوم ذاته.

الألم الرهيب والخوف الشديد، جعلاها غير مدركة لما يحدث حولها. أيدي تتلمّسها. وجوه تحوم وتقترب منها. برودة. هذا فقط كل ما تتذكره. قبيل مغادرتها، كانت لا تزال غير مستوعبة تمامًا لما تمرّ به. الألم الشديد في بطنها، تتزايد قسوته عند تحريك ساقيها. قالت لها الطبيبة بسرعة، وبعبارات مقتضبة، بأنها قد فقدت الجنين، وإنها غير قادرة على الإنجاب ثانيةً. لم تشرح لها شيئًا، واكتفت بغمغمة عن القرويات الجاهلات، قبل أن تنتقل بعجالة إلى مريضة أخرى.

دفعت "كاملا" الفاتورة من النقود التي ادّخرتها من مصروف البيت. ركبت "توك توك" آخر، وعادت إلى البيت في حالة ذهول، وهي تنظر للمدينة الغريبة حولها دون وعي أو فهم. تلك الليلة، انتظرت "تشاندر" بصبر نافد.

عاد متأخرًا، وثملًا. أكثر من أيّ مرّة سابقة. قصّت عليه ما حدث، بصوت مرتعش. كانت تتوق لأن تبكي، لكنها أرادت إخباره أولًا. بعدها ستبكي لساعات على كتفيه، وسوف يعزيها ويريحها ويطمئنها.

سمعها وقد ارتسم الجمود على وجهه.

ثم قال لها بأنه مفلِس. لم يأتِ على ذكر الإجهاض. قال لها بلسان أثقله الخمر إنهما سيكونان في الشارع عمّا قريب. ظلّ يكرر كلامه لأكثر من خمس دقائق، حتى استوعبت "كاملا" أخيرًا ما يقول. فهمت أنه فقد وظيفته. لم يعد المصنع الذي يعمل به يحقق إلا الخسائر، وعليه، فقد تقرر إغلاقه. لم يكن قد تلقى راتبه منذ ثلاثة أشهر. والحقيقة أنه كان مدينًا للناس بأموال.

ثم قال لها بصوت واضح، معتدل، وقد فقد لسانه كل الثقل الذي كان به:

- لقد كنتِ شؤمًا عليّ يا "كاملا". منذ أن تزوجتك، والنحس يلاحقني.

صمت لبرهة. حدّقت زوجته في وجهه الخالي من التعابير، برعب وعدم تصديق. أضاف:

- لقد جلبتِ النحس حتى لأهلك! قلبك أسود. قلبك أسود. قلبك أسود.

كرّرها وهو يوشك على الانهيار، وقد تجمّع الدمع في عينيه الحمراوين:

- أنتِ من تسبب في موت أمك، ثم قضيتِ على أبيك. وشقيقك أصبح عاطلًا عن العمل. والآن، ها أنت قد أكلتِ ابني! وقريبًا، ستأكلينني أنا أيضًا!!

انهمرت دموعها في صمت.

أردف قائلًا:

- كان عليّ أن أعرف ذلك منذ اللحظة التي دخلتِ فيها البيت. جلبتِ النحس معك. حين قمتُ بإزاحة صورة أمي من على الرف، لنضع حاجياتكِ عليه، وقع البرواز من يدي وتكسّر. تهشم الزجاج، ألا تتذكرين يا "كاملا"؟

هزّت رأسها، نافيةً، في صمت. صاح باستنكار:

- أنتِ لا تتذكرين!! لقد تحطم الزجاج وجرح إصبعي.

أضاف باشمئزاز:

- كان عليّ أن أفهم في تلك اللحظة أنكِ شؤم. كان ذلك فألًا سيئًا.

ثم انخرط في بكاء مرير. أقعى على الأرض، وضمّ كفيه إلى بعضهما، وأخذ ينوح ويهتف بأسماء الآلهة. وهو يسألهم لماذا دمّروا حياته بتزويجه من هذه الساحرة؟

سال اللعاب من فمه، وبلل يديه المضمومتين. كان في أقصى حالات السُكر.

واصلت "كاملا" تحديقها به، دون أن تنطق بكلمة. جفّت دموعها. ودون تفكير، أحضرت له كوبًا من الماء. راقبته وهو يشربه دفعة واحدة. تابعت بلعومه وهو يضيق ويتسع لإدخال الماء. انتظرت حتى انتهى من الشرب، ثم أخذت الكوب الفارغ من يده. وضعته جانبًا دون أن تغسله، ثم استلقت على سريرها المصنوع من الحبال. نامت خلال لحظة، من فرط الإرهاق.

صباح اليوم التالي، كان "تشاندر" باردًا وصامتًا. لم تقم "كاملا" لإعداد الشاي أو الإفطار. جلست على سريرها وقد التزمت الصمت. لم يطلب "تشاندر"، من ناحيته، أن تحضر له أي طعام.

قبيل خروجه من باب المنزل، التفت نحوها وقال بوحشية:

- ولدكِ مات. وزوجكِ كان موشكًا على الموت. وأنتِ؟! أنتِ نائمة كما الملكة، طوال الليل.

لم تنطق "كاملا" بأيّ كلمة.



اعتاد "تشاندر" أن يحتفظ بزجاجة "روم" في البيت، رغم حرصه على تناول الخمور مع أصدقائه، خارج دكّان صغير للمشروبات الكحولية؛ إلا أنه لم يجد سببًا يمنعه من الاحتفاظ بزجاجة في متناول اليد، يخبئها تحت السرير حينًا، وخلف المكنسة حين آخر.

في بعض الأحيان، كان يستيقظ ليلًا، ليأخذ منها بضع رشفات.

بدأت "كاملا" في ارتشاف القليل من هذه الزجاجات التي يحضرها زوجها بانتظام. وحتى لا يلاحظ ذلك، كانت تضيف بعض الماء عقب انتهائها، ثم تمسح سطح القنينة وغطاءها الفليني، بطرف ثوبها، في حرص شديد.

ثم صارت تأخذ القليل من النقود المعدنية من جيب قميصه، وهي تعلّقه ليلًا. تنتظر إلى أن يستغرق في النوم، ثم تتسلل بهدوء إلى حيث علقت ثيابه. تمدّ أصابعها، وتنتقي أصغر العملات الموجودة، حتى لا يلاحظ اختفاءها.

إذا تحرّك، أو تقلّب على فراشه، تقف ثابتة كالصنم، إلى أن يتعالى صوت شخيره ثانيةً.

حين يتجمّع لديها مبلغ معقول، تذهب إلى سوق الخمور المحلية، وتشتري زجاجة من النوع الرخيص.

كان "تشاندر" يقضي أغلب ساعات يومه خارج المنزل، باحثًا عن وظيفة جديدة؛ لكن "كاملا" - من جانبها – لم تفكر أبدًا في العثور على أي عمل، ولو كخادمة في البيوت، مثلما كانت قبل الزواج. أصبحت تصرف كل طاقتها في التفكير والتدبير لشراء زجاجة الخمر التالية. واكتشفت أن بداخلها قدرة هائلة على المكر والاحتيال، هي نفسها لم تكن تعلم أنها تمتلكها؛ وبفضلها، تمكنت من

ألا تحرم نفسها من المشروبات الرديئة، حتى في أسوأ وأحلك الظروف المادّية. حتى حين لم يعد بإمكانهما تناول أكثر من وجبة هزيلة واحدة في اليوم.

كان "تشاندر" يعود إلى البيت كل ليلة وقد تملكه اليأس والإحباط. وكثيرًا ما عاد ثملًا، فيتشاجر معها ويصفعها على وجهها، ويدفعها تجاه الحائط، قبل أن يرتمي على السرير. لم يلحظ أبدًا أنها هي نفسها في حالة سُكر بيّن. لم يلحظ ابتسامتها حين كان يضرب رأسها في الجدار بقوة. ابتسامة مخيفة. كفيلة ببث الرعب في أي رجل عادي، عاقل. كان هذا يحدث يوميًا، حتى أصبحت جبهتها صلبة وقاسية ومليئة بالنتوءات.

لم يستوعب عقلها الثمل خبر حصول زوجها على وظيفة جديدة في دكّان لبيع "السواري". اتهمها بأنها لم تسعد لأجله. حدّقت فيه طويلًا. لم يعرف "تشاندر" أين ذهبت الفتاة الجميلة التي تزوجها.. لم يدرِ من يكون هذا الوحش، ذو العينين المتحجرتين، الجالس أمامه.

في أحد الأيام، عاد من عمله في الدكّان في ساعة مبكرة. كانت الأشهر التي أمضاها في توتر، وشرب الكثير من الكحوليات، وندرة الطعام، قد أثرت كثيرًا على صحته. أحس بدوار أوشك بسببه على السقوط من على السُلَّم. حين نظر "مهاجان" إلى وجهه بالغ الشحوب، أمره بالعودة إلى المنزل.

حين بلغ البيت، رأى الباب مشرعًا. دلف مسرعًا، فوجد "كاملا" تجلس على الأرض، ممسكةً بالزجاجة.

لم ينطق من هول المفاجأة.

ألقت عليه نظرة عابرة، ثم واصلت ارتشاف الخمر.

أصيب "تشاندر" بصدمة عظيمة من هذا المشهد. ضربها بقسوة بالغة، أكثر من المعتاد. ثم ذهب ليجلس في معبد "هانومان"، محاولًا إخفاء دموعه.

منذ ذلك النهار، أصبحت "كاملا" تشرب علانيةً. صارت عيناها زائغتين، واستحال لسانها بذيئًا. امتنعت عن تنظيف البيت، وتوقفت عن الصلاة للإله "شيفا" الذي كانت قد وضعت له تمثالًا من الصلصال في ركن من الحجرة؛ والذي اعتادت أن تقدم له أكاليل الزهور، بمنتهى الحب، صباح كل يوم.

لم تعد تستحم، أو تغير ثيابها المتسخة. صارت رائحة المنزل كريهة.

عينا "تشاندر" حملتا نظرة واحدة لا تتغير، نظرة مهمومة.

أما عيناها هي، فقد أحاطت بهما الهالات السوداء؛ وأصبح وجهها شديد الشحوب، وصار شعرها يتساقط بغزارة.

كانت تنتحب وتشرب. وكان "تشاندر" يضربها يوميًا، إلى أن يشعر بالإنهاك.

كلما ارتفع صياحه، اتسعت ابتسامتها اللامبالية. وكلما اشتد في ضربها، شربت أكثر، وثملت أكثر.

استسلمت لصمتٍ تامّ، ولم يعد يسمع صوتها إلا فيما ندر.

تشابهت ظروف حياتها مع الآلاف من النسوة في المجتمع. لكنها، ولسبب غير معروف (إذ لم تكن حتى متعلمة) كان لديها صعوبة في تقبّل هذه الظروف، وهذا القدَر. بدأت تدرك أن هناك أشياء أخرى، بالإضافة إلى بقع "الكركم"، لا تزول أبدًا.

كانت روحها ممتلئة بسمّ شديد المرارة، وحين يختلط هذا السمّ بالكحول، تتحوّل إلى كائن يفيض بالغضب العارم والطيش والتهور.

حين يؤجج الخمر إحساس الغضب في دمها، تقتحم الحياة بعينين حمراوين ناقمتين، وهي توزع شتائمها وسبابها على كل من تراه أمامها. الضرب الذي تتلقاه ليلًا من "تشاندر"، لم يكن يخفف من حدّة هذا السم، بل كان يزيدها توحشًا كحيوان مفترس.

كانت تكشر عن أنيابها للسيارات في الشوارع، إذا لم تهدّئ من سرعتها، انتظارًا لمرورها. وتصيح في وجوه الرجال الذين يحاولون استغلال سُكرها، ويمدّون أيديهم إلى أجزاء من جسدها.

في إحدى المرّات، صاحت في وجه كاهن المعبد القريب، الذي اعتاد إظهار تأففه من منظرها كلّما رآها في الطريق. أعلنت رأيها فيه، بكل صراحة، بصوتٍ مرتفع جدًا. قالت صارخة إنه ما صار سمينًا هكذا إلا بسبب التهامه للأرز وجوز الهند الذي يقدّمه زوار المعبد كقرابين للآلهة.

كان يخشاها، ويخاف لسانها الذي ينطق بكل ما هو محرج أمام الحارة كلها. تتسلّى بالسخرية منه، بأن تضمّ أصابعها كأنها تقبض على حجر، وتمثل بأنها ستقذفه به. ترعبه هذه الحركة تحديدًا، وتثير صخب الصغار المتواجدين في الشارع الذين تتعالى قهقهاتهم مدوية.

صارت "كاملا" عارًا على كل فرد في الحارة.

أحسّ "تشاندر" بالارتياح حين حصل على وظيفة في دكان "السواري". لكنه رفض أن يخبر "كاملا" باسم وعنوان الدكان، حتى لا تقتحم المكان وتتشاجر مع "مهاجان".

لم يعد يشرب بإفراط، كما كان يفعل، وإن لم يتوقف نهائيًا. سعادته بالوظيفة الجديدة جعلته يقرر المحافظة عليه قدر المستطاع.

سرعان ما بدأ "تشاندر" في تجاهل زوجته تجاهلًا تامًا. أهملها بـشكل كامـل، وانـدمج في حياته الجديدة بعيدًا عنها، واعتمد على المطاعم الصغيرة والأكشاك في تناول طعامه.

صار من النادر أن يتبادل مع "كاملا" أيّ حديث.



اليوم.. شربت "كاملا" أكثر من المعتاد. جلست على الأرض في بيتها القذر. كانـت في حالـة ثمالة بالغة، تبكي وتغصّ بالبكاء والنحيب. الثياب القذرة ملقـاة بـإهمال عـلى الأرض. الـروائح العطنة تنبعث من الأواني غير المغسولة. لم تستحم "كاملا" منذ ثلاثـة أيـام، وانبعثـت منهـا – هي أيضًا – رائحة كريهة جدًا. كان جلدها ملتهبًا في بعض الأمـاكن، لـشدّة الحـرارة؛ وشـعرها مهوشًا وعيناها وحشيتين.

تلاحقت الأفكار العشوائية في رأسها، إلا أن فكرة واحدة ظلت هي المسيطرة عليها. نعـم! لقد توصلت أخيرًا إلى الأشخاص المتسبّبين في كل هذه المشكلات.

لن تدعهم يعيشون في سلام بعد اليوم.

اندلع الغضب المعتاد داخل جسدها.

حاولت أن تقف على قدميها.





في منزل مسز "جوبتا"، اكتشفت "شيلبا" المتزوجة منذ خمسة أشهر أنها حامل.

حين دخلت "شيلبا" على أهل زوجها، عقب زفافها، كانت قلقة ومتخوفة، كأيّ عروس. أدركت أنها لن تواجه أي متاعب مع زوجها "تارون". رجلٌ طويل ووسيم، ولديه مصنع كبير يقضي فيه معظم ساعات اليوم، بصحبة والده. لا خوف منه أو من أبيه. لكن أمه مسز "جوبتا" هي مصدر القلق. هل ستواجه معها المشكلات التقليدية؛ الاضطهاد ومحاولات السيطرة وفرض الرأي، ونظام تسيير المطبخ؟

لكن، حتى لو لم تتسبب المرأة الكبيرة في إثارة المشكلات، كيف لها أن تصل لمستواها في الذكاء والحكمة والفطنة وسعة الاطلاع؟ كل من في المدينة يعرف عنها تلك الصفات.

أما "شيلبا" فتعرف قدراتها المحدودة جيدًا. كانت تنجح في المدرسة بصعوبة، دون اهتمام حقيقي بالتعلّم أو استذكار الدروس. والعام الوحيد الذي أمضته في الجامعة، مرّ بالطريقة نفسها. طوال عمرها، كانت في انتظار الزيجة الرائعة التي سيدبّرها لها أبواها.

لم يكن للدراسة والشهادات أهمية تذكر، لها أو لغيرها من بنات رجال الأعمال الكبار. لكنهن - على كل حال - يمتلكن صفات ومهارات أخرى، تعوّض عدم تميزهن الأكاديمي.

أما هي، فتفتقر لخفة ظل بنات عمها وقريباتها، ومرحهن التلقائي، ومواهبهن المتعددة. كما أنها ليست باهرة الجمال، وشعرها خفيف بعض الشيء؛ والأسوأ من كل ذلك هو لغتها الإنجليزية الضعيفة.

ميزتها الكبيرة، والوحيدة ربما، هي أن والدها رجل أعمال معروف وواسع الثراء.

كانت متيقنة تمامًا من أن أسرتها ستنجح في أن تعثر لها على عريس ممتاز. ولقد نجحوا في ذلك فعلًا.

اختار والداها "تارون جوبتا"، الابن الأكبر للعائلة الشهيرة. ليس في الإمكان الحصول على زوج أفضل منه. كما أن بنات عمها صرّحن بأنه يشبه على نحوٍ ما النجم السينمائي "سلمان خان". لم تره سوى مرة واحدة، حين ذهب لزيارتهم مع والدته. تبادلا حديثًا مقتضبًا لخمس دقائق، ثم أعلن كل منهما موافقته على الآخر.

تميز حفل العرس بتكاليفه الباهظة. دُعي إليه كبار رجال الأعمال والصناعة في "آمريتسار"، بمن في ذلك "رافيندر كابور"، الذي أعلن لأهل العروس بأن ابنته "رينا" ستتزوج بعد ثلاثة أسابيع. أسرّ لهم بأنه غير مرحّب بتلك الزيجة، لأنها ستتزوج عن حبّ، وليس بالطريقة التقليدية المعتادة. أضاف بعدم رضاه أن العريس ضابط في الجيش.

كان "رافيندر كابور" لا يزال مصدومًا من اختيار ابنته، إلا أنه حاول جاهدًا إخفاء خيبة أمله. قال للضيوف الآخرين إن لديه من المال ما يكفي

للإنفاق على أسرتين، بل على ستّ أسر! وأضاف أن كل ما يهمه هو أن تدوم سعادة ابنته، فقط. أردف بفخر أنها فتاة ذكية، ولذلك فإنه من غير المعقول فعلًا أن يزوجها برجل أعمال، لتبقى حبيسة المنزل.

انزعج والدا "شيلبا" لهذا التعليق، لكن أحدًا لم يجرؤ على إعلان رأي مناقض.

اختتم حديثه بالقول إنه سيعمل على أن تظل "رينا" في المستوى المعيشي نفسه الذي اعتادت عليه، حتى بعد زواجها.

في حفل زفاف "شيلبا" تمّ عقد مجموعة من الصفقات التجارية المهمة، وتوثقت صلات عمل بين المجموعات التجارية المختلفة. وبشكلٍ عامّ. يمكن القول إن الحفل كان ناجحًا جدًا.

أهدى والدا العروس سيارة "أوبل آسترا" لعريس ابنتهما، كما قاما بإحضار مهندس ديكور ليصمّم حجرتها في بيت عائلة "جوبتا" على نفقتهما الخاصّة. قام الأخير باختيار اللونين الـ"بيج" والأخضر الفاتح جدًا، للتصميم الذي نقله عن مجلة أجنبية. اختار الستائر وغطاء الفراش من هذين اللونين. وضع بالغرفة أريكة وثيرة، زيّنها بوسائد مختلفة، وطاولة حديدية ذات سطح زجاجي، وسجادة ضخمة تغطي الأرضية بأكملها. حرص الوالدان أيضًا على تركيب مكيّف هواء جديد في الحجرة.

وبالإضافة إلى تصميم الديكور، وقطع الأثاث الفاخرة، وجهاز التكييف، والسيارة الجديدة، قاما أيضًا بإعطاء ابنتهما مبلغًا ماليًا ضخمًا، والكثير من المجوهرات والملابس الجديدة؛ وحرصا على إهداء العريس وأسرته ثيابًا غالية، وقطع مجوهرات ثمينة.

دخلت "شيلبا" حياتها الجديدة برأسٍ مرفوع.

ومع ذلك، هناك حسابات أخرى على الدوام، حين يتعلّق الأمر بالحموات.

لكن مخاوف العروس الشابّة لم يكن لها أيّ أساس، إذ إن مسز "جوبتا" أكثر دهاءً من أن تبدأ بعداء لا مبرر له مع زوجة ابنها. كانت تعرف الكثير من العائلات التي يرزح أفرادها تحت وطأة خلافات وانقسامات لا سبب حقيقيًّا وراءها. حرصت على أن تعامل "شيلبا"، كما كانت تردد لصديقاتها في الحفلات، كأنها ابنتها.

حرصت على توجيه الفتاة في جميع الأمور؛ الثياب، المكياج، السلوك والتصرفات، ووصفات الطعام أيضًا. فرغم المعاملة الودودة، وضعتها دومًا تحت المراقبة، بنظراتها الحادة؛ كما أحكمت حولها قبضتها الحديدية، في كل ما يتعلق بمظهرها وملابسها وتعاملها مع الآخرين.

لاحظت "شيلبا" ذلك، لكنها تقبّلت الوضع برضاء تام، لأنه أفضل بكثير من تلك المشكلات التي تسمع عنها دومًا، بين الحموات وزوجات أولادهن. وبالإضافة لذلك، أدركت العروس أن مسز "جوبتا" - إن عاجلًا أو آجلًا - سيتقدم بها العمر، وسيكون المصنع والبيت وجميع الممتلكات من نصيبها هي.

وهكذا، امتدت علاقة حسّاسة بين الاثنتين، وتوجب عليهما أن تبقيا طرفي المعادلة متساويين على الدوام، بلمسة هنا وأخرى هناك، وعدم اتفاق على أمرٍ ما.. وموافقة تامّة على غيره؛ وابتسامات متبادلة في كل الأحوال.

بدأت كل منهما في فهم شخصية الأخرى، ورغم أن شيئًا قليلًا من التوتر شابَ علاقتهما، ورغم أن ذلك التوتر سيظلّ مستمرًا بينهما إلى الأبد، فإنهما

كانتـا تمـضيان أوقـاتهما معًـا بلطافـة ومـودّة. فبعـد أن يـذهب الـرجلان إلى المـصنع، وتـأتي الخادمات ويغـادرن بعـد أداء مهـامهن اليوميـة، وعقـب الانتهـاء مـن طهـي وجبـات اليـوم، تجلسان معًا لمتابعة المسلسلات المعادة عـلى قنـاة "سـتار بلـس". وخـلال الفواصـل الإعلانيـة الكثيرة، تقومان بإعداد الشاي وتبادل النميمة.

شخصية مسز "جوبتا"، بطبيعتها، توّاقة إلى المنافسة والكمال، عليهـا أن تكـون الأفـضل في كل شيء؛ فضمن دائرة صديقاتها وقريباتها، تحـب أن تكـون صـاحبة أبهـى ملامـح وتقـاطيع، وأنظف منزل، وأجمل ملابس. ونجحـت في أن تنقـل هـذه الـصفة إلى كنّتهـا ذات الشخـصية الجامدة. استطاعت أن تصقل طباعها، وتدفعها للتحسين من نفـسها ومـن كـل مـا تقـوم بـه. وهكذا وجد هذا الثنائي متعته في التفـوق عـلى أي امـرأة تعرفانهـا. كانتـا تجرّبـان الوصـفات الجديدة، ثم تعبئان الطعام في علب صغيرة، ترسلانها إلى المنازل المجـاورة كــ"بـادرة طيبـة" – كما ترددان – وتتقبلان بعدها ثناء الجارات بمنتهى اللطف. كما تتشاركان في إعداد أقنعة مـن مكوّنات طبيعية، للحفاظ على نضارة بشرتهما، وتضعانها على وجهيهما وهما تتابعان مسلسل "كايونكي ساس بي كابي باهو تي"؛ وفي كـل مـرة تتـساءلان عـن طريقـة اعتنـاء مـسز "سـاندو" ببشرتها لتصبح بهذا الصفاء الأخاذ، واللمعان غير المألوف. ومعًا، تمارسان بانتظام رياضة المشي للحفاظ على قواميهما من الترهل. وبين الحين والآخر، تترددان معًا عـلى متجـر بيـع المنتجـات الصينية التقليدية، لشراء قطع ديكـور مزينـة بنمـنمات دقيقـة، لإضـفاء مظهـر جـذّاب وغـير تقليدي على غرفة الجلوس.



هذا الصباح، أعدّت "شيلبا" طبقًا من المخبوزات للإفطار. كانت قد أخذت دروس طهي لأربعة أشهر قبل زواجها. "مسز سينج كونتيننتال كوكينج كلاس". كانت متلهفة لأن يثير الطبق إعجاب زوجها ووالديه. وهو ما حدث بالفعل.

قامت برفع الصحون عن مائدة الإفطار، فيما كانت حماتها تشرف على قيام الخادمة – التي تأتي يوميًا – بالتنظيف.

قبيل مغادرته للمصنع، أعلن "مستر جوبتا" أنه يشعر ببعض التوعك:

- لستُ على ما يرام. ربما أنا مصاب بشيء ما. نزلة البرد المنتشرة هذه الأيام، على الأرجح. أعتقد أنه من الأفضل ألّا أذهب للعمل اليوم.

ظهر الإنزعاج على وجه زوجته، رغم محاولتها إخفاء شعورها هذا. تنهدت بضيق بالغ. وجوده سيعطّل الروتين اليومي المعتاد، ولكن عليها تقبّل الأمر.

وصلت الخادمة الثانية، التي تتولى إعداد وجبتي الغداء والعشاء، وغسل الأواني والصحون. رافقتها مسز "جوبتا" إلى المطبخ، لتباشر مهامها.

رتّبت "شيلبا" الأسرّة، ثم قامت بمسح الغبار عن التحف المصنوعة من الكريستال، والتماثيل الصينية، وهي الأشياء التي يمنع على الخادمات لمسها. حين انتهت، حملت كوبًا من الشاي لوالد زوجها في غرفته. ثم توجهت إلى حجرتها وجلست على السرير وأمامها كومة من ثياب زوجها. بدأت في طيّها بتمهل، قطعة.. قطعة.

تحب أن تمضي في هذه الغرفة أطول وقت ممكن، فقد صممت بشكل يبعث الراحة في النفس. لم يبخل والداها في إعدادها وتجهيزها.



كانت لا تزال تطوي قمصان زوجها الفاخرة، حين اتصل الطبيب بمسز "جوبتا" ليخبرها بنتيجة التحاليل التي أجرتها زوجة ابنها مؤخرًا.

أسرعت حماتها لتبشّرها، وقد أشرق وجهها بالسعادة.

تفاجأت "شيلبا" بعض الشيء، رغم أن جانبًا بداخلها كان يتوقع الأمر. ابتسمت لحماتها التي احتضنتها وقالت:

- سأذهب الآن لأخبر عمك.

أضافت وهي تربّت على كتفها:

- سنتناقش في كافة التفاصيل لاحقًا يا "شيلبا".

قالت "شيلبا" وقد احمرَّ وجهها خجلًا:

- حاضر.

أحست بالسعادة لنجاحها في تنفيذ الخطوة المنتظرة، وتمنت بشدّة أن يكون المولود ذكرًا، فذلك – وحده – كفيل بتعزيز مكانتها في العائلة.

حين هبطت مسز "جوبتا" إلى الطابق السفلي لإخبار زوجها، وجدته يغالب النعاس أمام شاشة التليفزيون، التي كانت تعرض برنامجًا على قناة "زي تي في".

استغرقت "شيلبا" في التفكير بموضوعات مختلفة تتعلق بحملها؛ كيف ينبغي على الزوجة أن تتصرف حين تكتشف أنها بصدد إنجاب طفل؟ ما الذي يتوقعه الآخرون منها؟ عليها أن تتبع نظامًا غذائيًا معينًا بالطبع. وسوف يتم الاتفاق مع

امرأة معينة لتمسّد لها ساقيها كل يوم. كانت تعرف كـل هـذه الأمـور مـن ملاحظتهـا لبنـات عمها وقريباتها. لكن هناك أشياء أخرى ولا شك. ما هي يا ترى؟

في عائلتها، يقيمون احتفالات خاصة عند إعلان الحمل وعقب الولادة. تـساءلت إن كـانوا يهتمون بإقامة مثيلاتها في هذه الأسرة؟ لو كانوا يفعلون، فإن عليها الاستعداد بملابس جديدة، وطقمين من المجوهرات. فكرت ثانيةً بأن المولود يجب أن يكون ذكرًا، فذلك سـيجعل حياتهـا أكثر سهولة. لم تكن تريد بنتًا.

تواصلت الأفكار في رأسها، الواحدة تلو الأخرى، بينما انهمكت يـداها في ترتيـب القمـصان بعناية. إلى أن سمعت صرخة قوية، بدا أنها آتية من مكانٍ ما. لا يبعد عـن البوابـة الخارجيـة للمنزل.

قامت "شيلبا" من مكانها، واتجهـت نحـو النافـذة. أزاحـت جانبًـا مـن الـستائر الخـضراء، ونظرت للأسفل.

بجوار البوّابة، وقفت امرأة غريبة الشكل، بشعر أشعث. بدا جليًـا أنهـا تنتمـي للطبقـات الدنيا، بثيابها الرخيصة المصنوعة من قماش نايلون رديء.. "سـاري" بنفـسجي بـورود ضـخمة بيضاء اللون. ظلت ترسل نظرات غاضبة من عينيها الحمراوين تجاه جميع النوافـذ. كـان لهـا منظر كلب ضالّ.

صاحت بصوت مرتفع جدًا، وقد غطى الغضب وجهها القبيح:

- أنتم السبب في كل هذا.. أنتم السبب في الشقاء الذي نعانيه. هل تظنـون أن بإمكـانكم أن تعيشوا في سلام بعد أفعالكم تلك؟

أحست "شيلبا" بدهشة بالغة.. من هذه المرأة؟

حرصت على أن تتابع الموقف وهي متوارية خلف الستارة، حتى لا يلمحها أحد.

فجأة.. بدأت المرأة الواقفة خارج البوابة بإطلاق سيل من السباب البذيء والشتائم، بصوت مرتفع. كلمات مخجلة، لم تسمع "شيلبا" بعضها طوال سنوات عمرها أبدًا، وسمعت البعض الآخر بأصوات هامسة من سيدات العائلة المتقدمات في العمر، كنموذج للكلام الذي ينبغي عدم ترديده أبدًا. لأن البنات الطيبات.. المهذبات.. لا يقلنه تحت أي ظرف.

والآن، ها هي تلك المرأة تنطقها وتصيح بها بأعلى صوت، ليسمعها كل الجيران.

أسرعت "شيلبا" بالنزول إلى حيث وقف مستر ومسز "جوبتا"، وهما في حالة من التوتر البالغ والانزعاج.

لم يكن السائق موجودًا بالمنزل، كما خرج الخادم لشراء الخضراوات من السوق.

ازداد صياح المرأة بشكل غير معقول، وبدأت ترجّ البوابة بيديها.

صمتت قليلًا. ثم عاودت توجيه الإهانات لهم:

- آل "جوبتا"!! هه! تظنون أنه اسم عظيم؟ لستم إلا مجموعة من الشحاذين. حيوانات حقيرة تعيش على الجيَف. أنتم أسوأ منا بكثير.

نظرت مسز "جوبتا" لزوجها وقالت بضيق بالغ:

- افعل شيئًا! أرجوك.. أي شيء! لقد سمع الحي بأكمله كل كلمة تفوهت بها هذه المخلوقة! من تكون؟ ماذا تريد؟

كررت رجاءها:

- افعل شيئًا.

خرج زوجها. وقف على مسافة بعيدة من البوابة، وصاح:

- هيه! من أنتِ؟ اذهبي من هنا.. هيا.. ابتعدي.

ثم لاحظ أن العديد من سكان البيوت المجاورة كانوا يراقبون الموقف من شرفاتهم وحدائقهم، باهتمام بالغ؛ فانسحب على الفور وعاد إلى الداخل.

واصلت "كاملا" صياحها:

- عسى أن يحرقكم الرب داخل بيتكم الكبير هذا. أو داخل تلك السيارة الكبيرة. عسى أن تموتوا وأنتم عطاشى. تتوسلون شربة ماء.

حين دخل إلى المنزل، وجد زوجته تحاول الاتصال بابنهما في المصنع، وقد تملكتها العصبية، وشحب وجهها بشكل مخيف. كان الرقم مشغولًا.

واصلت المرأة صراخها:

- ابنكم نذلٌ وشرير مثلكم تمامًا. ترى كيف سيكون الحفيد؟ شيطان؟ هل في أي منكم نقطة دم آدمية؟

واصلت المرأة صراخها الهستيري، بصوت مرتعش.

استحال ذهول "شيلبا" إلى إحساس بالخوف. نظرت بخوف إلى والدي زوجها.

حاولت مسز "جوبتا" الاتصال بابنها مرة أخرى، وهي توشك على البكاء. سألت زوجها:

- من تكون هذه المرأة؟ لماذا تتلفظ بهذه الكلمات الجالبة للنحس في هذا اليوم تحديـدًا، بعد بشرى الحمل؟ علينا أن نقدم القرابين للنار المقدسة لنتخلص من حسدها وشؤمها. وأنـتِ يا "شيلبا". ابتعدي عن الباب والنوافذ.

أومأت "شيلبا" في طاعة، وقد اصفرّ وجهها من فرط القلق. قالت لحماتها:

- إذا كان رقم المصنع مشغولًا، اتصلي بـ"تارون" على الموبايل.

أجابت:

- آه.. نعم.. صحيح.. كيف لم أفكر بذلك؟

راقب مستر "جوبتا" زوجته وهي تبلـغ ابـنهما بكـل مـا يحـدث، وقـد انـسابت دموعهـا. صمتت قليلًا، وأومأت برأسها عدّة مرّات، وهي تصغي لما يقوله على الطـرف الآخـر. لاح شيء قليل من الطمأنينة على وجهها. وضعت السماعة وقالت لزوجها بصوت متهدج:

- "تارون" يقول بإن علينا جميعًا أن نظل بالداخل. يقول إن المرأة قـد تؤذينـا جـسديًا، إذ ربما كانت مختلة عقليًا. سوف يتصل بالشرطة، أكد أنـه يعـرف شخـصًا مـا هنـاك، في القـسم. وقال إنه سيعود إلى المنزل الآن.

قاما بتنفيذ تعليمات ابنهما، الذي اتصل بالشرطة. انتظروا داخل البيت، كفـئران مـذعورة؛ فيما استمرت المرأة في الصياح وتوجيه الإهانات والسباب لهم.

بعد عشر دقائق تقريبًا، وصـلت سـيارة "جيـب" تحمـل شرطيـين. أسرعـا بإلقاء القبض على "كاملا"، وتقييد يديها بالأصفاد، ثم دفعاها داخل الـسيارة. قبل أن ينطلقا بلحظة، اقتربت سيارة "تارون" الذي غادر المصنع على عجالة.

بدا قلقًا، لكنه كان يتصرف بثبات وروية. صافح الشرطيين، وشكرهما، ومنح كل واحد منهما خمسمائة روبية، تعبيرًا عن امتنانه لإسراعهما بالحضور.

أخيرًا، ابتعدت سيارة الشرطة، وأحس الجميع بارتياح عظيم.

حين عاد الخادم وهو يحمل كيسًا يمتلئ بالخضراوات، قابله الجميع بنظرات غاضبة، كأنما ارتكب خطأً جسيمًا بذهابه للسوق. لكنهم لم يقولوا له شيئًا، واكتفوا بإعطائه أمرًا بإعداد فناجين شاي لهم جميعًا.

قالت "شيلبا" التي لا تزال قسماتها تحمل قدرًا غير يسير من التوتر، وهي تضع يدها على بطنها، كأنما تحتضن طفلها القادم:

- لا أدري كيف قالت عنك تلك المرأة كل ذلك الكلام الفظيع؟! أنت أطيب وألطف رجل في هذا العالم!

ابتسم لها زوجها بمحبة. لم يشعروا بالهدوء، إلا حين حمل لهم الخادم الشاي المعطر في فناجين خزفية بديعة، وبدأوا في ارتشافها.

ثم قاموا بزفّ البشرى إليه، وأخبروه بأنه سيصبح أبًا بعد بضعة أشهر. ابتسم ناظرًا إلى زوجته، التي تورد وجهها حياءً.

قرر "تارون" أن يعتبر بقية اليوم إجازة. حين اختلى بزوجته، قال لها:

- لا تقلقي من شيء.

ارتاع من آثار الصدمة التي لا تزال ظاهرة على ملامحها المرتبكة. شعر نحوها بالكثير من الحنان، وقال لنفسه بأنها بالغة الرقة. لماذا كان على تلك المرأة الرهيبة، أيًا من كانت، أن تأتي اليوم تحديدًا، دون بقية الأيام؟

لمس "تارون" وجه زوجته بإحدي يديه، ورفع ذقنها نحوه باليد الأخرى:

- لن أسمح لأحد بأن يجرحك أو يضايقك أبدًا. أنتِ معي في أمان، على الدوام. وتذكري بأن القلق والتوتر سيؤثران سلبيًا عليكِ وعلى الجنين.

أضاف مبتسمًا:

- انسِ تمامًا ما حدث اليوم.

أومأت "شيلبا" بابتسامة عريضة وعينين دامعتين، وقالت:

- ما كان يمكنني أبدًا أن أتمنى زوجًا أفضل منك.

تلك الليلة، اصطحبها للعشاء في المطعم الصيني الجديد، الذي كان رئيس الطهاة فيه من قرية لا تبعد كثيرًا عن "آمريتسار". ارتدت "الساري" الأزرق ذا التطريز المعقد، الذي أهدته إياها حماتها. خلال العشاء، أكد "تارون" لنفسه أن زوجته تتمتع في بيت عائلته بالحياة المرفهة التي تستحقها. كانا قد نسيا الموقف المزعج الذي تعرضوا له جميعًا ظهيرة ذلك اليوم.

وبينما كانا يتناولان عشاءهما، كانت "كاملا" تتعرّض للاغتصاب. من الشرطيين اللذين أحضراها.

بعدها غادر أحدهما (المتزوج) ليعود إلى بيته وزوجته، بينما بقي الآخر في القسم، يشرب خمرًا رخيصًا، ويستمع إلى أغاني الأفلام على الراديو، وهو يمني نفسه بالمزيد من الجنس مع "كاملا" قبل إخلاء سبيلها صباحًا.

صباح اليوم التالي، عادت "كاملا" بخطوات ثقيلة، مترنحة، إلى بيتها.

كان "تشاندر" في انتظارها. قال بغضب: "هل وصلتِ لهذا المستوى المنحط الآن؟" صفعها بقوة، وانسابت الدموع الغزيرة من عينيه الحمراوين.

- تقضين الليل بطوله خارج البيت، وتشربين وتسكرين في مكان لا يعلمه أحد. إن كان لا يزال لديكِ بقية من الحياء يا "كاملا".. اقتلي نفسك.

غادر البيت، وقد أحاطت الهالات السوداء بعينيه الغاضبتين.. الشاردتين.. المهزومتين.

أحاطت الهالات السوداء بعيني "كاملا" أيضًا، إلا أنهما كانتا خاويتين.. فارغتين.





ذلك الصباح، كان شديد الحرارة في "آمريتسار". أكثر حرارة من جميع الأيام التي انقضت من شهر مايو. توجّه "رامتشاند" للدكّان وهو يشعر بانعدام طاقته بسبب الجوّ. كان قد ربّى شاربه ثانيةً، لأنه أحسّ أن شكله يبدو هزليًا دونه. حين أعاده، أحسّ أن وجهه قد استعاد تواضعه القديم. أفقدته حرارة الجوّ شهيته، فصار أكثر نحولًا عمّا كان عليه في الشتاء.

بدأ عمله ذلك الصباح وهو يشعر بخمول شديد. عند الظهيرة، صعد "مهاجان" وهو يتميز غيظًا. لم يأتِ "تشاندر" للعمل، ثانيةً!! ما الذي يحدث بالضبط في هذا المكان؟ هل هذه طريقة للعمل؟ أي شخص آخر، غيره، كان سيطرد "تشاندر" منذ زمن. على "رامتشاند" أن يذهب إلى بيت "تشاندر"، ويجره جرًا إلى الدكّان، أيًا كانت حالته.

وقف "رامتشاند" مصغيًا لخطبة "مهاجان" الطويلة، الغاضبة، باحترام بالغ. لكنه شعر بغيظ شديد لاضطراره لأن يسير كل هذه المسافة إلى بيت "تشاندر". فكر بأن يتذرع بأي حجة حتى لا يذهب، لكنه حين لمح الشرر

المتطاير من عينيّ "مهاجان"، عدل عن الفكرة فورًا. هبط السُلَّم وهو يشعر بانزعاج بالغ. حين خطا خارج الدكان، لفحته الشمس بكل قوتها.

تذكر المرة الأخيرة التي ذهب فيها إلى بيت زميله. تمنى ألّا يكون الرجل ثملًا مثل المرة الماضية. تزايد غيظه، وفكر بأن "مهاجان" أحمق كبير! كيف يتوقع منه أن يجرجر شخصًا ثملًا من منزله إلى باب الدكَّان؟!

لكنه، في نهاية الأمر، استسلم لما أمر به، وسار بخطوات متثاقلة.

سلّطت الشمس أشعتها الساخنة عليه. سال العرق على وجهه، وغطى ظهره وصدره، حتى التصق قميصه بهما. تزاحمت أسراب الذباب في محل الحلواني. انبعثت السخونة من أكشاك الشاي التي مرّ بها خلال سيره، من المواقد الصغيرة بداخلها.

جرّ قدميه المتثاقلتين على الدروب المتربة، وهو يشعر بجفاف بالغ في حلقه. لقد بدأ يومه بداية سيئة. فمنذ اشترى صاحب البيت غسالة ملابس جديدة، قبل بضعة أسابيع، و"سودها" تملأها بالثياب وتشغلها في أي ساعة من ساعات اليوم، غير مبالية بالضجيج الفظيع الصادر عنها، إذ كانت ذات طراز قديم. صار "رامتشاند" يستيقظ بسببها نحو السادسة صباحًا في أيام كثيرة، واليوم كان أحدها.

كلما توغل في الحارات المتداخلة، مقتربًا من بيت "تشاندر"، كلما ازدادت الأماكن قذارة وفقرًا، وأصبحت الدكاكين أقل فخامة عن مثيلاتها الموجودة في السوق الرئيسي. لكنها كلها – رغم ذلك – تعلوها لافتات تحمل أسماءها. أخذ "رامتشاند" يقرؤها بصوت مسموع: "بابّو لصيانة السيارات". "صيدلية ديباك". "دورجا للأجهزة الكهربائية". "جيلميل للأعراس". صار يقرأ بمنتهى السهولة الآن، دون أن يخطئ أو يتلعثم. كان قد قضى الأشهر الخمسة المنصرمة

في القراءة وتحسين قدرته على كتابة الكلمات بطريقة صحيحة، باجتهاد كبير. في غرفته، لا تزال كتبه ودفتره وقاموسه تعتلي المنضدة، وإن بدت أكثر قدمًا وتهالكًا عمًّا كانت عليه في الشتاء. انكسرت زجاجة الحبر الأزرق، فاستبدل بها أخرى من اللون الأسود. صحيح أن حماسه قد فتر بعض الشيء، ولم يعد يدرس بالحماس القديم نفسه، إلا أن اجتهاده ظل قائمًا، وواصل مشروعه الدراسي. شيئًا فشيئًا، أخذ يفك طلاسم الكلمات الغريبة. لا يزال يعاني من عدم فهم الكثير من الكلمات الصعبة، لكنه ظل يتسلح بالأمل. انتهى أخيرًا من حفظ جميع الكلمات التي تبدأ بحرف الـ (A). استغرق الأمر وقتًا طويلًا. أطول بكثير مما كان يتوقع. خمسة أشهر كاملة. لكنه لم ييأس أو يستسلم. أحسّ بارتياح هائل حين وصل للكلمة الأخيرة تحت هذا الحرف: "آزور". حفظ معناها من القاموس: "لونٌ أزرق".

منح نفسه بعدها إجازة دراسية امتدت لثلاثة أيام، ثم بدأ بحرف الـ (B).

واظب على قراءة موضوعات التعبير، ولم يعد يقرأ "فن كتابة الرسائل" إلا فيما ندر، إذ أصبحت الخطابات عديمة المعنى أكثر فأكثر. ابتاع كتابين آخرين، وكان يقرأ أجزاءً منهما بانتظام، رغم حرارة الجو الخانقة هذه الأيام، التي أوهنت عقله، فلم يعد قادرًا على التركيز أو التفكير. وبعد استماعه لتعليقات "مهاجان" المتبرمة، وتأنيبه لهم طوال اليوم، كان يجد صعوبة في قراءة كتبه عند عودته للبيت مساءً. وضايقه أنه لم يتمكن من صبغ جدران حجرته حتى اليوم. لكنه أحس بالسعادة حين استطاع قراءة لافتة جديدة: "ماهيش كيريانا ستور". قال لنفسه مواسيًا إنه نجح على الأقل في التمسك بشيء ما وتنفيذه للنهاية.



خلال الأشهر المنصرمة، انشغل بالكتابين اللذين اشتراهما.

حين انتهى من قراءة "بانديت جواهر لال نهرو"، أو "قائدنا المفضّل"، في "موضوعات التعبير البرّاقة"، أدرك أن هذا الكتاب و"فن كتابة الرسائل" قد أصبحا يثيران الضجر والسأم في نفسه؛ فقام بغزوة جديدة على سوق الكتب القديمة ليختار مؤلفات جديدة.

بدا أول كتاب لمحه، مشوقًا للغاية. كاد أن يشتريه من فوره. لكنه حين قرأ الغلاف الخلفي لـ"حسّن إنجليزيتك" والذي وضعه "د. آجاي راي".. وجد أن لغته الإنجليزية متكلّفة بعض الشيء:

"القدرة على معرفة واستخدام الإنجليزية، هي الوسيلة الصحيحة والمناسبة لنجاحك في مهنتك، وإيجاد مكان ملائم لقدراتك في المجتمع.

النجاح في استخدام الكمبيوتر، مرهون بنجاحك في استخدام الإنجليزية، حيث إن تسعين بالمئة من المعلومات المخزّنة في الأجهزة باللغة الإنجليزية".

توقف "رامتشاند" عن القراءة على الفور. فأولًا، كانت الكلمات المستخدمة بالغة التعقيد. وثانيًا، أثار ذكر أجهزة الكمبيوتر فزعًا عظيمًا داخل عقله الذي ما زال يناضل من أجل تعلّم أسس القراءة والكتابة على الوجه الأكمل.

تصفح الكتاب وتأكدت شكوكه، إذ كانت المحتويات أصعب من مستواه، على الأقل في هذه المرحلة؛ فكل فقرة تتبعها أسئلة وعبارات من نوعية "أجب عما يلي"، أو "صحّح العبارة التالية"، أو "أضف علامات الترقيم".

أعاد "رامتشاند" الكتاب مكانه، وقد فقد بعض حماسه.

لم يكن يعرف معنى "علامات الترقيم" أصلًا!

حوّل انتباهه إلى المطبوعات الأخرى. وجد كتابًا اسمه "اقتباسات لكل المناسبات". لم يفهم معنى كلمة "اقتباسات"، لكنه كان متأكدًا من أنه سيستطيع الحصول عليه بثمن رخيص. قرأ الغلاف، ففهم أن المقصود هو الطرائف والحكم والعبارات التي قالها بعض عظماء التاريخ. أعجبه أن تلك الـ"اقتباسات" تتكون من جمل قصيرة. ليس بحاجة إلى التفرغ ليوم كامل من أجل القراءة، أو إمضاء نهار الأحد بأكمله في الدراسة. سيكون بإمكانه أن يقرأ اقتباسًا واحدًا على الأقل، وهو ينتظر نضوج الأرز مثلًا أو خلال تدفئة ماء الاستحمام أعلى الموقد.

اشتراه "رامتشاند" بعد أن ساوم البائع طويلًا، حتى وصل بالسعر إلى عشرين روبية. كان متأكدًا من أنه سيقضي وقتًا ممتعًا في قراءة هذا الكتاب، واستخلاص الحكمة منه، والاستمتاع بالطرافة التي تضمها صفحاته.

وبحسب الحروف الأبجدية، تم ترتيب الموضوعات المختلفة؛ المقدرة، المِحَن والشدائد، التملّق، الثقافة والآداب، اللباقة، الشباب، الحماس.

أثارت الاقتباسات مشاعر متناقضة في نفس "رامتشاند". لم يفهم بعضها، فتجاوزها لما بعدها. في بعض الأحيان، تخطى موضوعات بأكملها. إما لأنه لم يفهمها على الإطلاق، أو لأنه وجدها غير مثيرة للاهتمام.

اتفق مع بعضها تمامًا، وعارض بعضها بشدّة وبشيء من الغيظ.

قرأ عبارة أعجبته بشدة: "لا قيمة للمقدرة دون فرصة – نابليون". فكّر بأسى أن ذلك صحيح تمامًا. تساءل عمّن يكون "نابليون". خمّن أنه شاعر أجنبي. يا للرأي الصائب! كان بإمكانه أن يذهب لمدرسة إنجليزية، لولا وفاة أبويه.

قرأ بشيء من الشكّ مقولة منسوبة لشخص يدعى "أوجيه"[8] وأيًا من كان "أوجيه" هذا. فإنه تحدث عن الـ"محنة". بحث "رامتشاند" عن الكلمة في القاموس، فاكتشف أنها تعني الشدائد وسوء الحظ.

تنهَّد "رامتشاند"، وواصل القراءة: "الربّ يلقي بالإنسان في المياه العميقة، لا ليغرقه، ولكن لينظفه". فكَّر "رامتشاند" بغيظ: "نعم.. صحيح! وفي بعض الأحيان، ينساهم في تلك المياه إلى أن يتجعد جلدهم، كأيدي النسوة الغسَّالات، فلا يعود لهم أي فائدة في الحياة.. لا لأنفسهم ولا لغيرهم".

تخطى "رامتشاند" جميع الاقتباسات التي جاءت تحت عنوان "أمريكا". حين قرأ المقولات المتعلقة بالـ"استدانة"، لم يملك إلا الإعجاب بها والموافقة عليها. قال شخص يدعى "كارلايل": "الدَين بحرٌ بلا قرار". كان هذا تقريبًا ما اعتاد والده أن يقوله لزوجته، حين كانا يمران بضائقة مالية. "لا تقلقي، يمكننا تدبر الأمر بما لدينا، مهما صَغُر؛ لكنني لن أستدين مالًا من أحد. لا يمكن للإنسان أن يتوقف عن ذلك ما إن يبدأ. سيصبح الأمر عادة سيئة تحيل حياتنا جحيمًا".

كما أن "جوكل" يؤمن بالأمر ذاته، ولطالما ردد: "إنها دوامة يا "رامتشاند"، لا تسمح لها أبدًا بأن تجرفك. دبّر حياتك وفق ما تملك. لا تجعل احتياجاتك تتجاوز حدود النقود التي تحملها داخل جيبك. ما إن يحكم

---

(8) "أوجيه" هو James H. Aughey (1828 – 1911) قس تعرض للسجن والتعذيب، وحكم عليه بالإعدام خلال الحرب الأهلية الأمريكية، لكنه تمكن من الهرب.

المرابون وأمثالهم قبضتهم حولك"، وهنا كان يهز رأسه في خوف، دون أن يكمل عبارته. وكثيراً ما كان ينصحه: "ولنفترض أنك لم تقترض منهم، بل من أصدقائك ومعارفك وأقربائك، سيظل هناك دومًا نوع من الضغوط عليك. من الأفضل للإنسان أن يلبس ثيابًا بالية، ويكتفي بوجبة طعام واحدة في اليوم، وهو مرتاح البال، على أن يعيش في رغد معتمدًا على أموال غيره".

بحلول شهر فبراير، وصل "رامتشاند" إلى الاقتباسات المتعلقة بالـ"ظلام"، بعد أن تجاوز "رأس المال" و"العمل" و"القطط". تساءل عن سرّ الكلام الغريب، غير المفهوم، الذي ورد تحت هذا الباب..

"لا مجال لقطة"[9] - سموليت، همفري كلينكر.

"حتى الملك قد يضطر لمواجهة قطة"[10] - جون هيوود.

الكلام الذي قاله رجال، يفترض أنهم عظماء، عن القطط.. لم يثر إعجاب "رامتشاند".

في شهر أبريل، ابتاع "رامتشاند" كتابًا آخر.

لم يكن ينوي الشراء. كان يقلّب بعض الكتب القديمة في أحد الأكشاك، حين وجده ووقع في غرامه من النظرة الأولى، "كتاب الجيب – العلوم للأطفال". صغير الحجم، له ورق مصقول شديد اللمعان، ويحتوي على صور ملونة ورسوم جميلة، والكثير جدًا من المعلومات. انجذب له "رامتشاند" بقوة.

(9) "لا مجال لقطة": cat هنا بمعنى سوط (كرباج) من تسع عُقد؛ والمعنى أن المكان شديد الضيق لدرجة يستحيل معها تحريك السوط في الهواء.

(10) "حتى الملك قد يضطر لمواجهة قطة ": المعنى أن جميع المخلوقات متساوية، حتى الملك والهرة.

سأل عن ثمنه. كان بمئة وخمسين روبية. أحس بالاضطراب. المبلغ ضخم. لكن البائع قال له بأن الكتاب مستورد، وأعلن تمسكه بهذا السعر. وحتى بعد أن ساومه "رامتشاند" طويلًا، لم يستطع أن يخفض من ثمنه سوى ثلاثين روبية فقط؛ لكنه لم يستطع المغادرة دونه. ثم إنه لم يشترِ كتابًا منذ أكثر من شهرين، حين ابتاع "اقتباسات لكل المناسبات". من حقه الآن أن يصرف شيئًا من النقود، بالتأكيد. لم يكن بحاجة لمزيد من التفكير. دفع ثمنه على الفور.

كان الكتاب مثيرًا ومبهجًا، لدرجة أن "رامتشاند" أصبح ينتزع نفسه انتزاعًا من أمامه كل صباح، للذهاب إلى عمله. والفكرة الوحيدة التي تسيطر عليه في طريقه للبيت كل مساء، هي أنه على وشك قراءة الكتاب مرة أخرى. حتى "سودها"، تمّ إهمالها قليلًا، بسبب "العلوم للأطفال".

يحتوي الكتاب على صور نجوم وكواكب وآلات ونباتات، وصور تشريحية لجسم الإنسان. ويشرح بكلمات، صار بإمكان "رامتشاند" أن يفهمها الآن، كيف تتولد الكهرباء وكيف تعمل فرامل السيارة، وكيف تطير المناطيد، ولماذا تتوسط آلة الجيتار فتحةٌ دائرية، وكيف تتكون أقواس قزح في السماء. يشرح أيضًا كيف تسبح طيور البطريق. لم يكن قد رآها أو سمع عنها أبدًا. تمعَّن في صورتها طويلًا، وهو يشعر بالدهشة. هناك تشابه ملحوظ بينها والنُدّل الذين ارتدوا سترات سوداء وقمصانًا بيضاء في حفل زفاف "رينا كابور".

وضّح الكتاب سرّ بريق الماس، وأورد معلومات أثارت دهشة "رامتشاند" مثل أن جسم الإنسان به ستمائة وأربعين عضلة، وأن البشر يستهلكون الموارد الطبيعية على الأرض بسرعة فائقة، حتى إنه لا أمل في بقاء شيء في المستقبل القريب.

أحبّ "رامتشاند" هذا الكتاب، أكثر من بقية المؤلفات التي اشتراها، وإن أبى الاعتراف بذلك. حين انتهى من قراءته، وضعه أعلى مجموعة الكتب الخمسة التي صار يمتلكها. خمسة! بدأ يعرف إحساس الإثارة الذي يشعر به محبّو وجامعو الكتب.

بدأ يفكر في شراء "مختصر تاريخ العالم للصغار"، لكنه تردد حين عرف أنه بمئة روبية؛ وأخيرًا. قرر أن ينتظر بضعة أشهر قبل الإقدام على هذه الخطوة. تمنى ألا يأخذه أحد حتى حلول شهر أغسطس.



والآن.. خلال سيره باتجاه مسكن "تشاندر"، أحس "رامتشاند" بالرضا عن نفسه وهو يقرأ لافتات الدكاكين، الواحدة تلو الأخرى، دون تباطؤ أو لعثمة، ولا لمرة واحدة.

"ساندرام للآلات النحاسية"، "مخزن سوكفيندر للمعدات"، "مخزن شيف شانكار العامّ". تلاشت اللافتات قبل وصوله للحي الذي يقطنه "تشاندر" بمسافة طويلة. ظهرت بيوت صغيرة جدًا، أقرب ما تكون للأكواخ. دكاكين ضيقة، بائسة، وشبه مظلمة. كانت المنطقة في حال سيئة حين أتى إليها في الشتاء، أما الآن، فإن الصيف حوَّلها إلى جحيم لا يطاق. امتلأت الحارات بروائح عطنة، فظيعة. فاضت أنابيب الصرف الصحي بالقاذورات النتنة المقززة.

حين وصل "رامتشاند" إلى معبد "هانومان"، أحس بأنه يسير منذ زمن. دخل الزقاق المجاور للمعبد. في كوة تتوسط جدارًا متهالكًا، ثبتّ صنبور البلدية العمومي. بجواره، وقفت امرأتان تتشاجران، وكل منهما تلوّح بذراعيها في الهواء وتصيح في وجه الأخرى. لم يتمكن "رامتشاند" من المرور، لأن نسوة أخريات، بالإضافة للعديد من الأطفال، كانوا يسدّون الطريق. صرخت إحداهما:

- هل تظنين أن هذه الحنفية ملك السيد الوالد؟ نحن لا نجد ماءً نشربه أو نطبخ به. وسمو الملكة هنا تحمم أميرها الصغير!

وقف ولد عارٍ، لا يزيد عمره على خمس أو ستّ سنوات بين المرأتين، وقد غطت رغوة الصابون جسده بالغ النحول، بما في ذلك ركبتيه بعظامهما الناتئة، وقدميه اللتين امتلأتا بآثار جروح قديمة. غطت الرغوة أعلى رأسه أيضًا، ولم يظهر منه سوى وجه بائس. أحكمت أمه قبضتها على كتفه، حتى لا يهرب منها، وصاحت:

- إن كنتِ لا تمانعين أن يملأ القمل رؤوس أولادك، أو أن تظل ركبهم سوداء كما "السُّخام". فهذا لا يعني أن نكون جميعًا مثلك!

وضعت المرأة المعترضة يدها على الصنبور بقوة، وصاحت:

- لا داعي لأن تمثلي علينا دور المرأة النظيفة، أو المتدينة مثلًا. كلنا نعرف أنك تتخلصين من القمامة بإلقائها في عرض الطريق.

أجابتها الأخرى:

- وماذا أفعل إذًا؟ لست مثل غيري.

أضافت بلهجة ذات مغزى:

- يعني بعض الناس يصادقون أصحاب دكاكين الأدوات المنزلية فيتلقون منهم مختلف الهدايا مثل صناديق القمامة البلاستيكية.

شهقت وصاحت بغيظ:

- يا "مومس"! ماذا تعنين بالضبط؟!

قالت أم الولد:

- لا شيء. أنا فقط أقول إنني أعرف جيدًا ما يحدث يوميًا عقب مغادرة زوجك للبيت، حين يذهب لبيع الموز؛ ولكن لا تدعيني أفتح فمي!

تعالى صراخهما بشكل هستيري.

ردت الأخرى:

- على الأقل، زوجي لا يقيم علاقات مع الأخريات. أنا أيضًا أعرف ما يدور في بيتكم، ولذلك يستحسن أن تخرسي وتقفلي فمك القذر.

بدا الطفل أكثر بؤسًا الآن. لم يكن يريد الاستحمام أساسًا. بدأ الصابون يجف على جسده. وقفت خصلات شعره المغطاة بالرغوة، في كل اتجاه، وأحسّ بالحكّة في كل جسمه. كان الجو شديد الحرارة، حتى إن العرق بدأ يتكون تحت طبقة الصابون. ظلت أمه ممسكة بكتفه، فيما وضعت الأخرى يدها على الصنبور بإحكام. بدأ بعض الصغار الواقفين في الضحك عليه والسخرية منه. ألقى عليهم نظراته الغاضبة.

سيشهد الزقاق ذلك اليوم المزيد من الشجارات.

شقّ "رامتشاند" طريقه بين جموع النساء والأطفال المتلاصقين. تمّ دفعه من جميع الاتجاهات، وجاهد طويلًا للخروج من بينهم.

أحسّ بالراحة حين وصل إلى باب "تشاندر". قرعه بشيء من التوتر. لم يجب أحد. دق الباب ثانيةً. دفع الباب برفق. لم يسمع أي صوت. أحس بجرأة أكبر. فتح الباب. في البداية، ظن أن لا أحد بالداخل. ثم رآها. تجلس على الأرض،

وهي تسند ظهرها إلى إحدى زوايا الحجرة، وقد أحنت رأسها في صمت تام. كانت تقبض بأصابعها على زجاجة روم، نصف ممتلئة.

الزجاجة ذاتها التي تركها "تشاندر" حين خرج من البيت غاضبًا منذ ساعات.

اقترب "رامتشاند" بحذر من "كاملا"، وهو يغالب شعوره بالصدمة لرؤية امرأة تمسك بقنينة خمر. لم يكن قد شاهد سيدة تشرب من قبل. فتح فمه ليحدثها. كان على وشك أن يناديها بـ"بابي"[11]. لكنه لم يفعل. بدا من الغباء أن يخاطبها بذلك اللقب. "بابي" تقال للسيدات المهذبات، المحترمات، اللاتي يقدمن لك فناجين الشاي، ويزعجنك بأحاديث مطولة عن أبنائهن، ويسألنك بابتسامات ماكرة عن السر في عدم زواجك حتى الآن.

أما هذه المخلوقة الثملة، التي تحملق بعينين لا تريان شيئًا في الحائط المقابل. كيف ينبغي له أن يخاطبها؟

ثم لاحظ هيئتها غير المرتبة، وآثار الدموع على خديها، ووجهها الذي يعتصره الألم. فأدرك مدى تعاستها.

مال تجاهها، ووضع ذراعه على كتفيها، هزّها برفق. لم يصدر عنها أي ردّ فعل. ظلت عيناها الميتتان تحدقان في الهواء. للحظة، أحس "رامتشاند" بالفزع. هل ماتت؟ لكنه يسمع صوت أنفاسها. هزها برفق بالغ، مرة أخرى.

تذكر حين تركها آخر مرة، بعد أن ضربها "تشاندر". عاوده الإحساس بالذنب. كان ذلك المنظر يلاحقه بين الحين والآخر، فيتعمد أن يدفعه بعيدًا إلى أعمق أعماقه. لكن ذلك الإحساس لم يفارقه أبدًا. ظل باقيًا بداخله.

---

(11) "بابي": صيغة احترام لمخاطبة زوجة الأخ الأكبر.

استجمع شجاعته، وجلس على الأرض بجوارها. تحدّث إليها برقة، بصوت مرتجف: "ما الأمر؟ هل أنتِ مريضة؟".

واصلت تحديقها في الفراغ. أحسّ "رامتشاند" بشعور غريب وهو يجلس بجوار امرأة لا يعرفها. ماذا لو عاد "تشاندر" الآن ورآه في هذا الوضع؟ ما الذي سيظنه؟ لكن شيئًا في وجه "كاملا" أسَرَه، وجعله يواصل الجلوس بجانبها في صمت. مرّت دقائق. كان هناك سكونٌ معلّق في جوّ الحجرة. ارتفعت الحرارة، وغرق "رامتشاند" في عرقه، لكنه استمرّ في الجلوس دون أن يفهم شيئًا. لكنه عرف شيئًا واحدًا فقط. عليه ألّا يغادر، لأن هذه المرأة بحاجة إليه.

تنامى الخوف بداخله. لم يعد قادرًا على المغادرة، ولا على البقاء.

لكنه ظل منتظرًا في الحجرة، التي ذكرته بالقبور. عالم منفصل تمامًا عن الشوارع في الخارج، وعن المدينة بأكملها. عالم مثقل بالقنوط، وبالكلمات غير المنطوقة، والدموع غير المسكوبة. كأنك ترتحل إلى الظلام، ثم تصل إلى أعماقه. أصبح عقل "رامتشاند" خاويًا، وجسده ساكنًا. كان ينتظر.

بعد برهة، تحركت. أحدثت عظمة في جسمها صريرًا مسموعًا.

تحدث "رامتشاند" وهو يشعر بالدهشة من جرأته المباغتة: "يمكنك أن تصارحيني بما يضايقك. ربما استطعت مساعدتك".

حتى وهو يتكلم، تمنى في أعماقه أن تواصل التزامها بالصمت، وأن تستمر في التصرف كجثة، حتى يتمكن من التسلل خارجًا، بضميرٍ مستريح.

لكن ما إن خرجت الكلمات من فمه، حتى بدأت المرأة تستعيد شيئًا من إحساسها بما حولها. ثم أبدت تجاوبًا، فببطء شديد أدارت رقبتها تجاهه، دون أن تحرك بقية جسدها، ونظرت إليه. عينان عميقتان، سواد حالك لا نهائي.

حاول الهروب من نظراتها. لكنه لم يستطع النظر بعيدًا. شيء ما في وجهها جعله يواصل الجلوس بجوارها، في سكون تامّ. تحركت شفتاها اليابستان، دون أن يصدر عنهما أي صوت. لاحظ وجود بقعة جافة من القيء أسفل شفتيها. كانت تلبس "ساري" من النايلون الرخيص، لونه بنفسجي وعليه رسومات لورود بيضاء كبيرة. مال طرفه عن كتفها.. فظهرت آثار المزيد من القيء على بلوزتها أيضًا. غطى الزغب ذراعيها؛ وامتد جرح قديم، طويل، في ثنية ذراعها اليسرى.

و أخيرًا، تكلمت. بدا صوتها الأجش قادمًا من مكان بعيد جدًا..

قالت وهي تفتح فمها بالكاد:

- تساعدني؟

عندها فقط، لاحظ على زاويتي فمها جروحًا قطعية ممتدة إلى الخارج، ترسم شبح ابتسامة على شفتيها.

ثم اشتعلت عيناها الميتتان وهي تحدق به. ارتفعت شفتها العليا كاشفة عن أسنانها ونابيها. بدت كحيوان شرس. راقبها "رامتشاند" بخوف. كررت سؤالها بغضب:

- تساعدني؟ أنت تريد أن تساعدني أنا؟!

أحس بالفزع. تمنى لو كان باستطاعته الوقوف، ليهرب من أمامها؛ لكنه شعر بأنه فقد القدرة على تحريك أي عضلة في جسمه. العينان المفرطتان في

السواد كقطعتي فحم، جعلتاه يثبت في مكانه دون حراك. ظل يحملق فيها برعب، وقد أسند إحدى يديه إلى الأرض. تكلمت مرة أخرى. قالت من بين أسنانها المطبقة:

- ما الذي يمكنك فعله؟ أخبرني. ماذا ستفعل؟

ارتفع صوتها فجأة، وصاحت وهي تنتحب:

- تساعدني؟! كيييييف؟

تملَّك الرعب "رامتشاند" تمامًا. لم يعرف كيف يتعامل مع هـذا الموقـف. تـسارعت دقـات قلبه. لِمَ لا يستطيع أن يتركها ويفرّ مـن أمامهـا؟ يهـرب مـن هـذه المـرأة وعينيهـا وسـوادهما الرهيب؟ ومن الروائح المقززة التي تحيط بها؟

لكنه لم يستطع. ظل جالسًا أمامها في جمود.

جسدها، تصرفاتها، الطريقة التي استند فيها جسدها إلى الحائط، كلها أمور جعلتها أقـرب لحيوان يحتضر. صاحت بصوت مرتعش، وقد انبعثت رائحة كحول قوية من أنفاسها:

- هل تريد مساعدتي؟ هل تريد أن تعرف ما فعلوه بي؟ هل تظـن أنهـم اكتفـوا باغتـصابي ثم جعلوني أغادر؟

أضافت وهي تشير بإصبعها إلى حِجرها:

- انظر!

تمعن بنظراته إلى حيث أشارت، دون فهم.

ثم تملّكه رعبٌ حقيقي، لم يعرف أبدًا أنه قادر على الإحساس بمثله. لاحظ أخيرًا أن معظم الورد على الجزء الواقع أسفل منطقة الحوض من الرداء البنفسجي لم تكن بيضاء، بل حمراء. أحمر صَدئ. بقع دم جافة.

كلماتها، عيناها، الورود الحمراء الصدئة، اجتمعت بالترتيب داخل رأس "رامتشاند" وفهم أخيرًا.

بدأ يرتجف بقوة.

كررت ثانية:

- هل تظن أنهم اكتفوا باغتصابي؟! ذاك الآخر. فعل ذلك بعصاه الغليظة، عقابًا لي لأنني ركلته في بطنه.

ظهر شبح ابتسامة ملتوية على وجهها.

زحفت كلماتها لأذنيه، كديدان صغيرة، واستقرت داخل عقله.

أوجعته يده اليمنى، التي كان يستند عليها في جلسته. أحس بألم في رسغه، لكنه لم يستطع أن يتحرك. غابت ابتسامتها غير المكتملة فجأة، وبدأت في البكاء بصوت مرتفع. قالت مرة أخرى:

- عصاه الغليظة.

رفعت الزجاجة إلى فمها، وراحت تشرب منها.

أحسّ "رامتشاند" ببلل في راحة يده التي يتكىء بها على الأرض. لم يتحرك. عيناه أيضًا لم تتحركا. رعب. هل بقع الدم على ثيابها قديمة، أم أنها لا تزال تنزف؟ هل هناك بركة دماء حولها لا يراها؟ هل البلل في كفه ناتج عن عرقه، أم عن دمائها؟ داهمه غثيان قوي. بدأ يرتجف بعنف، وأدرك بعد فترة أن وجهه رطب. فهم أنه كان يبكي

دون أن يشعر. نظر ببطء إلى يده. الألم يمتد في أصابعه، التي أصبحت مفاصلها شديدة البياض. رفع يده ونظر إليها. مجرد بعض الروم الذي انسكب من الزجاجة.

تفحص يده من جديد.

مجرد خمر.

ليس دمًا.

صاحت مرة أخرى:

- تريد أن تساعدني؟

سمع "رامتشاند" صوت بكائه وأنفاسه المتهدجة.

نجح أخيرًا في الوقوف على قدميه. ثم خرج مسرعًا، بأسرع ما في طاقته، إلى الشوارع المزدحمة.

لم يتوقف عن الجري إلى أن وصل إلى حجرته الصغيرة، الآمنة.





في ذات الأسبوع، صدرت رواية "رينا كابور".

لو كانت مؤلفة الرواية فتاة غير متزوجة، من أسرة عادية، ما كان العمل سيلفت الأنظار، وبخاصة في مدينة مثل "آمريتسار"، التي لا يزيد عدد المكتبات الجيدة فيها على واحدة فقط. ولكن بما أن "رينا" كانت عروسًا جديدة، من أسرة ثرية ومعروفة، وامرأة بالغة الأناقة، وتجعّد شعرها وفق أحدث طراز، ولديها رغبة ملحة في لفت أنظار أرقى عائلات المدينة. فقد كان لصدور كتابها صدى واسع. أقيم حفل لتوقيع الكتاب في "نيودلهي"، بالإضافة إلى مؤتمر صحفي، وعدة لقاءات وحوارات في مجلات مختلفة. وحين عادت إلى "آمريتسار"، أقام لها والدها "رافيندر كابور" حفلًا ضخمًا، استقبل فيه رجال الصناعة والأعمال، وكبار الموظفين. كما دعت "رينا" جميع معارفها في الجامعة من أساتذة وطلبة. في هذا الحفل، قدّمت أطايب الطعام التي أعدّها كبير طهاة جُلب خصيصًا من العاصمة، وامتلأت الموائد بأصناف متنوعة من الأجبان المستوردة، وأنواع عديدة من الشوكولاتة الفاخرة.

ارتدت "رينا" ساري من "الشيفون" الأسود الشفاف، المزين بقطع فضية برَّاقة. وبدا زوجها وسيمًا بمشيته المستقيمة، وسترته الـ"بليزر" الكحلية. رجل جيش حقيقي حتى النخاع. علَّق الجميع بأنهما يشكّلان ثنائيًا مبهرًا.

في اليوم التالي، شاهدت العديد من الزوجات الجميلات اللاتي يقاربن "رينا" في العمر، صورها في جريدة "آمريتسار نيوز لاين"، وأحسسن جميعًا بالغيرة والحسد.

خطرت لها فكرة الرواية في يوم زفافها، حين رأت بائع "السواري" يقف مرتعدًا بين رجليّ الأمن، ويدّعي كذبًا أنها هي من وجّه له دعوة للحضور. كم ضحكت مع "تينا" حين عادت لغرفتها! ثم بدأت تفكر به وقد غمرها الفضول. ذهبت لتراه، وتتحدث معه، لتكوّن ملامح الشخصية الرئيسية للكتاب. بدأت تخط المسودات الأولى للعمل خلال شهر العسل، وانتهت من الكتابة بعد خمسة أشهر.

يدور العمل حول شاب يدعى "سيتارام"، يعمل بائعًا في دكَّان "سواري". رجل مرح وذكي ومحبوب ويؤمن بالخرافات. شخصيات الكتاب الأخرى تتكون من رجل زاهد صاحب معجزات، وكلب معتوه، وسيدة في منتصف العمر تعاني من داء السرقة. والشخصية الأساسية الأخرى هي لفتاة قروية يحبها البطل، لها عينان لوزيتان تزينهما بالكحل، وتضع في شعرها عقودًا من الياسمين. تتمايل في مشيتها، وتبتسم ابتسامات فاتنة. ترى أن "سيتارام" تافه بعض الشيء، لكنها تجده حبّوبًا في الوقت ذاته. يلجأ البطل إلى الشيخ الزاهد ليساعده بسحره وأعشابه على الفوز بحبّ الفتاة ورضاها.

الرواية مكتوبة بطريقة جيدة. تبدأ وتنتهي كما يجب. وتتوالى فصولها بانسيابية وتشويق. كما تحتوي على خط كوميدي ظريف.

لاقى العمل ترحيبًا من الصحافة والنقاد، دفع مسز "ساتـشديفا" لقـصّ أفـضل التعليقـات الصحفية ووضعها بفخر بالغ على لوحة الإعلانـات في قـسم اللغـة الإنجليزيـة. وفي كـل مـرة، تقف أعداد كبيرة من الطلبة لقراءتها بشغف وإعجاب.



"رجل الشرطة يلعب دورًا هامًا في خدمة المجتمع".

قرأ "رامتشاند" الجملة في كتاب التعبير، بقلب أثقله الهمّ والألم.

واصل القراءة.

"واجباته صعبة للغاية. يعمل بالنهار أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى يقـوم بـدوريات ليليـة. يحمي رجل الشرطة حياتنا وممتلكاتنا. يلاحق الجناة ويقبض علـيهم. أمَّـا رجـل الـشرطة المـسؤول عـن المـرور، فيقـوم بتيـسير وتنظـيم الحركـة في الـشوارع. يبـدأ يومـه بطـوابير عسكرية، وهو ما يساعده في الحفاظ على لياقته البدنية. يرتدي زيًا من اللون الكاكي، وفي أغلب الولايات يضع أيضًا عمامة من اللونين الأحمر والأزرق. حذاؤه لامـع دائمًـا. جـسمه متناسق وطويل. يلبس حزامًا جلديًا عليه رقمه ومنطقة الخدمة التابع لهـا. يحمـل بيـده أداة غليظة اسمها "باتون".

رفع "رامتشاند" القاموس بجهد. شعر بثقل في أطرافه. وبطريقة آليـة، بحـث عـن معنـى كلمة "باتون".

وجد أنها تعني "عصا".

فكّر بعقل متعب: مجرد عصا.

هذه المرة، لم يكن البحث عن معنى كلمة جديدة في القاموس يحمل أيّ قدر من التشويق والترقب. مجرد عصا. "فعل ذلك بعصاه الغليظة" تردّد الصوت المعذب داخل رأسه.

هاجمته رائحة ذلك اليوم.

زيت طهي أعيد استخدامه مرات كثيرة، مختلط برائحة قيء جافّ.

نعق غراب في الخارج. التفت نحوه، حيث يقف على إطار النافذة، فنظر إليه الطائر بعينيه الصغيرتين. تحرّك "رامتشاند"، فطار الغراب بعد أن أطلق صيحة رعب.

عاود قراءة الموضوع.

"واجبه الحفاظ على النظام والأمن في منطقة عمله. دائم البحث عن الشخصيات الشريرة، مثل السكارى ولاعبي القمار، والنشالين، إلخ.. كما يحرص على تمشيط المنطقة ليلًا. يلقي القبض على اللصوص والمجرمين، ويسجنهم في قسم الشرطة".

لم يستطع "رامتشاند" أن يقرأ المزيد.

كانت الحجرة حارة وخانقة. وجود شباك فيها، لا يغير شيئًا. فحين يبقيه مفتوحًا، تهاجمه أشعة الشمس القوية بنورها الساطع، إلى أن يشعر بالصداع. ويؤلم الهواء الساخن، المندفع عبرها، عينيه ورئتيه. أما حين يغلقه، يصبح الجو خانقًا جدًا.

دارت المروحة ببطء. لها منظم سرعات دائري، مثبّت على لوحة الكهرباء، له خمسة خطوط محيطة بقرصه الأسود – كأنها أشعة الشمس التي يرسمها "مانوج" في كراسته – ولكل منها رقم مكتوب بالطريقة الرومانية. إلا أنه -

ولقدمه الشديد -ليس له تأثير يذكر على سرعة المروحة، التي تصدر أزيزًا رتيبًا، خلال دورانها البطيء، الذي يصبح أكثر بطئًا حين يضعف التيّار الكهربائي.

أحس "رامتشاند" بألم ينتشر في جبينه. لم يعد بإمكانه مواصلة القراءة أكثر من ذلك. تطايرت الكلمات الجوفاء أمام عينيه وداخل رأسه، كأنها ذباب أسود مزعج.

عينا "كاملا" لم تتركاه أبدًا، مهما حاول نسيانهما. لم يعد هناك معنى أي شيء. صار لا يرى إلا هاتين العينين، في صحوه وفي منامه. فقد القدرة على التركيز في كل الأمور. حين كان "مهاجان" يخاطبه اليوم، لم يرَ "رامتشاند" أمامه إلا وجه ينمّ عن الضحالة، والفظاظة، والغباء الشديد. وقف صامتًا دون أن يفهم كلمة واحدة.

عاد الصداع ليهاجمه بضراوة، بعد انقطاع شهور.

حملق دون وعي في كتاب التعبير. جلس على حافة السرير، واستغرق في التفكير. أفكار متداخلة، لا رابط بينها، عن أسنان مبقعة بالـ"بان"[12]، وعن أقمشة حريرية، وذهب، وطاووس راقص. عن ورود بيضاء مرسومة على "ساري"، تحولت دون أن يلاحظ العالم إلى ورود لونها أحمر صَدئ.

أخيرًا، قام من مكانه وأغلق الكتاب. بوجهٍ جادّ وحركات بطيئة يملؤها التصميم، جمع كل ما كان قد اشتراه بحماس منذ بضعة أشهر: "موضوعات التعبير البراقة"، و"فن كتابة الرسائل"، و"اقتباسات لكل المناسبات"، و"كتاب الجيب: العلوم للطفال"، والدفاتر، وزجاجة الحبر والقلم.

---

(12) بان/Paan: أوراق نباتية تُحشى بخليط من جوز الأريكا والتبغ، ويتم مضغها.

أحس بغصّة وهو يضعهم بطريقة مرتبة فوق الرف العلـوي المرتفـع، الـذي لا يـستخدمه أبدًا، حتى لا يعود بإمكانه رؤيتهم أبدًا.

قرر أن يقوم بغسل ملاءة السرير التي تعلوها القذارة. نظر إلى الوسادة فوجـدها مبقعـة بزيت جوز الهند الذي يستخدمه لتصفيف شعره. نزع الغطاء عنها. أعـاد تـسوية انبعاجاتهـا ببعض الضربات السريعة من قبضتيه.

بعدها بلحظات، كان يجلس على أرضية الحمام، يفرك غطـاء الوسـادة بكـل مـا أوتي مـن قوة، مستخدمًا صابونة غسيل زرقاء.

ركّز كل تفكيره في إزالة البقع. لم يعد يرغب في التفكير بأي شيء آخر.





لاحقًا، خلال ذلك الأسبوع، عرف "رامتشاند" كيف ذهبت "كاملا" إلى منزل عائلة "جوبتا"، وكيف ألقي القبض عليها هناك.

امتلأ الدكان بالزبونات ذلك النهار. تقاطرن في مجموعات متوالية، داخلات وخارجات. وكما يحدث أحيانًا، كانت حركة الشراء بطيئة رغم زحام السيدات، اللاتي رحن ينظرن للبضاعة باستياء. يطلبن أشياء عديدة مختلفة، ويقلبنها بأصابعهن، ثم يغادرن بعد نحو نصف ساعة دون شراء شيء.

ازدادت الأمور سوءًا حين تشاجر "جوكل" و"راجيش".

حمل "جوكل" تشكيلة من "السواري" المنسوجة من قماش بالغ الرقة والخفة، ليضعها داخل الخزانة الخشبية. حين فتح بابها، فقد توازنه ووقعت المجموعة بأكملها من يديه. قال "راجيش" بنفاد صبر:

- هل بإمكانك أن تنتبه لما تفعل؟

اقترب منه ليساعده في رفعها عن الأرض، فلاحظ وجود "ساري" من نـوع مختلـف. رفعـه أمام وجه "جوكل" وقال بحدّة:

- ما هذا؟ كيف تهمـل في إعـادة كـل "سـاري" إلى مجموعتـه الأصـلية؟ ولم أوقعتهـا عـلى الأرض بهذه الطريقة؟! أين عقلك؟

لم يهتم أحد بعصبية "راجيش"، ولم يلاحظوا الطريقة التـي خاطـب بهـا زميلـه، ولـذلك لم يتوقع أيّ منهم ردّ فعل "جوكل" الذي أجاب بكبرياء:

- عقلي دائمًا في عملي، وهو ما لا يفعله بعض الناس هنا.

أجابه "راجيش" بنبرات بدت هادئة، وإن اتسعت طاقتا أنفه في غضب:

- ما الذي تعنيه بالضبط يا "جوكل"؟ ما الذي ترمي إليه تحديدًا؟

رد الآخر وهو يستدير عائدًا إلى مكانه:

- أعني ما قلته بالضبط.

- اسمعني، لا يمكنك أبدًا أن تتفوه بمثل هذه العبارات، ثم تعطيني ظهرك، وكـأن شـيئًا لم يكن! أنا أفهم جيدًا ما ترمي إليه.

- عظيم! ما دمت تفهم، فلم تسأل؟

- دعني أخبرك شيئًا يا "جوكل". نحن - وأعني بذلك نفسي و"شيام" - نعمل في هذا المتجر منذ زمن طويل، قبل أن يأتي أيّ منكم هنا. فإن كنت تظن أن بإمكانك أن توجه لنـا إهاناتـك الحمقاء، وأن علينا أن نتقبل ذلك برحابة صدر، فأنت مخطئ حتمًا.

- أعلم جيدًا أنكما هنا منذ أعوام بعيدة، ولعل ذلك هو الذي جعلكما تنسيان كيفية العمل! أنا وحدي أبذل ضعف المجهود الذي تقدمانه أنتما مجتمعَين.

هنا.. بدأ الجميع في الإصغاء بانتباه تامّ.

صاح "راجيش" غاضبًا:

- كفى! هذا يكفي جدًا! لطالما كنا نحن الاثنين لطيفَين معكم جميعًا، ومع ذلك هأنت توجه لي مثل هذا الكلام الذي..

قاطعه "جوكل" بحدّة:

- إذًا فأنت تعتقد أنه طالما قمتما بالتعامل معنا بشكل ودود، وقمتما بالتربيت على رؤوسنا كما يفعل الواحد مع حيواناته، فإن هذا يخولكما لتوزيع مهامكما علينا؟ نعمل نحن كالحمير، بينما تدخنان أنتما السجائر في الخارج! وفي آخر الشهر، تأخذان راتبًا أعلى مما نأخذه نحن.

- لن يمر هذا الموقف بسهولة. صدقني. تذكر ذلك جيدًا.

شعر الجميع بدهشة بالغة للعصبية التي تبادل بها الرجلان عباراتهما الجارحة، رغم ما عُرِفَ عنهما من طباع هادئة.

لكنهما اضطرا إلى تناسي شجارهما، والانهماك في العمل، إذ سرعان ما دخلت مجموعة كبيرة من الفتيات، ومعهن مشرفة ذات جسد ضخم.

بين صخب الفتيات وضحكاتهن المرتفعة، استطاع "رامتشاند" أن يفهم من أحاديثهن المتواصلة أنهن طالبات بالسنة الأولى في كلية البنات الحكومية. كن جميعًا من القرى المجاورة المحيطة بـ"آمريتسار". يقبل الأهالي على إلحاق

بناتهن بتلك الكلية تحديدًا، لما عُرف عن رئيسة المشرفات على سكن الطالبات من صرامة وحزم وقوة شخصية، وإيمانها بأن الأخلاق أهم من العلم. لم يكن هناك أي مجال لأن تتخذ أي من الفتيات الموجودات تحت إدارتها، صديقًا أو حبيبًا، أو تعرّض سمعة عائلتها لأي سوء.

اتضح أن رئيسة المشرفات مريضة اليوم، وأن التي أحضرت الفتيات هي إحدى مساعداتها. بدت المرأة مرهقة ومنزعجة.

أخبرت ذلك لـ"جوكل"، الذي أظهر تعاطفه معها. قالت أيضًا إن فتاتين من المجموعة تريدان شراء ثياب جديدة تحضران بها الحفل الذي يقام سنويًا للطالبات الجديدات. أضافت معتذرة بأنها لولا ذلك، لما أتت بهن للدكان. أومأ "جوكل" متفهمًا. حين وجدته مصغيًا، راحت تثرثر معه. أخبرته كيف أن السيطرة عليهن أمرٌ بالغ الصعوبة، وبخاصة أن هذه هي نزهتهن الشهرية الوحيدة. فبعد أن يُحبسن في غرفهن لمدة شهر كامل، يصبن بالجنون حين يرين الشارع والأسواق. أسرّت له بأن إحداهن كانت على وشك الوقوع تحت عجلات سيارة مسرعة منذ قليل، لأنها كانت مستغرقة في الضحك وهي تقطع الطريق، دون النظر يمنة أو يسرة. "أخبرني.. لو أن حادثًا وقع لها أو للأخريات.. من غيري سيتحمل مسؤوليته؟".

وفيما راحت تبثّ "جوكل" شكواها ومعاناتها مع البنات، كن هن يتراكضن في أرجاء الدكّان كحيوانات مسعورة. أضافت المشرفة أن هذه المجموعة هي الأسوأ في السكن بأكمله.

أضافت وهي تتنهّد:

- ولكن حين يكنّ مع الرئيسة، فإنهن يلتـزمن الـصمت والهـدوء التـام. كفـئران مـذعورة! ليتني أعرف كيف تفعل ذلك؟

تراوحت أعمار الفتيات بين السادسة عـشرة والـسابعة عـشرة. رحـن يـوزعن ابتـساماتهن للبائعين. وكلما نهرتهن المشرفة، انفجرن في قهقهات متواصلة.

أحس "رامتشاند" ببعض الاطمئنـان، لأنـه لم يكـن الوحيـد الـذي يـشعر بالارتبـاك وعـدم الارتياح؛ فقد وقف "هاري" محمرّ الوجه، وهو يبادلهن الابتسام. وحتى "جوكـل" نفـسه، بـدا مضطربًا بعض الشيء.

أوشك "رامتشاند" بدوره على الابتسام، متأثرًا بكل المرح والصخب الذي يعمّ المكان، لكنـه تذكر فجأة الجدران المغطاة بآثار الدخان الأسود، واستعاد منظر "الساري" البنفسجي. تـساءل ما إذا كانت زوجة "تشاندر" قد عرفت الضحك والمزاح وهي في السادسة عشرة.

ماتت الابتسامة على شفتيه، من فورها.

وزع "هاري" ابتساماته الساذجة على المراهقات مـن حولـه، إلى أن ضربـه "جوكـل" عـلى رأسه، ضربة خفيفة، وقال ناصحًا:

- أزل تلك الابتسامة من على وجهك حالًا، وألقِ بها من هذه النافذة يـا عزيـزي. إيّـاك أن تنظر إلا إلى الأقمشة والأثواب. أنت لا ترغب بالتورط في أي مشكلة، أليس كذلك؟

طلبت الفتيات أن يرين أغلى المنسوجات الخاصة بحفلات الزفاف، وأجـود أنواع الحرير الطبيعي، وأفضل نوعيات أقمشة الـ"كريب". كان ثمن كل قطعـة

منهم، هو أضعاف ما يأخذنه كمصروف جيب، لمدة عام كامل على الأقل. بعد أن يتفحصن "الساري"، باهتمام مصطنع، تقول إحداهن للأخرى:

- خذيه أنتِ. ستبدين جميلة حين ترتدينه.

- كلَّا.. كلَّا.. كيف أحرم صديقتي، حبيبتي، من "ساري" بهذه الروعة؟

- إذًا عليكِ بـ"الساري" الأخضر ذي الحواف الذهبية. مناسب جدًا لحضور امتحان الأدب الإنجليزي! لا يهم بعدها إن سقطتِ ولم تنجحي! على الأقل.. سيتذكرك الناس بعدها لسنوات عديدة!

- اسمحي لي إذًا أن أقترح عليك شراء ذلك "الساري" الوردي. سيلفت نظر حارس السكن لكِ، وسوف يتزوجك من فوره! وعندها ستخرجين وتدخلين متى أعجبك!

- لا طبعًا!! لا يناسبني إلا هذا الحرير البنفسجي! ما أحلاني وأنا أرتديه عندما أسلق حبات البطاطس في منتصف الليل!

لم يعدن يستطعن السيطرة على ضحكاتهن، وترددت قهقهاتهن المرتفعة في أرجاء الدكان.

قالت المشرفة بحزم:

- شيء من الاحترام يا بنات! سأضطر إلى تقديم شكوى مكتوبة للرئيسة عن هذا السلوك المشين. ثم ما موضوع البطاطس المسلوقة؟ أنتن تعلمن جيدًا أن الطهي داخل الغرف ممنوع منعًا باتًا. نقدم لكن طعامًا جيدًا، فما الداعي لأن تقمن بإعداد مأكولات أخرى بأنفسكن؟ وتعرفن أيضًا أن قائمة الممنوعات

تشمل استخدام الدفايات الكهربائية، ومواقد الغاز. والآن، أخبرنني بصراحة تامة، من منكن قالت إنها تطهو البطاطس بعد انتصاف الليل؟ من منكن تعد طعامًا داخل حجرتها؟

أشاحت كل واحدة منهن بوجهها، كأنها لم تسمع كلمة واحدة. وأخيرًا، قالت إحداهن ببراءة مصطنعة:

- كلَّا يا سيدتي.. لم نذكر شيئًا عن البطاطس أبدًا. كنا نقول إن المشرفات الطيبات يبذلن مجهودًا خارقًا في خدمتنا، ويحرصن على ألا نشرب إلا الماء النظيف الذي سبق غليه.

مقولة إن السكن يقدم للفتيات المقيمات به ماءً نظيفًا مغليًا، ليس إلا إحدى الأكاذيب التي تروِّج لها الإدارة؛ ولذلك صمتت المشرفة على الفور.

قالت إحدى البنات العنيدات:

- كنا نتكلم عن الماء المغلي، وليس البطاطس. الماء!

- حسنًا.. هذا يكفي. إن كنتن تردن الشراء، فافعلن ذلك بسرعة. لا تضيعن وقت الجميع.

لكن الفتيات فعلن عكس ذلك تمامًا.

انهمك العاملون كلهم في خدمتهن، إذ رحن يطلبن المزيد من الأقمشة الحريرية باهظة الثمن، ذات التطريز الكثيف. أخذن يضعن أطراف السواري على أكتافهن ويتأملن أنفسهن في المرايا، وهن يتضاحكن.

في نهاية الأمر، اشترت فتاتان منهن "ساريين" من أرخص الأنـواع التـي يعرضـها "سـيفاك – بيت الساري". أحدهما قطنيّ، والآخر مـن النـايلون، وكلاهـما بـألوان فاقعـة للغايـة. خـرجن بمرح، تتبعهن المشرفة المنزعجة. وهن يتخطـين بـاب الـدكان، قمـن جميعًـا بتحيـة "مهاجـان" بتهذيب مبالغ به، وسعدن حين رأين وجهه الذي احمرَّ خجلًا.

خفف وجودهن من الأجواء العدائية التي خلّفها شجار "جوكل" و"راجيش"، وإن لم يقضِ عليه تمامًا.

و أخيرًا، خفّ الازدحام بحلول الساعة الواحدة.

ذهب "رامتشاند" ليجلس بجوار "جوكل". انتظر أن يبدأ زميله الحديث. قال الرجل الأكبر سنًا بعد قليل:

- لا يهمني ما يقولـه أحـد. آن الأوان أن يـصارح أحـدنا "راجـيش" و"شـيام" بـأنهما ليـسا رؤسائنا. ليسا سوى بائعين هنا، مثلنا جميعًا.

ربّت "رامتشاند" على كتفه، وقال:

- انسَ الأمر يا أخي "جوكل". انسَ الأمر برمّته.

أجابه بقلق:

- قال "راجيش" بأن الموقف لن يمرّ بسهولة.. هل تظن بأنه سيشكوني لـ"مهاجان"؟

قال "رامتشاند" بثقة:

- لا أظنه سيفعل. لن يجرؤ. سيخاف من أن يكشف "مهاجان" تصرفاتهما. صحيح أنه يعرف كل ما يحدث هنا، لكنه يتغاضى عما يفعلانه؛ فإن اشتكى أحدهما، فسوف يضطر للمواجهة والحساب. رأيي أن تهدأ وتنسى ما حدث.

نظر إليه "جوكل" بامتنان بالغ، ثم سأله:

- ماذا عنك؟ تبدو مهمومًا. لم ألمح ابتسامتك منذ أيام.

قال "رامتشاند" على الفور:

- لا شيء. لا شيء على الإطلاق.

نظر إليه زميله بعدم تصديق، لكنه آثر ألا يعلّق. قال بعد برهة وهو يطلق تنهيدة عميقة:

- يبدو أن حظنا لن يكون جيدًا هذه الأيام. كل من حولنا يعانون من مشكلة أو أخرى. حتى "تشاندر" في أكثر حالاته بؤسًا. يعاني الأمرّين من تلك الزوجة. إن كان يمكن أن نطلق على مخلوقة مثلها لقب "زوجة"!

تجمّد "رامتشاند" في مكانه لدى ذِكرها، وتساءل بلهفة:

- لماذا؟ ما الذي حدث؟

لم يلحظ "جوكل" تلهف "رامتشاند" لسماع الإجابة. قال بعد لحظة:

- الأمر يا عزيزي يسير من سيئ إلى أسوأ. لا أدري كيف يستطيع هذا المسكين تحمل وجودها في حياته! هل تعلم ما فعلته مؤخرًا؟ لقد أمضت الليل بطوله خارج

بيتها. الليل بطوله!! تخيل؟! وحين عادت صباحًا، رجعت بلا مبالاة. ودون أدنى إحساس بالعار من تصرفها المخزي. ووقفت تنظر إليه. كأنها لم ترتكب خطأ! قام بصفعها ثم غادر البيت. بعدها، تم استدعاءه لقسم الشرطة. أحس بقلق بالغ طبعًا، ولم يعرف التهمة الموجهة إليه. أمثالنا من الفقراء ليس لديهم القدرة ولا الشجاعة على التعامل مع أفراد الشرطة، كما تعرف.

أومأ "رامتشاند" برأسه، موافقًا. تابع "جوكل":

- توجه إلى القسم، قابله أحد رجال الشرطة. "تشاندر" المسكين لا يعرف حتى الفرق بين الرائد والعقيد! المهم أن ذلك الشرطي كان في أقصى حالات الغضب. أخبره بأن زوجته قد توجهت إلى منزل عائلة "جوبتا "، وهي في أقصى حالات الثمالة. تخيل أن تكون في موقفه!! تقف أمام ضابط يخبرك بأن زوجتك أفرطت في الشرب، وقامت بارتكاب فضائح! الأمر كفيل بأن يحطم أقوى الرجال. أخبره الضابط بأنها أساءت التصرف جدًا، بل وقامت بإتلاف بعض ممتلكاتهم. كسرت بعض النوافذ، كما يبدو، وهشمت زجاج سياراتهم. شيء من هذا القبيل. إنهم أشخاص محترمون، كما تعلم. لم يعرفوا كيف يتصرفون. وحين أعيتهم الحيل، قاموا أخيرًا بإبلاغ القسم، فتوجه إليهم هذا الشرطي وزميل له، على جناح السرعة، وقاما بإلقاء القبض عليها.

أضاف:

- هل تتخيل كيف كان يشعر وهو يقف هناك، والضابط يقص عليه كل هذه الفضائح التي ارتكبتها زوجته؟ الزوجة التي اختارها ليمضي معها بقية حياته في وئام؟ ولحسن الحظ، صرفها رجل الشرطة بعد أن وجه لها تحذيرًا شديد اللهجة. طلب منها أن تذهب لبيتها. هذا ما قاله لـ"تشاندر"، كما طلب

منه أن يسيطر عليها، وأن يحرص على أن لا يتكرر منها مثل هـذا التـصرف الأحمـق، حتـى لا يتعاملوا معها بعنف.

قال بعد برهة:

- تصرفوا معها بشكل محترم، وراعوا أنها في نهاية الأمـر مجـرد امـرأة، ولعلهـا أيـضًا المـرة الأولى التي ترتكب فيها هذه التصرفات المشينة. صرفوها فورًا لتعود إلى بيتهـا. لكنهـا فـضلت أن تقضي طوال ساعات النهار والليل في الخارج! هل تصدق ذلك؟!

هزّ "رامتشاند" رأسه. واصل "جوكل" كلامه:

- بطبيعة الحال، أحسّ "تشاندر" بغضب عارم. فكما قلت لك فـإن أمثالنـا مـن الفقـراء لا يستطيعون التعامل مع أفراد الشرطة. أعني أنها لو كـررت تلـك الفعلـة، فقـد يتـورط زوجهـا معهم، دون ذنب. ماذا يفعل؟ إنه دائم التأنيب لها، ويـضربها كثـيرًا دون فائـدة. إنهـا عنيـدة جدًا. شعر باستياء بالغ، فتوجه للصلاة في المعبد القريـب مـن مـسكنه. ومـن فـرط اضـطرابه، لبث هناك ما يزيد على الساعتين، ثم عاد للبيت وقام بضربها ضربًا مبرحًا. مـا الـذي يـستطيع فعله أكثر من ذلك؟ أخبرني. مـا الخيـارات الأخـرى المتاحـة أمامـه؟ عـلى أي حـال، أشـك أنهـا ستتغير. لا عجب أنه كثير التغيب عن العمل، مما يضعه في مآزق دائمة مع "مهاجان".

صمت "جوكل" قليلًا. سعل للحظة، ثم قال:

- صباح اليـوم التـالي، حـضر "تـشاندر" للـدكان في سـاعة مبكـرة، هربًـا مـن وجهها. كما أظن. أنا أيضًا جئت ذلك النهار قبل موعدي المعتاد، لأن "لاكـشمي" كانت ترغب في الذهاب لزيارة إحدى قريباتها، لتبارك لها على مولودها الجديد.

أحضرت لي إفطاري بسرعة، لأخرج وتنتهي هي من مهامها المختلفة قبل موعد الزيارة. يعوقها وجودي عن إنجاز بعض الأعمال المنزلية. فتشعر بضيق بالغ. يزعجني ذلك أحيانًا، ولكنني حين أقارن بينها وزوجة "تشاندر". أحمد ربي كثيرًا على شريكة حياتي. عيوبها قليلة. فعدا عن كونها ثرثارة وعصبية، فإنها امرأة محترمة، طيبة القلب.

سأله بابتسامة خفيفة:

- ألستُ محظوظًا؟

أومأ "رامتشاند" مؤكدًا كلامه. واصل "جوكل" سرد أحداث ذلك الصباح:

- على أي حال، كنا هنا في الدكان أنا وهو فقط. لن تصدق ما حدث يا "رامتشاند". راح الولد المسكين يقص عليّ كل ما ذكرته لك وهو منخرط في بكاء مرير. قلت له بأن الحل الوحيد لمشكلاته مع تلك الساحرة هو أن يهجرها، ويتزوج من أخرى. قال بإنه سيفكر في الأمر.

لاحظ "جوكل" امتقاع وجه "رامتشاند"، فسأله باهتمام:

- ما الأمر؟ لم تبدو حزينًا هكذا؟ كلّا.. تبدو مريضًا. وجهك شاحب جدًا. ربما أنت بحاجة إلى بعض الهواء النقي.

أضاف بمرارة:

- لكن في هذا الدكان، فإن شم الهواء النقي وفترة راحة لتناول الغداء، لمدة ساعتين كاملتين، هي مزايا لا يحظى بها سوى "شيام" و"راجيش" فقط!

لم يعلق "رامتشاند، وظل صامتًا. نظر إليه "جوكل" بدهشة بالغة، وسأله باهتمام:

- ماذا بك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ ما الذي حدث؟

قال "رامتشاند" بهدوء:

- لا شيء.

لكنه، هذه المرة، لم يتمكن من رسم ابتسامة زائفة على شفتيه.

الآن فقط، استطاع أن يخمن ما حدث بالضبط. ظل شاخصًا ببصره في شرود، ثم سأل "جوكل" بصوت مضطرب:

- ولكن لماذا؟ أعني لماذا ذهبت إلى منزل عائلة "جوبتا"؟ ما علاقتها بهم؟

- الأمر كالتالي. قبل عدة سنوات قامت هذه العائلة بمشاركة عائلة "كابور" في إنشاء مصنع للملابس. وقبل أن يأتي "تشاندر" للعمل معنا في الدكان، كان عاملًا هناك. على أي حال، لم يستمر نجاح المصنع طويلًا، وبدأت صفقاته تتعرض للفشل والخسارة، فاضطروا إلى إغلاقه. وكانوا قد توقفوا عن دفع رواتب العمال لثلاثة أشهر متوالية. وكان "تشاندر" في حالة إفلاس تام. ثم لا أدري ما الذي حدث بالضبط. مرض أحدهما، لا أعرف إن كان هو أم زوجته، ومرت حياتهما بمرحلة صعبة للغاية. وبلغني أنه ذهب للسيد "جوبتا" والسيد "كابور" طالبًا منهما بعض النقود، ولو على سبيل الدَّين، إلى أن يعثر على وظيفة جديدة. تعاملا معه بلباقة واحترام، لكنهما أفهماه بأنه يستحيل فعل ذلك، لأنهما إن منحاه شيئًا من المال في صورة قرض، فإن بقية العمال سيتوافدون عليهما للمطالبة بالمثل، وهو ما يعجزان عن فعله. وعدهما "تشاندر" بأنه سيحتفظ بالأمر لنفسه، ولن يخبر أحدًا عنه. لكنهما لم يتزحزحا عن موقفهما، وكانا بالغي الصرامة. يمكن لنا أن نفهم وجهة

نظرهما. ففي نهاية الأمر لا مجال للعواطف في صفقاتهما. كل ما يفكران فيه هو المكسب والخسارة فقط.

أردف قائلًا:

- الحقيقة هي أنني غير ملمّ بالتفاصيل، لكنني سمعت أنه وزوجته كانا يعانيان الكثير في تلك الفترة، واستمرت معاناتهما لمدة طويلة.. إلى أن نجح في الحصول على وظيفة هنا. لكن "تشاندر" تصرف بحماقة، حين أفرط في الشرب مرة، وعاد لبيته ثملًا تمامًا. ذكر لزوجته اسمي أصحاب المصنع، وأخبرها خلال حديثه أين يقطن الرجلين مع عائلتيهما. كان هذا هو كل ما تحتاجه ليشتعل غضبها نحوهما. لم يكن هو مهتمًا بالأمر على الإطلاق. فمثل هذه الأمور تحدث دائمًا، والناس يتناسونها، ويواصلون حياتهم. هذا هو حال الدنيا على الدوام. لكن تلك المرأة الشيطانية، ما زالت رغم مرور تلك الأعوام تحمل في داخلها حقدًا كبيرًا تجاه من اضطروا لإنهاء عقد زوجها كعامل لديهم. ما هذا الجنون؟ إنها لا تتوقف عن سبّ الرجلين أمام الجميع. وأنت تعلم جيدًا أنهما من الشخصيات البارزة والمؤثرة في "آمريتسار"؛ ومن تكون هي؟! لا أحد! تصرفاتها رعناء وغير مسؤولة. كان عليها، على الأقل، أن تفكر في مصلحة زوجها، أليس كذلك؟ أعني أن الجميع يعلم أنه ليس في مصلحة السمكة الصغيرة معاداة التمساح، طالما أنها تعيش معه في المياه نفسها. ولكن من يستطيع إفهام تلك المرأة هذه النقطة؟ إنها مختلة عقليًا، كما أنها لا تتوقف عن شرب الخمور. يا للعار!! الأمر بأكمله شديد الوطأة على نفس "تشاندر". الرب وحده يعلم أي حماقات أخرى ترتكبها حين تثمل.

أنصت "رامتشاند" في صمت. فكر فيها. في المرأة ذات "الساري" البنفسجي، بعظامها الناتئة، وعينيها الخاويتين.

و لأول مرة، يشعر باشمئزاز شديد من نفسه. من تعامله العادي مع مسز "جوبتا"، ومـن حرصه على حضور عرس "رينا كابور"، ومن سعادته لاهتمامها به. اشمئزاز من كونه مَن هو.



في الأيام التالية لهذا الحديث، أصبح "رامتشاند" أكثر انعزالًا مما كان عليه. تسرب إلى قلبه إحساس دائم بأن كل ما حوله خاطئ. شعور مزعج، لا يهدأ أبـدًا. وفي بعـض الأحيـان، يـشعر بالـذنب الـشديد. ربمـا كـان عليـه أن يـتكلم. أن يكـشف الـسر. لكـن، لمـاذا لم تفعـل زوجـة "تشاندر" ذلك بنفسها؟ ربما أرادت أن تبقي الموضوع طيّ الكتمان. في هذه الحالة، عليـه هـو أيضًا أن يحافظ على السر، ويبقى صامتًا.

انعدمت شهيته تمامًا. في بعض الأحيان، سببت له رائحة الطعام حالة من الغثيـان. رافقـه إحساس دائم بالقذارة، حتى بعد أن يستحم بالصابون جيدًا، ويلبس ثيابًا نظيفة. صـار يـشعر بالمرارة في فمه، طوال الوقت. أصبح يشرب كميات أكبر من الشاي، ولم يعد يتحـدث إلى أحـد إلا فيما ندر. حين يخاطبه أحد، يصغي إليه صامتًا.

كـما فقـد رغبتـه الجنـسية في "سـودها". وفي غيرهـا أيـضًا؛ فكلـما أغمـض عينيـه وحـاول الاستسلام لخيالاته المحمومة المعتادة، ومداعبة جسده، علّه يتخلص من كآبته. هاجمته صورة واحدة: بقع القيء اليابسة على بلوزة "كاملا"، والـدم الجـاف عـلى ثوبهـا البنفـسجي. بعـدها يشعر بأن دموعه الحبيسة توشك على حرق عينيه، ويفقد رغبته تمامًا.

في أحد الأيام، شاهد مذعورًا مسز "جوبتا" وهي تدخل الدگّان، ومعها – كالعادة – مسز "ساندو". كان الجميع مشغولين بخدمة الزبونات عداه و"جوكل".

لم يرغب "رامتشاند" في خدمة مسز "جوبتا"، فقام بهدوء وانزوى في أحد الأركان، متمنيًا ألا يلاحظه أحد.

جلست المرأتان أمام "جوكل"، الذي قدم لهما أفضل ابتساماته.

قالت مسز "جوبتا":

- يا إلهي! الجو حار جدًا.

أخرجت من حقيبة يدها منديلًا ورديًا معطرًا، بأطراف محلاة بالدانتيلا، مسحت العرق عن وجهها بحرص شديد، وبخاصة حول شفتيها المصبوغتين. ربّتت بالمنديل حول عينيها بحركات خفيفة، حتى لا يفسد خطوط الكحل السائل المحيطة بهما.

تحولت بشرة مسز "ساندو" البيضاء إلى اللون الأحمر. حركت طرف وشاحها الأزرق المطرز، أمام وجهها كمروحة. سألهما "جوكل" بتهذيب بالغ:

- هل تسمحان لي بتقديم بعض الماء لكما؟

هتفت مسز "جوبتا" من فورها:

- كلّا.. كلّا! هاك..

أخرجت من شنطتها ورقة من فئة العشرة روبيات، وناولتها لـ"جوكل"، وقالت:

- أرسل أحدًا يشتري لنا زجاجة مياه معدنية. باردة. ماركة "بيسليري" فقط.. انتبه!

أشار "جوكل" لـ"هاري"، الذي كان قد انتهى للتوّ من بيع "ساري" لسيدة نحيفة، عـصبية المزاج. اقترب "هاري" بسرور وخيلاء، لأنه قام أخـيرًا ببيـع "سـاري" بمفـرده، دون أن يـساعده أحد زملائه.

ناوله "جوكل" الورقة المالية، وكرر على مسامعه تعليمات السيدة، ثم أضاف هامسًا:

- وعد فورًا. خلال دقيقة واحدة. لا تقم باللـهو في الطرقات، ولا تذهب لشراء "البـاكورا" المقلية.

قال "هاري" بمسكنة:

- ومنذ متى أتصرف أنا بهذه الطريقة يا أخي "جوكل"؟

أضاف مسرعًا:

- ربما يعني فعلت ذلك مرة أو مرتين. لكنني كففت عن هذه التصرفات منذ زمـن بعيـد. دعني أؤكد لك أنني أصبحت مثلًا يحتذى به في النشاط، لعلك لم تلاحظ ذلك مع إنني...

قاطعه "جوكل" بصبر نافد:

- اخرس! لا داعي لهذه التمثيلية الآن. اذهب حالًا ونفذ ما قلته لك.

التفت إلى السيدتين وهو يبتسم ابتسامة عريضة. قالت مسز "جوبتا":

- أحضر لنا بعض "السواري" الصيفية الخفيفة، على ألا تكون من النوع الذي يتجعد بسهولة.

أضافت مسز "ساندو":

- نريدها قطنية. أفضل وأجود المنسوجات القطنية.

أومأ "جوكل" في طاعة، وأشار إلى "تشاندر" الذي كان مشغولًا مع زبونة لحوحة، تساومه على سعر "ساري" مطرز الحواف. فهم "تشاندر" المطلوب، رغم انهماكه في الردّ على المرأة؛ مدّ يده إلى الرف وراءه، وأخرج بضعة "سواري" مطوية بعناية ومحفوظة داخل أكياس بلاستيكية شفافة. ألقاها الواحد يلو الآخر باتجاه زميله الأكبر سنًا، بمنتهى المهارة، فوق رؤوس السيدات. تلقفها "جوكل" بأيدٍ خبيرة. أخرج كل "ساري" من كيسه، وهو يعدّد مزاياه.

عاد "هاري" بزجاجة الماء المعدني المثلج. ظلّ "رامتشاند" جالسًا في الركن، يراقب ما يحدث بصمت، وهو يفكر بزوجة "تشاندر".

هل يعلم "تشاندر" ما حدث بالضبط؟ هل يخبره؟ هل يسأله إن كان يعرف أم لا؟ ولكن كيف يحدث الرجل في موضوع خاص وحميم يتعلق بامرأته؟

نظر إلى وجه مسز "جوبتا" المفعم بالحيوية، وهي تثرثر. هل يخبرها هي؟ ما هو التصرف الأمثل؟

تنهَّد في أسى، ضم ركبتيه إلى صدره وأحنى رأسه عليهما. أحس برغبة في البكاء، في النحيب بصوت عالٍ، حتى يجتمع حوله كل من في الدكان، وعندها سيخبرهم بالموضوع كما حدث. لا شك أن هناك شخصًا ما يمكنه فعل شيء.

هل حقًا سيهتم أحد بما جرى؟

ظلّ "رامتشاند" جالسًا على الفرشة، غارسًا أصابع قدميه العشرة في إسفنجها الليّن.

- "رامتشاند!"

أفاق من شروده على الصوت المفزع الذي ينادي اسمه. رفع رأسه.

وقف "مهاجان" أمامه كعملاق بالغ الضخامة.

- ما هذا؟ المتجر ممتلىء بالزبونات، والجميع منشغل في خدمتهن على قدم وساق، وأنت تجلس هنا مسترخيًا! هل تظن نفسك في حديقة "كومباني باغ" مثلًا؟!

- سيدي.. أنا...

- حسنًا.. حسنًا.. لا أرغب في سماع أعذارك المعتادة. إن لم يكن لديك ما تفعله، فعلى الأقل قم وساعد "جوكل".

استدار "مهاجان" فجأة، وغادر المكان. راقب "رامتشاند" ظهره المترهل، وغمرته موجة جديدة من الكراهية نحوه.

كان على وشك الذهاب إلى حيث يجلس "جوكل" حين دخلت مسز "بنداري" مع مسز "ساتشديفا". بدا الأمر كحلم. يتذكر يومًا مماثلًا. هل كان ذلك ظهرًا أم صباحًا؟ كان شتاءً. حضرت نفس السيدات الأربع إلى الدكان، في ذات اليوم، وقام هو بخدمتهن جميعًا.

أحس بقدر ضئيل من الارتياح، فعلى الأقل هو غير مضطر لخدمة مسز "جوبتا" اليوم.

اقترب من الوافدتين الجديدتين، وهو يرسم على وجهه ابتسامة مغتصبة. لم تنظرا إليه. طافتا بأعينهما على كافة الرفوف، قبل أن تجلسا أمامه وهما تتهامسان؛ على عكس مسز "جوبتا" ومسز "ساندو" اللتين كانتا تتبادلان الحديث بصوت مرتفع ومزعج، يمكن سماعه من أي ركن في المتجر.

قالت مسز "ساتشديفا":

- أرنا بعض "السواري" المطبوعة بطريقة "الباتيك".

أومأ وهو يقوم ليحضر ما طلب منه. تحاشى أن يطلب من "هاري" – الأقرب لرف المنسوجات المطبوعة – شيئًا، حتى لا يضطر لتحمل ابتساماته ودعاباته وصخبه.

بحث قليلًا في محتويات الرف. فيما انتظرت المرأتان. نظر إليه "شيام" نظرة ذات مغزى، مصحوبة بتعبيرات وجه مكفهرة، حتى يذكره بأن ترك الزبونات في حالة انتظار أمر غير مسموح به، على الإطلاق. سياسة الدكَّان هي إغراقهن بأصناف وألوان عديدة من المنسوجات، حتى يضطررن إلى الشراء، ولو كان ذلك لمجرد التخلص من الموقف.

فهم "رامتشاند" النظرة، فسحب عدة أكياس من "السواري" المطوية، وعاد إلى مكانه مسرعًا.

بدأت المرأتان بالطقوس المعتادة. تحسستا الأقمشة بأطراف أصابعهن. تبادلتا بعض التعليقات الهادئة، بأصوات تكاد تكون غير مسموعة. تفحصتا

حوافّ كل "ساري" بدقة بالغة. لم يقل "رامتشاند" الكثير، ولم يحاول لفت أنظارهما إلى مميزات أي "ساري". جلس صامتًا، يناولهما قطعة تلو الأخرى.

نظر إليه "شيام" مرة أخرى. علا العبوس وجهه، ورفع حاجبيه متسائلًا.

في غياب "مهاجان"، يعتبر "شيام" و"راجيش" نفسيهما مديري المتجر في الأوقات التي لا يكونان فيها يشربان الشاي أو يدخنان السجائر.

تعمد "رامتشاند" ألا ينظر إليه، وأشاح بوجهه عنه. حاول أن يحافظ على هدوئه.

تناولت مسز "ساتشديفا" "ساري" بني اللون، وقالت لرفيقتها بشيء من الامتعاض:

- انظري.. إنه مثالي، لولا هذه الحواف العريضة جدًا. أليس كذلك؟

تذكر "رامتشاند" اليوم الذي جلس فيه في منزل عائلة "كابور"، شركاء "جوبتا" في المصنع. هؤلاء الذين لم يعطوا "تشاندر" أجره لثلاثة أشهر متعاقبة. هم من فجّروا غضب زوجته بتلك الطريقة.

انتزعه صوت مسز "ساتشديفا" من أفكاره، كانت تسأله بحدّة بالغة:

- هل سمعت ما قلته لك؟ سألتك إن كان لديكم قماش مماثل، اللون نفسه والتصميم ذاته، ولكن بحواف أقل عرضًا.

هزّ "رامتشاند" رأسه. نظرت إليه بضيق بالغ.

تمعن في التجاعيد التي تعلو جبهتها. تـرى مـاذا سـتقول حـين تعـرف بـالأمر؟ إنهـا سـيدة متعلمة ومثقفة. ثم عبرت رأسه فكـرة أخـرى: هـل تعـرف "رينـا كـابور" أن والـدها لا يـدفع رواتب العاملين لديه، في بعض الأحيان على الأقل؟

هل يخبر هذه السيدة بتفاصيل ما حدث؟ لكنه متشكك في جدوى ذلـك. مـن سيـصدقه؟ فبالنسبة لمسز "ساتشديفا" فإن "رافيندر كابور" هو الأب المثالي لتلميذتها النجيبة.

أحس بألم شديد بين عينيه، فضغط على تلك المنطقة بإصبعيه. لقد أصبح كل شيء مظلـمًا ومشوشًا، فجأة. ماذا يفعل؟ كيف يتصرف؟

"راجيش" وجّه بدوره نظرات مؤنبة لـ"رامتشاند". أحس الأخـير نحـوه بموجـة غـامرة مـن الكراهية. ما هو إلا رجل ثرثار. يتكلم، ويتكلم، ويتكلم. دون أن يتوقف للحظـة ليفكـر فـيما يقوله.

حاول "رامتشاند" أن يتمالـك أعـصابه، وأن يكـون أكـثر انتباهًـا في تعاملـه مـع الـسيدتين الجالستين في مواجهته. أخرج المزيد من "السواري".

هتفت مسز "جوبتا" فجأة:

- أوه! هيللو مسز "بنداري"!

رفعت الأخرى رأسها، متظاهرةً بالدهشة:

- آه! هيللو! لم أركِ حين دخلت. هنا للتسوق؟

فكر "رامتشاند": "يا للسخافة!!.. ما هذا الـسؤال؟ كـل النـساء في الـدكان جـئن ليتـسوقن ويشترين ثيابًا جديدة بالطبع".

قالت مسز "جوبتا" وهي تشير بأصابعها تجاه رفيقتها:

- هل تعرفين مسز "ساندو"؟ زوجها هو كبير المهندسين في مجلس إدارة شركة الكهرباء.

أجابتها مسز "بنداري" بعدم اهتمام ملحوظ:

- أوه.. جيد.

ثم أضافت:

- ولا شك أنك تعرفين مسز "ساتشديفا"، رئيسة قسم اللغة الإنجليزية في...

قاطعتها الأخرى بابتسامة مفتعلة:

- آه.. نعم بالطبع. أتذكرها. لقد تقابلنا جميعًا في الحفل الذي أقامه "رافيندر كابور" بمناسبة زفاف ابنته، أليس كذلك؟

علقت مسز "ساتشديفا" مصححة:

- لكن تلك الفتاة تملك من الذكاء والتميز ما يجعل جميع الناس يعرفونها على الفور إن ذكرتِ اسمها كما هو "رينا كابور". لقد خلقت لنفسها شخصية ناجحة ومستقلة، تجعل الناس بغنى عن تعريفها بـ"ابنة رافيندر كابور".

استسلم الجميع لصمت منزعج للحظات، قطعته مسز "بنداري" حين قالت:

- وكيف حالكِ يا مسز "جوبتا"؟ ما أخبارك؟ كيف زوجة ابنك؟ "شيبرا" كما أظن؟!

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي مسز "جوبتا" وقالت بسرور:

- بل "شيلبا". الربّ كريم. كريم جدًا جدًا. فلنمسك الخشب! إنها حامل. في الشهر الثالث.

ابتسم الجميع عند سماع الخبر السعيد. قالت مسز "بنداري":

- عظيم.. مبارك. إذًا ننتظر منك حفلًا كبيرًا لهذه المناسبة السارة، وليكن ذلك بعد قدوم المولود بالسلامة.

- نعم.. نعم. بالطبع. إنها فتاة لطيفة جدًا. هادئة الطباع، وبالغة التهذيب. والعمل داخل مصنع ابني "تارون" يسير بنجاح، نشكر الربّ. وابني الأصغر يتصل بنا أسبوعيًا من أمريكا.

حدّقت بها مسز "ساتشديفا" لوهلة، ثم حولت نظرها إلى "الساري" المفرود أمامها، وقالت بصوت يقترب من الهمس: "جميل جدًا". ابتسمت مسز "جوبتا" بسرور.

التفتت مسز "بنداري" إلى مسز "ساندو"، وسألتها بصوت ودود:

- وكيف حال أولادك؟

أجابتها بتمهّل وبنبرات هادئة:

- إنهما بخير. ابني الأكبر "مانو".. اسمه "مانديب" على فكرة، ولكننا نناديه "مانو"، انتهى من أداء امتحاناته. سيلتحق بكلية الطب، في جامعة "آمريتسار". وأخيرًا، يمكنني الآن استخدام الخلاط الكهربائي والمطحنة وغسالة الملابس، دون قلق من أن ينزعج من أصواتها. الفضل للربّ طبعًا.

- نعم، الشهادات الجامعيـة في غايـة الأهميـة هـذه الأيـام. ابنتـي "روزي" تـدرس في "دلهي" لنيل شهادة الماجستير. حاولت إقناعها بأن تقدم أطروحتها في الجامعة هنـا، دون فائدة. أصرت على الذهاب إلى "دلهي". هناك عروض زواج كثيرة تقدم إلينا، للاقتران بهـا، لكنها تؤكد أنها ليست مستعدة نفسيًا للزواج الآن. تردد بأن الحياة لا تنحـصر في الـزواج والمال.

أطلقت مسز "جوبتا" تنهيدة ساخرة. قالت رفيقتها ببعض التحفظ، وهي تبتسم بلطف:

- ولكن، صدقيني، شـباب هـذه الأيـام يريـدون كـل شيء. ومهـما أنكـروا وكـابروا، فـإنهم جميعًا يسعون وراء المال. ابني الأصغر، الطالب في الصف العاشر، لديه طلبات كثيرة لا حـصر لها. وآخر ما يلح في طلبه هذه الأيام هو دراجة بخارية! كيف يتعامل الأهل مع ذلك؟

علّقت مسز "جوبتا":

- لكننا لا نقلّ سوءًا عنهم، أليس كذلك؟

أضافت ضاحكة:

- منذ بضعة أيام، ابتعت فرن ميكروويف. وهأنا الآن أفكر في شراء وحدة شواء كبيرة، من النوع الذي يستخدم في الحدائق المنزلية.

قالت مسز "ساندو" باستسلام:

- ماذا نفعل؟ لا يمكن حل هذه المشكلة. كلنا بحاجـة للـمال، عـلى الـدوام، مهـما ادعينـا عكس ذلك!

قالت مسز "ساتشديفا" بنبرات رصينة:

- هذا صحيح. للمال أهمية كبرى في حياتنـا، وبخاصـة للحفـاظ عـلى مـستوى معـين مـن أسلوب المعيشة. ولكن هذا لا ينفـي أن هنـاك أمـورًا أخـرى، لهـا الأهميـة نفـسها في الحيـاة. ودعوني أضرب مثلًا هـو "رينـا كـابور". لا شيء يـنقص هـذه الفتـاة. تمتلـك الـثروة، والجـمال، والأصل العريق؛ لكنها حرصت، مع ذلك، على خلق شخصية متميـزة مـن نفـسها عـبر تـأليف رواية ناجحة، جعلت لها بصمة في عالم الأدب.

نظرت إليهما وسألتهما:

- هل قرأتما كتابها؟

هزتا رأسيهما نافيتين، وتساءلت مسز "جوبتا" ببعض التهكم:

- ومن يملك الوقت لقراءة الأعمال الأدبية؟! بالنسبة لـكِ، الأمـر جـزءٌ مـن مهنتـكِ. لكننـا، وغيرنا، مشغولات بإدارة منازلنا ومتطلباتها التي لا تنتهي، كما تعرفين.

تكهرب الجوّ. وعمّ الـصمت للحظـات. قطعتـه مـسز "سـاتـشديفا" بـسؤال وجهتـه لمـسز "جوبتا"، بأسلوب بالغ اللطف:

- زوجة ابنك صغيرة في السن، أليس كذلك؟

- نعم، عمرها إحدى وعشرون سنة.

- صحيح؟ وماذا فعلت حتى الآن؟

أجابت السيدة الأخرى بارتباك ملحوظ:

- ماذا تعنين؟ لم أفهم السؤال.

- أعني، ماذا حققت؟ ما مؤهلاتها الدراسية؟

- كانت في بداية دراستها الجامعية، لكنها لم تكمل. أعني تمّ الاتفاق على الزواج.. وهكذا...

قاطعتها مسز "ساتشديفا" ببرود:

- أوه..

ثم التزمت الصمت.

ظهر الانزعاج على وجه مسز "جوبتا"، لكنها سرعان ما تمالكت أعصابها، وقالت:

-على أي حال، إنها تعرف جيدًا ما يجدر بها معرفته. ليست من الفتيات اللاتي يعرفن أسماء جميع عواصم العالم، لكنهن يجهلن أنواع البقوليات المختلفة التي يأكلنها!

علقت مسز "بنداري" من فورها:

- وما الذي يمنع أن تكون الفتاة على دراية بالأمرين معًا؟ "روزي" حبيبتي طباخة ماهرة، وطالبة متفوقة في الوقت نفسه. كم اشتقت إليها!

قالت مسز "ساندو" بتعاطف:

- بالتأكيد. لا شك أن غيابها عنك، يسبب لك الحزن، وبخاصة أنها وحيدتك.

أضافت بعد برهة:

- أنا محظوظة لأن الولدين يطيعانني دائمًا. أعني.. أغلب الأحيان.

خلال هذا الحوار، جلس "جوكل" و"رامتشاند" يغالبان الإرهاق والإحساس بـالعجز. راقبـا السيدات الأربع، وتابعا حوارهن، في انتظار أن يتذكرن السواري المفرودة أمامهن.

كثيرًا مـا يتكـرر هـذا الموقـف في الـدكان، حيـث تلتقـي الزبونـات بنـساء مـن معـارفهن، فينغمسن في تبادل أحاديث مختلفة، فيما ينتظر البـائعون انتهـاءهن. لـيس هنـاك مـا يمكـن فعله في مثل هذه المواقف.

في جلسته الصبورة، سرح "جوكل" بخياله، وهو يفكر ويحاول التوصل لقـرار بـشأن موقـد الغاز الذي تطالب به "لاكشمي" منذ شهرين، بإلحاح وغضب شديدين. هل يشتريه لها أم لا؟

بينما استغرق "رامتشاند" في الإنصات إليهن، بمنتهى الحرص. بدا الكلام سـخيفًا، وتعجـب من تفاهة الحياة التي يعشنها. تذكّر عبارة كتاب التعبير: "لكلّ عملة وجهان".

لم يكن في حياتهن متسعٌ لزوجة "تشاندر".

حملق فيهن.

أحس بفراغ، في المكان الذي كان ينبغي أن يمتلئ بالتفهم والمعرفة. ثـم هاجمـه ألمٌ عـاجز في قلبه أو في الجانب الأيسر من صدره، حيث يفترض أن يقع قلبه.

فجأة، التقطت نظرات مسز "بنداري" عيني "جوكل"، ثم نظرت إلى الساري البني الذي كانت قد وضعته فوق ساقيها. ضحكت قائلة:

- انظرن إلى حالنا!! لقد نسينا عملية التسوق تمامًا!

قالت مسز "ساندو" بضحكة مماثلة:

- وهو أمر نادر الحدوث!

واصلن عملية الشراء. انتهت مسز "ساتشديفا" ومسز "بنداري" من خطوة اتخاذ القرار. اختارت كل منهما "ساري" واحدًا برسوم "الباتيك" التقليدية. أحدهما بنفسجي فاتح، والآخر أزرق سماوي؛ وخلال ذلك عاودتا التهامس. قالت مسز "ساتشديفا" باستياء:

- هؤلاء النسوة!! كلهن سواء. لا شيء داخل تلك الرؤوس سوى المال والتفاهات. لماذا ينبغي علينا أن نبادلهن الحديث، في الأساس؟

لم ينجح "رامتشاند" في التقاط كل ما أجابت به مسز "بنداري". لكنه سمع العبارة الأخيرة فقط:

-.. ففي نهاية الأمر، نحن نعيش معهن في المدينة ذاتها. نلتقي بهن مصادفة، في أوقات كثيرة. علينا أن نتعامل معهن بشكل يتسم بالرقي والتحضر.

أومأت مسز "ساتشديفا" باستسلام، وأشارت إلى "رامتشاند" أن يضع لهما "الساريين" في كيسين.

قبل أن تغادرا المتجر، لوحتا بأيديهما للمرأتين الأخريين، وخرجتا مبتسمتين. وعلى الفور، التفتت مسز "جوبتا" لمسز "ساندو" قائلة بانزعاج شديد:

- يا لهاتين المخلوقتين! لا أجد سببًا لهذا الغرور والتعالي اللذين تتعاملان بهما مع الناس. مسز "ساتشديفا" هذه مجرد امرأة عاقر، وزوجها ليس أكثر من أستاذ جامعي مثلها تمامًا، لا أدري في أي جامعة. أعني أنها ليست ذات قيمة. وتلك الأخرى. مسز "بنداري"! صحيح أن زوجها نائب المفتش العام للشرطة، لكن ابنتهما "روزي" التي لا تتوقف عن التباهي بها على الدوام في حوالي السابعة والعشرين، كما أظن، ولم تتزوج بعد!! وتظل الأم تتحدث عن "الخطّاب الكثيرين" و"عروض الزواج الممتازة"! لا شيء من ذلك صحيح طبعًا. ولذلك أرسلتها إلى "دلهي"، لتنال المزيد من الشهادات عديمة الجدوى. وتصدع رؤوسنا بدرجات ابنتها العلمية! ومع ذلك تمتلكان الجرأة والوقاحة للتحدث معنا وعنا بهذه الطريقة السخيفة!

أضافت بغضب:

- حين فشل الثعلب في الحصول على العنب.. قال إنه حصرم!

حافظت مسز "ساندو" على هدوئها المعتاد، وقالت:

- لا بأس. كل هذا لا يهم. ما لنا نحن وطريقة تفكيرهما أو كليمهما؟ إنهما تشعران بالغيظ. علينا أن نشكر الرب على جميع نعمه علينا، وأن لا نلتفت لأي أمر آخر.

غادرتا الدكّان بعد قليل، وكل منهما تحمل "ساري" باهظ الثمن، بدلًا من "السواري" القطنية التي أتين لشرائها في الأساس. اختارت مسز "جوبتا" "الساري" نفسه الذي أثار إعجاب طالبات كلية البنات قبل بضعة أيام، بنسيجه بالغ الرقة؛ فيما اختارت مسز "ساندو" واحدًا ورديًا مُزيّنًا بخيوط فضية وذهبية.

ما إن خرجتا، حتى زفر "جوكل" بضيق، وقال:

- يا للكائنات المزعجة!! ما هـذا الـصداع؟ إن لم يتبـاهين بمنـازلهن الفخمـة، تحـدثن عـن أزواجهن. إن لم يكن الكلام عن الأزواج الرائعين، فعن الأبناء الأكثر روعة!

التفت إلى "رامتشاند" وسأله فجأة:

- هل تظن أن شراء موقد غاز حديث، أمرٌ صائب؟

أجابه بصوت يكاد لا يسمع:

- لا أعرف شيئًا عن مواقد الغـاز الحديثـة يـا أخـي "جوكـل". أنـا أسـتخدم واحـدًا يعمـل بالكيروسين.

طاردته صور موقد الكيروسين، و"الساري" البنفسجي بوروده البيضاء. تلك الـورود. سـارع بالتوجه إلى الحمام الصغير الملاصق للمخزن العلوي، وأقفل بابه، ثم انخرط في البكاء بحرقة.

حين هدأ قليلًا، مسح وجهه بمنديله، وخرج ليجلس في مكانه المعتاد.





أخيرًا، اتخذ "رامتشاند" قراره. سيقوم بذلك. أحس بأنه أهم قرار في حياته. لم يعد يتحمل زيف شخصيته أكثر من ذلك. قرّر - وهو من يشعر بالارتباك حين يعرض الأقمشة الجميلة على الزبونات - أن يستجمع شجاعته الأدبية، وينتزعها من زوايا عقله وروحه، ليقوم بما يتوجب عليه فعله. سينتظر أقرب فرصة تزور فيها مسز "ساتشديفا" بصحبة مسز "بنداري" الدكَّان. الأولى سيدة متعلمة ومثقفة جدًا، والثانية زوجة نائب المفتش العام للشرطة. والأهم، أنهما امرأتان. هذا كفيل بأن تتفهما الموضوع.

تغيّر شكله كثيرًا، في الآونة الأخيرة، وصار يسير كما لو كان مريضًا. بعينين غائرتين، ونظرات زائغة، وجسد هزيل. نتأت عظام كتفيه من قمصانه القطنية الخفيفة.

بعد اتخاذ القرار، جاءت مرحلة الانتظار.

فخلال الأيام التالية، شعر "رامتشاند" بالفزع كلما فتح الباب الزجاجي في الطابق العلوي. ينظر بقلق ليرى من سيدخل منه، وقد تسارعت دقات قلبه. وعندما يدرك أنهن زبونات أخريات، ولسن مسز "ساتشديفا" أو مسز "بنداري"، يشعر بشيء من الارتياح. مرت أيام كثيرة دون أن تأتي إحداهما. توقع

"رامتشاند" ظهورهما في أي وقت، فكلتاهما من الزبائن الدائمين للدكان، وقد سمع مسز "ساتشديفا" تقول لصديقتها – أكثر من مرة – إنه من غير الممكن ارتداء الملابس بشكل متكرر في مثل كليتها المرموقة، التي تدرّس بها يوميًا.

في أحد الأيام، نظر عبر شباك الدكان إلى بائع الفاكهة في الشارع وهو يشعر بقلق بالغ؛ كان الرجل يقوم بإصلاح عجلة عربته الخشبية، فيما أحس هو بالتوتر خشية أن تتدحرج أكوام البرتقال المرصوصة عليها.

فجأة، سمع صرير الباب وهو يُفتح. التفت بقوة. رآها هناك. مسز "ساتشديفا". ولكن دون رفيقتها المعتادة مسز "بنداري".

أحس بالارتباك. كان يرغب في التحدث إليهما معًا. تمالك نفسه بسرعة. رآها تتجه نحو "تشاندر"، فهتف على الفور:

- تفضلي يا سيدتي.. تفضلي بالجلوس ها هنا. ما نوع "الساري" الذي تبحثين عنه؟

اتجهت صوبه وجلست أمامه. أخرجت من شنطة يدها كيسًا صغيرًا من المخمل. فتحته بحرص، وأخرجت طقمًا من الذهب متقن الصنع، مكوّن من عقد دقيق، وقرطين مماثلين له. أرتهم لـ"رامتشاند" وهي تشير إلى الفصوص الخضراء الصغيرة التي تزينها، وقالت:

- انظر.. مثل هذه الفصوص بالضبط. درجة اللون نفسها. أريده من "الشيفون" الجيد. لا يهم إن كان القماش منقوشًا أم لا. المهم ألا تكون حوافه بألوان فاقعة.

أومأ "رامتشاند" بعدم تركيز. حمل بعض "السواري" ذات اللون الأخضر، ثم قال لها:

- هلا تكرمتِ بالجلوس بجوار النافذة؟ ستتمكنين من مقارنـة ألـوان الأقمـشة بالفـصوص بشكل أفضل في نور الشمس. يصعب فعل ذلك تحت الإضاءة الكهربائية.

بدت سعيدة لاهتمامه بهذه التفاصيل. اتجهـت نحـو الـشباك، ولحقهـا وهـو يحمـل بـين ذراعيه الكثير من "السواري" بـدرجات متعـددة مـن الأخـضر. جلـس في مواجهتهـا. هنـا، لـن يستطيع أي أحد أن يسمع ما يقولانه.

أطبقت شفتيها في تركيز، وظهرت التجاعيد على جبهتها، وهي تتفحص كل "ساري" جيـدًا، وتحول نظراتها بين لونه ولون الفصوص، عدة مرات.

هذه هي اللحظة المناسبة.

تسارعت دقات قلبه، وتلاحقت أنفاسه في اضطراب. لكنه لن يتهـرب هـذه المـرة.. فعليـه أن يفعل شيئًا.

قال بصوت مختنق:

- سيدتي.. أريد أن أتحدث معك في أمر معين.

ظهرت الصدمة على وجهها. أضاف:

- أمر مهم للغاية.

سألته بارتياب:

- ما هو؟

قال وهو يشير إلى "تشاندر":

- هل ترين ذلك الرجل؟ في أقصى القاعة.

- لا أرى أي رجل هنا.

- أعني البائع يا سيدتي. ذاك الطويل.

- آه.. البائع! نعم. ماذا به؟

- اسمه "تشاندر". أردت أن أخبركِ شيئًا يتعلق بزوجته.

نظرت إليه كما لو كان مجنونًا.

لكنه تجاهل نظراتها، وتكلم. تلعثم قليلًا.. وارتبك في بعض المواقع، لكنه حافظ على ترتيب أفكاره. احمرّت أذناه تمامًا، لكن قلبه امتلأ بشجاعة لم يعرفها أبدًا. قصّ على مسز "ساتشديفا" القصة الرهيبة، الكريهة، بأكملها. ملأ فراغ المواضع الناقصة بعبارات تكمل الصورة.

حملقت فيه مسز "ساتشديفا" بصمت تام.

بعد أن بدأت في استيعاب ما يقول، تحركت الخطوط العميقة التي تغطي وجهها، كماءٍ راكد ألقي فيه حجر. حاولت أن تقاطعه، إلا أنه رفع يده محاولًا أن يكون حازمًا وقويًا، وقال:

- دعيني أكمل.. أرجوكِ.

واصل كلامه، ومع مرور كل لحظة، كان انزعاج مسز "ساتشديفا" يتفاقم. لمح "رامتـشاند" دموعها الحبيسة.

مع نهاية القصة، أحـس بإرهـاق شـديد، ولم يـستغرب الاضـطراب الـذي عـلا وجـه مـسز "ساتشديفا ". لو تعرّض هو نفسه لهذا الموقف، وحكى له أحدهم مثل هـذه القـصة، لانـزعج أيضًا. لكنه لم يكن أبدًا مستعدًا للغضب العارم الذي اندفع تجاهـه منهـا، وقـد احمـرَّ وجههـا من الغيظ الهائل الذي شعرت به. قالت بحدّة، بصوت كالفحيح:

- كيف تجرؤ؟ بياع مثلك يجرجرني إلى هذا الركن القصيّ ليخبرني حكايات قذرة عـن نـوع منحط من النسوة اللاتي يخالطهن!!

حاول أن يتكلم، لكنها قاطعته على الفور:

- أفراد عائلة "جوبتا" أشخاص في غاية الاحترام، وهـم أصدقاء عائلة "كـابور" التـي لا تقـل عنهم احترامًا. هل تعي ما تقول أساسًا؟ وهل تملك دلـيلًا واحـدًا عـلى مـا تفوهـت بـه للتـو؟ ولماذا تخبرني أنا تحديدًا؟ ما شأني بهذه القصص الحقيرة؟!

جعلها السخط تتلعثم وتُتأتئ، وبدت على وشك البكاء.

- سيدتي.. اسمعيني من فضلك. ربما لم تكن عائلـة "جوبتـا" تعلـم أن كـل هـذا سـيحدث للمرأة المسكينة، حين أبلغوا الشرطة عنها. لكنني أؤكد لكِ بأن الشرطيين...

قالت بصوت هامس وهي تكزّ فكيها:

- اخرس!

كانت تخشى أن يسمع من في المتجر حديثهما. أضافت:

- لا أود سماع هذه البذاءات المنحطة، مرة أخرى. هل فهمت؟! لماذا تزعجني بحكاية مثل هذه؟ الأمر لا يعنيني بأي حالٍ من الأحوال.

أعقبت باستنكار ودهشة، كأنما تحدث نفسها:

- ويقول لي هذا الكلام باللغة الهندية!!!

أجابها بيأس:

- قصصت الأمر عليكِ لأنكِ سيدة محترمة، ذات شأن؛ ولأنك صديقة مسز "بنداري"، وهي متزوجة من....

قاطعته بغلظة:

- آه.. هكذا إذًا! تقومون بأفعال مخجلة ومُزرية، ثم تحاولون توريط الأشخاص المحترمين في تفاصيلها القذرة؟!

أضافت مهددة:

- سأقول لك أمرًا واحدًا فقط، فاستمع إليّ جيدًا. إن كررت فعلتك هذه مرة أخرى، فسوف أضطر لإبلاغ مدير الدكَّان، وقد تخسر وظيفتك جراء ذلك. هل فهمت؟

أعادت مجوهراتها إلي الكيس المخمليّ بعناية، وأزاحت "السواري" الخضراء من على ركبتيها، وخرجت من الدكان مسرعة وهي تخشى أن تخذلها ساقاها.



مرّ شهران. حلّ يوليو، لكن "آمريتسار" ظلّت جافة ومليئة بالغبار. تأخرت الأمطار الموسمية. في صباح أحد الأيام شديدة الحرارة، صعد "رامتشاند" السُلَّم الخشبي، ودفع الباب الزجاجي الكبير، ودخل. فوجئ برؤية الجميع يقفون في دائرة صغيرة وهم يتهامسون، وقد ظهر عليهم الوجوم. بدا "شيام" مستغرقًا في التفكير، فيما ظل "راجيش" يومئ برأسه موافقًا على كل ما يقوله "مهاجان". استسلم "جوكل" للصمت وهو ينصت لـ"هاري" الذي كان يهمس في أذنه.

لم يهتم أحد بفتح النوافذ، ما جعل المكان حارًا وخانقًا.

لاحظ "رامتشاند" غياب "تشاندر". غلبه الخوف. خشي أن يرسله "مهاجان" لتلك الحارات الضيقة، ليحضره. قرّر وقد تملكه الرعب أن يرفض، مهما كلفه الأمر. لن يذهب إلى ذلك البيت مرّة أخرى. سيدّعي أنه يعاني من ألم شديد في رأسه. سيقول إنه مريض، وأنه سيعود إلى مسكنه لينال قسطًا من الراحة.

لكن أحدًا لم يوجه له الكلام، وظلوا واقفين يتبادلون الكلام بأصوات غير واضحة.

أشار له "جوكل" بالاقتراب. دنا منهم ببطء، وقد استبدّ به الهلع. سأل زميله:

- ماذا حدث؟ لماذا يتحدث "مهاجان" بهذه الجدّية؟ وأين "تشاندر"؟ هل تمّ فصله من وظيفته؟

أسكته "جوكل":

- اهدأ.. "تشاندر" بخير. لكن زوجته. تتذكرها. أليس كذلك؟ "كاملا"؟ كنت قد حدثتك عنها.

انتظر "رامتشاند" في سكون..

تدخل "مهاجان" مستكملًا حديث "جوكل":

- لقد قُتلت مساء أمس، ولذلك فإن "تشاندر" سيتغيب عن العمل اليوم.

همس "رامتشاند":

- ماذا؟!

أحسّ بدوار شديد:

- لكن، من الذي قتلها؟

لم يجبه أحد، إذ انهمك "جوكل" في تبادل الهمسات مع "هاري".

لم يستوعب عقله ما سمعه. جذب طرف كمّ "جوكل" بإلحاح:

- هل "تشاندر" هو من... أعني.. من الذي قتلها؟

أحس بسخافته. ها هو يتكلم بشكل منطقي في أمر كهذا، ويسأل أسئلة عقلانية.

- كلَّا.. لم يقتلها "تشاندر". انتظر. سأفرغ لك حالًا.. وأخبرك كل شيء.

بدا لـ"رامتشاند" أن شعر "جوكل" اليوم خفيف أكثر من المعتاد، وأنه أكثر بياضًا.

في تلك اللحظة، دخلت سيدة ممتلئة الجسد، ومعها زوجة ابنها التي تماثلها في الحجم. طلبتا "سواري" قطنية مزركشة. تعامل معهما "جوكل" بمودة ولطف وتهذيب، أكثر بكثير مما هو معتاد. أومأ له "مهاجان" برأسه إعجابًا بسلوكه في الاهتمام بهما، ونزل إلى الطابق السفلي راضيًا.

حين هدأ سيل الزبونات في الدكَّان، مع اقتراب الظهيرة، قام "جوكل" بإخبار "رامتشاند" بما حدث. وفقًا لحكايته، فإن "كاملا" واصلت تصرفاتها

الطائشة حتى النهاية. شربت إلى أن ثملت تمامًا، وأصبحت في حالٍ مُزرية، ثم توجهت إلى منزل "كابور" شخصيًا، هذه المرة.

هناك، وقفت أمام البوابة، تصيح بأعلى صوتها. وحين خرج لها السائق والبستاني وبقية الخدم ليمنعوها من مواصلة ذلك السلوك، ويبعدوها عن المكان، قامت بتوجيه السباب لهم. ثم أطلقت المزيد من الشتائم لعائلة "كابور". توقف المارة، ليستطلعوا الأمر. صار الأمر محرجًا جدًا، واضطر "رافيندر كابور" لأن يخرج إليها بنفسه. وما إن لمحته، حتى تناولت حجرًا وقذفته به. أصابه الحجر في جبينه، وأحدثت أطرافه المدببة جرحًا عميقًا في رأس الرجل، الذي راح ينزف. تساقطت قطرات الدماء على قميصه الحريري الأبيض. وقف دون حراك، وقد ألجمته المفاجأة.

في تلك اللحظة، كان مصيرها قد تقرر. خرج الأمر عن السيطرة، ولم يعد بإمكان "رافيندر كابور" أن يظهر أي قدر من التسامح. أصبح الموضوع متعلقًا بكرامته، وصورته في عيون المجتمع. كيف يترك امرأة سوقية مثلها، تواصل حياتها دون عقاب يناسب الجرم الذي ارتكبته؟

نعم، يتلخص الأمر برمته في كرامة هذا الرجل، وشرفه الذي أهين.

حدث كل ذلك صباح الأمس. في السابعة مساءً، اقتحم أربعة رجال مسكن "تشاندر". كانت "كاملا" في البيت بمفردها، في ذلك الوقت. أمسك بها واحد منهم، فيما تفرغ الثلاثة الباقون لتحطيم كل ما في البيت، بما في ذلك جرّة الماء الفخارية. قاموا بإلقاء أدوات المطبخ خارج المنزل، وأفرغوا محتويات برطمانات الأرز والعدس في مقلب القمامة القريب من هناك. كسروا باب البيت، وهشموا زجاج النافذة، والمصباح الكهربائي الوحيد؛ ثم قاموا بسكب الكيروسين الذي كان بداخل

موقد الطهي في أنحاء المكان. تجمع عدد كبير من الناس لرؤية ما يحدث، لكن أحـدًا مـنهم لم يجرؤ على الاعتراض. واصل الرجال الأربعة مهمـتهم، بطريقـة آليـة، دون أي مـشاعر. وخـلال عشر دقائق فقط، كانوا قد قضوا تمامًا على كل مـا في ذلـك المـسكن المتهالـك الـذي لم تـشهد جدرانه سوى البؤس والشقاء.

ثم تفرغوا لضرب "كاملا".

كسروا الترقوة، وركلوها بقوة إلى أن كسروا لها ضلعين. قـذفوها بقـوة إلى الحـائط، فـشُجّ رأسها من الخلف، وتركت دماؤها أثرًا يشبه الجرس، على الجدار ذي اللون الحائل.

ثم قيدوا يديها خلف ظهرها، وجرّوها إلى الخارج، وطافوا بهـا في الحـيّ، ليعـرف الجميـع المصير الوحيد الذي ينتظر من يتخطى حدوده.

وحين خارت قواها تمامًا، أعادوها إلى بيتهـا، وأغرقـوا المكـان بالمزيـد مـن الكيروسـين، ثـم أشعلوا فيه النار.

حين عاد "تـشاندر" إلى منزلـه، عقـب خروجـه مـن الـدكان، لم يجـد سـوى بقايـا زوجتـه المتفحمة.



كانت قصة قصيرة ومختصرة، كمشهد مبتذل في فيلم هندي رخيص.

حكاية صغيرة، يمكن سردها في كلمات معدودة.

لكن الكلمات هاجمت "رامتشند" مرة واثنتين، وثلاثًا؛ كالأمواج التـي تـستمر في العـودة.. لتتحطم على الشاطئ.

لفّ السكون أرجاء المتجر. اهتزّ الرماد على طرف عود البخور. حاولت ذبابة حبيسة أن تطير خارج النافذة المغلقة. تحول الناس إلى أصنام. الزقاق في الخارج، استحال إلى صورة فوتوغرافية مثبتة داخل الإطار الخشبي للشباك. ليس حقيقيًا. كصورة الكوخ المعلقة في حجرته منذ انتقاله إليها. الكلام فقط هو الذي تغيّر. بدلًا من "بيتك.. أينما يكون قلبك"، أصبح "ولداي الصغيران.. لقد ربطوا أيديهما خلف ظهريهما مستخدمين العمائم التي كانا يلبسانها.. بقايا زوجته المتفحمة.. في تلك اللحظة كان مصيرها قد تقرّر".

أدارت الصدمة رأسه لنحو نصف ساعة، بعد سماعه القصة. أعاد سردها على نفسه. اختلطت الجُمَل بعبارات قديمة في عقله. لاحظ بصعوبة أن الباقين كانوا لا يزالون يتبادلون تفاصيل الحكاية بأصوات هامسة.

ثم رأى وجه "هاري" وهو يبتسم ابتسامة ماكرة، أعقبها بالقول: "هل تعرفون ما سمعته أنا؟ لست متأكدًا يعني.. ولكن يقال – كما أخبرني شخص من تلك المنطقة – بأنهم قبل أن يحرقوها، قاموا بجرجرتها في الطرقات وهي عارية تمامًا".

ثم ألقى برأسه للخلف، مطلقًا قهقهة رنانة. لمعت أسنانه المنتظمة. بدا فمه من الداخل ورديًا للغاية.

بعد ثوانٍ معدودة من ضحكة "هاري"، تعجب الجميع من الصوت الذي أصدره "رامتشاند".. نصف شهيق ونصف صرخة. ثم التفت تجاه الباب، وأسرع خارجًا من الدكان. سمعوا وقع أقدامه على السُلّم الخشبي، وعلى عتبة الدكان. أعقب ذلك صمت مطبق.

"هاري" يضحك!

"هاري" يضحك!

سيطرت هذه الفكرة على عقل "رامتشاند" المصدوم. "هـاري" المـرح، الـذي لا يعـرف معنى الهَـمّ.. يـضحك. صـديقه يـضحك. حـين خـرج "رامتـشاند" بخطواتـه المـسرعة مـن "سيفاك – بيت الساري " وهو يكاد لا يبـصر شـيئًا أمامـه، سـيطرت عليـه فكـرة واحـدة فقط. لن يعود لهذا المكان أبدًا. وقف في الشارع، تحت اللافتة التي تعلو الدكّان. يتحـرك الناس من حوله. مئات البشر يطوفون في الطرقات. غربـاء بوجـوه جامـدة. لا يمكـن أبـدًا تخمين ما يدور خلف تلك الملامح العادية.. الطبيعية. كان يتنفس بصعوبة، لكنه لم يبطئ من خطواته. تدافع وسط الناس المتزاحمين، بمنكبيه. هذا هو اسمها إذًا.. "كاملا". لم يكـن يعرفه حتى اليوم.

حين وصل إلى أول الزقاق الذي يقع فيه الدكان، بدأ العـرق الغزيـر يتـصبَّب منـه. أراد أن يبتعد.. بعيدًا عن الجوّ الخانق داخل الدكّان.. بعيدًا عن "هـاري" الـضاحك.. "هـاري" غريـب الأطوار.

تباطأ قليلًا حين خرج من الزقـاق. لم يعـرف مـاذا يفعـل. منعتـه عواطفـه المتـضاربة مـن العودة إلى حجرته.

شعر بأحاسيس قوية. خوف غير عقلاني، وغضب غير مألوف.

ملأت تلك الأحاسيس قلبه وعقله، وغطَّت لسانه. مـشاعر قويـة ولاذعـة.. خلّفـت طعـمًا معدنيًا في فمه. احتلت مكان الارتباك والاغتراب اللذين شعر بهما طـوال عمـره تجـاه حياتـه، وتجاه العالم من حوله.

طاف في السوق بلا هدف.. باحثًا عن شيء يصب عليه غضبه. لأول مرة في حياتـه، يـشعر برغبة عارمة في التشاجر مع أحد؛ وفي الوقت ذاته أحس بشيء من الحنان والعطـف، والرغبـة في حماية كل الضعفاء. امتلأ بالقوة.

نظر إليه كلب ضال.. أجرب، نظرة توحي بأنه يفهمه جيدًا. ملأت القاذورات التي خلفتها عربات الخضراوات أنحاء الشارع.

حاول "رامتشاند" أن يمنع نفسه من البكاء. يكره أن يبكي أمام أي شخص.

مرت ساعة. واصل طوافه في الطرقات بطاقةٍ مكبوتة، داخل كل خلية من خلايا جسده. لم يعد باستطاعته السيطرة على قدميه، كانتا تسيران وفق هـواهما. أخـذتاه إلى نفـس الـشوارع والمعابد والحوانيت.. مرات عديدة.

ثم وقع نظره على مكان مألوف. مطعـم "لاكـان"، بمدخلـه الـذي يعـج بالنـاس، والـروائح المتداخلة للـ"باكورا" الساخنة والخبز الطازج، ورائحة الـشاي الـدافئ الـذي يبعـث الراحـة في النفس. الشخصان الوحيدان اللذان يفتقدان راحـة الـنفس في هـذا المكـان هـما الرجـل ذاتـه وزوجته. عـصفت موجـة مـن التعـاطف الـشديد بقلـب "رامتـشاند" المرتبـك، حيـال الرجـل السيخي الطويل وزوجته المستسلمة لأحزانها.

اندفع داخل المطعم، وهو لا يزال يلهث، ويشعر بـأن مخـه يوشـك عـلى الانفجـار داخـل رأسه.

بحث عن "لاكان"، لكنـه لم يجـده. رأى رجلـين يغمـسان قطعًـا مـن الخبـز في صـحن عـدس، وأمـامهما أطبـاق أخـرى مـن الخـضراوات المطبوخـة. يقـوم عـلى خدمتهما رجل شاب من مـساعدي "لاكـان" الجـدد. لم يكـن في القاعـة الداخليـة

للمطعم أشخاص آخرون، عدا الفتى المنهمك في غسل الأكواب. اقترب منه "رامتشاند" وسأله عن مكان "لاكان". أشار الفتى بذراعه المغطاة برغوة الصابون، قائلًا إنه في منزله خلف المطعم. ودون أن يستأذن "رامتشاند" من أحد، سار باتجاه الباب الخلفي. دخل منه، فوجد نفسه في غرفة صغيرة، جلست فيها امرأة نحيلة سمراء، بشعر أشيب، تحصي أوراقًا نقدية أمامها. كانت تلبس ثوبًا قصيرًا وسروالًا بنقوش متناهية الصغر باللون الأخضر، وتضع على رأسها وشاحًا رماديًا، لا يتناسب مع ثيابها؛ وتضع في أذنيها قرطين كبيرين على شكل حلقة مفرغة.. ذلك النوع الذي تلبسه كل امرأة في عمرها وطبقتها الاجتماعية. بدا أنها تضعهما منذ أعوام عديدة، إذ تحول ثقبا أذنيها إلى خطين طويلين.

و لأنها امرأة عملية بطبيعتها، فإنها لا تكلّ أبدًا من محاولة إعادة النظام إلى حياتها التي غمرتها فجأة سيول الفوضى والألم، عبر القيام بعدّ الدخل اليومي للمطعم. وعبر شراء حبات بصل متماثلة الحجم تمامًا من سوق الجملة. وعبر الحفاظ على البيت الذي يسوده الصمت والكآبة في حالة نظافة دائمة. بالغ اللمعان والترتيب.

في بعض الأحيان، يشعر "لاكان" بالإجهاد من أسلوبها في المحافظة على النظام.

جلس "لاكان" على كرسي خشبي قصير، دون ظهر، على مقربة منها، يسجل الحسابات في دفتر سميك. الأثاث في الغرفة قليل ومحدود. منضدة، وبضعة مقاعد خشبية، وأريكة عريضة مغطاة بمفرش سرير مطرز، لونه أزرق.

علقت على الجدار صورة لـ"جورو ناناك"، يظهر فيها بقسمات مريحة ولحية بيضاء. على الحائط المواجه له، صورتان فوتوغرافيتان مكبرتان لشابين أقرب في عمرهما للمراهقة. أحدهما ينظر للكاميرا، ويبتسم ابتسامة عريضة،

مرتديًا عمامة كحلية وقميصًا بمربعات من اللونين الأزرق والأبـيض. يـستند بجـسده الطويـل، الرشيق، إلى جذع شجرة.

الشاب الآخر، في الصورة الثانية، أصغر سنًا. له وجه مـتجهم، وعمامـة مائلـة، كأنـه تعلـم ارتداءها منذ فترة قريبة.

كلتا الصورتين مؤطرة، ومحاطة بعقود نضرة من الزهور الصفراء.

تفاجأ العجـوزان باقتحـام "رامتـشاند" لمـسكنهما، وشـعرا بـبعض الغـضب، لكـن قبـل أن يتمكنا من قول شيء، عاجلهما "رامتشاند" بالقول:

- أتيت فقط لأقول إنني أشعر بالأسف بشأن ابنيكما. ما كان ينبغي أن يحدث ذلك.

أعقب كلامه صمت وذهول.

نظرا إليه بدهشة بالغة. وجه إليهما – بدوره – نظرات لا تخلو من الجنـون. كـان العـرق قد جعل خصلات شعره تلتصق في مجموعات متفرقة. اغرورقت عيناه بالدموع.

في مثل هذا الموقف، كان يجب أن يشعر بالسخف. إلا أنه أحس بكثير من الراحة.

كسر الصمت صوت بدأ ضعيفًا، ثم تحـول إلى نحيـب عميـق. انخرطـت المـرأة في البكـاء. أحاط زوجها كتفيها بذراعه محاولًا تهدئتها.

نظر "رامتشاند" إلى الصورتين مرة أخرى، وأحس بغضب شديد. يا له من ظلم متواصل! يا لها من طريقة ملتوية للحياة! كل شيء يسير بطريقة خاطئة في هذه الدنيا!

أحـس بالـشجاعة والقـوة والقـدرة عـلى فعـل أي شيء، والـدخول في صراع مـع أي أحـد لتحقيق العدالة، والوصول إلى الحقيقة.

قال بإلحاح:

- لم أحضر لأضايقكما بأي شكل. لا تقلقـا. سـأفعل شـيئًا حـتمًا. لا يمكـن أن تـستمر هـذه الأمور في الحدوث. كل شيء سيتغير في يوم من الأيام.

أضاف مؤكدًا:

- سأفعل شيئًا.

هدأت زوجة "لاكان" قليلًا، وإن ظلـت الـدموع تنـسكب مـن عينيهـا طـوال مـدة زيـارة "رامتشاند" لهما. لم يقل العجوزان الكثير. ظلا ينظران إليه في حزن، بأعين متعبة. قامت زوجة "لاكان" بعد قليل، وهي تمسح دموعها بطرف وشاحها، وعادت بكوب من الحليب لضيفهما.

خلال ذلك، جلس "لاكان سنج" و"رامتشاند" في صمت. أنهـى "رامتـشاند" كـوب الحليـب وغادر بعد لحظات، وهو لا يزال يوزع بينهما نظراته الزائغة.

جلس العجوزان عقب ذلك في صمت حائر مرتبك. ثم تنهد "لاكان" بعمق، وعاد لتـدوين حساباته في الدفتر الكبير، إلا أن زوجته لم تـستطع مواصـلة عـدّ النقـود. أمـضت بقيـة اليـوم جالسة دون أن تفعل شيئًا، وقد وضعت يديها في حجرها.



حين استطاع "تشاندر" المذعور أن ينتـشل بـضع حاجـات مـن بقايـا الحريـق الـذي دمّـر مسكنه، وجد صندوق "كاملا" المصنوع من الصفيح.

فتحه، فوجد فيه – ضمن أشياء أخرى – فستانين. أحدهما وردي، والآخر بمربعات من اللونين الأحمر والأزرق. كما وجد عقدًا من الخرز الزجاجي الأحمر، ملفوفًا بعناية فائقة داخل "إيشارب" من الحرير الصيني. كما رأى دبوس مشبك مستوردًا. أحس بدهشة عظيمة. لم يكن يعرف أن "كاملا" تمتلك هذه الأشياء، عديمة الفائدة. تساءل عن سرّ احتفاظها بها..





الكابوس مستمر. جاء ليبقى..

هو نفس الـشخص، يعـود إلى حجرتـه القديمـة بجـدرانها ذات الطـلاء المتقـشر. الحـارات نفسها، الناس نفسهم.. لكن كـل شيء تحـوَّل فجــأة إلى أمـر مـزعج للغايـة. الوجـوه المألوفـة صارت ملامحها شريرة وسيئة النية. يلقون برؤوسهم للخلف، ويطلقون قهقهـات مرتفعـة لأي سبب. هو وحده الطبيعي. هل هو كذلك فعلًا؟ أم أنه هو الذي تحوَّل و صار مجنونًا؟

أحس "رامتشاند" فجـأة بأن هناك من يلاحقه. حين التفت وراءه بغتة، بسرعة فائقة وجـده شخصًا غريبًا. من يكـون؟ رمقـه بريبـة. انـزعج الرجـل مـن هـذه النظـرات، وتجـاوزه بخطـواتٍ متعجلة. تسارعت خطوات "رامتشاند" أيضًا، و قد غمره مزيج من الغضب العارم والخوف.

لأول مرة في حياته يشعر بحالة صفاء تسود عقله. بدأ ينظـر متمعنًـا إلى مـا كـان يتمنـى – عـلى الـدوام – أن يلقــي عليــه نظـرة خاطفــة، لكــن هــذا لم يمنحه الراحة. تذكَّر "كاملا" مرة أخرى. كل تفاصيل الوقت الـذي قـضاه جالـسًا بجوارها في ذلك المسكن القذر. المكان الذي عاشت بين جدرانه المسودة، موقـد

الكيروسين، السقف المنخفض، الصندوق الصفيح، الساري البنفسجي وورده الكبيرة، والعينان.. لن ينساهما أبدًا.

بدأ يركض. التفت الناس نحوه في دهشة، لكنه لم يهتم. كانت ضحكة "هاري" لا تزال تتردد في أذنيه. أخذ يركض، ويركض، تحركه تلك الضحكة، وتلاحقه في إلحاح. وصل لمسكنه. ركض صاعدًا السلّم المظلم. فور دخوله الحجرة، أقفل بابها بالقفل والمفتاح اللذين يستعملهما لإغلاقها من الخارج حين يذهب للعمل.

أدرك "رامتشاند" لماذا يحتاج لأن يحبس نفسه داخل الحجرة، لأول مرة في حياته يفهم أن الضعف هو الذي يجعل الناس أقوياء، أمَّا القوة فتضعفك؛ ولهذا أحس في أول لحظات القوة والفهم الواضح التي خبرها للمرة الأولى، بالعجز التام.

حين ثبّت القفل الحديدي الكبير في الباب، انقطع التيار الكهربائي. غرقت الحجرة في ظلام دامس. شعر برعبٍ شديدٍ، لم يعرف مثله قط، حتى في طفولته.

تحسس طريقه نحو الشباك المطل على الشارع، وفتحه. كان كل ما في الخارج مظلمًا. لم يكن التيار الكهربائي مقطوعًا عن الحي فقط، فقد امتد الظلام على مدى البصر، دون نقطة مضيئة واحدة. ظهرت أضواء الشموع في عدة أمكان، أشعلها أناسٌ يعيشون بارتياحٍ داخل بيوتهم الآمنة، محاطين بأسَرِهم، تحركهم العادات والتقاليد، وترشدهم توجيهات كبار العائلة.

لمح لهب الشموع المتراقص خلف الستائر الخفيفة. تحركت ظلال بعض الأشخاص وراء النوافذ. نبح كلبٌ في مكانٍ ما.

استدار وفتح الشباك الثاني. رأى أن "سودها" قد أشعلت شمعتين، واحدة في المطبخ، والأخرى في غرفة الجلوس.

قبل أن يشعل واحدة، هاجمته نوبة فزع. جلس على حافة السريروهو يرتجف بشدة.

حاصره الظلام. لم يستطع التنفس. لا اسم له. لا لغة له. لا يعرف أين يعيش، ولا لماذا. تزايد ارتجافه، لكنه كان مصحوبًا بغضبٍ شديدٍ هذه المرة. فاضت زوايا الحجرة الضيقة بالرعب. أحس بانعدام الوقت. لا يعرف أي شيء. يعرف كل شيء. لم تدُر هذه الأفكار في رأسه فقط، بل سرت داخل جسده كله، كرعشةٍ قوية. خطرت له فكرة لا علاقة لها بأي شيء.. "لا يمكنك إبقاء الشياطين خارجًا، فهم يضعون أقدامهم على عتبة بابك".

سمع صوت عجلات دراجة، يجرها شخص في الشارع. سمع وقع أقدام خفيفة. أثارت هذه الأصوات أعصابه، أحس بخوف. أصبح مجنونًا. نعم، هو مجنون. لا يوجد تفسير آخر.

ركض إلى الحمام. تقيأ. مرة، ثم مرة أخرى بعد خمس دقائق.

كان قد أكل القليل من الطعام، لكنه شرب كميات كبيرة من الشاي، الذي راح يندفع من فمه في سيولٍ بنية حامضة الطعم. غسل وجهه وعاد إلى حجرته في الظلام. لم يبحث عن الشمعة، ولا عن علبة الكبريت. في طريقه لفراشه، تعثر وسقط. أصدرت عظامه صوتًا عاليًا عند ارتطامها بالأرض. ظل في مكانه ولم يتحرك. كوّر جسده، وتقيأ مرة أخرى. قيء قليل هذه المرة. انسكب المزيد من الشاي على الأرض. سالت الدموع على وجهه. أراد أن يصرخ بقوة، بأعلى صوت، لكنه لم يقدر. لا يستطيع. لا يمكنك أن تصرخ هكذا في الظلام، في حجرتك، دون سبب حقيقي. لا يمكنك حتى أن تبكي.

كتبه، دفتره، قاموس "أوكسفورد "، كلها في أماكنها على الرف العلوي. الشحاذ الهندي، الشرطي، "فيليس"، "بيجي"، طيور البطريق، "جواهر لال نهرو" (قائدي المفضّل).. كانوا جميعًا ينظرون إليه شزرًا من على الرف.

ظل متكورًا على الأرض، مستسلمًا للبكاء، طوال الليل. لم ينم إلا مع اقتراب الصباح، من فرط الإرهاق. في نومه المضطرب، حلم "رامتشاند" حلمًا مشرقًا، كله أضواء وأنوار وظلال وظلام وألوان، وكل واحد منها في مكانه الصحيح. رأى أنه في الدكان، وقت الغروب. كان بمفرده تمامًا، تحيطه السواري، والصمت. كان هناك ظلال وخيالات تتحرك وراءه، لكنه كلما التفت ليراها، اختفت على الفور، مهما أسرع بالالتفات. كانت أسرع منه دومًا. تسربت أشياء صغيرة، حادة، غير مرئية، من الفراش الأبيض الذي يجلس عليه في الدكّان، وزحفت على جسده. لم تعضه أو تؤذيه، لكنه شعر بها وبالتصاقها على جلده. لم يعرف ماذا تكون. ثم بدأت السواري تتحرك وتفرد نفسها وترفرف حوله. سرعان ما امتلأت الغرفة بصوت رفرفتها وحركاتها المتطايرة. كانت بعض السواري طويلة جدًا. أطول بكثير من أي ساري في الحقيقة. طارت حوله، ولفت نفسها حول رقبته، حتى كاد أن يختنق. طار قماش كحلي اللون أمام النافذة، كأنه ستارة. كان يخلو من أي زركشة أو تطريز. بدا كعمامةٍ جديدةٍ، ثم طار ساري أخضر فاقع من على الرف باتجاهه - أخضر فاقع، بلون الببغاوات، كالذي فشل مرة في بيعه لـ"مسز بنداري" راقبه وهو يقترب منه، ثم حط على رأسه، وأحاط به كالكفن. التفت حافته السوداء على وجهه وخنقته.

وطوال الحلم، لاحقته عينا امرأة ميتة.



في اليوم التالي، استيقظ من النوم وقد تملكه غضب هائل. لم يشعر بذلك بعد استيقاظه، وإنما أحس به لحظة صحوه تمامًا، وهو مستلقٍ على الأرض الصلبة؛ وبه رغبة شديدة في أن يضرب أحدًا. إحساس لم يعرفه "رامتشاند" أبدًا. عليه أن يعتاد عليه، كما يعتاد الإنسان على ارتداء قميص جديد من القطن القاسي، المنشى.

لم يذهب إلى العمل. ظل يقطع الحجرة بخطواته، وقد استبد الارتباك بعقله. كان يركل الجدران بين الحين والآخر. إحدى ركلاته القوية تسببت في تساقط بعض الطلاء المتقشر في سقف الغرفة السفلية. هب صاحب البيت واقفًا وهو يصيح:

ـ "رامتشاااااند"!

فتح "رامتشاند" الشباك، نظر إلى الأسفل، ولأول مرة في حياته تحدث بصوت مرتفع. صاح في الرجل:

ـ اخرس!

ثم بصق عليه مظهرًا ازدراءه.

لمح "سودها"، التي رفعت رأسها ورمقته بعينين مندهشتين. وقفت في الحوش تحمل صحنًا من البازلاء المقشرة بين يديها. كانت تلبس ساري جميل متعدد الألوان، عليه رسوم لزهور.

أغلق الشباك بعنف. لم يأكل شيئًا طوال النهار، ولم يشرب كوب شاي واحد. ابتلع كميات من الماء، بجرعاتٍ كبيرة، و ظل يشعر بالانزعاج.

عند الخامسة مساءً، ارتدى ثيابه ببطء، ثم خرج. سار باتجاه الدكان بخطواتٍ بطيئةٍ، متمهلة، خفيفة، كأنه فهد يوشك على الانقضاض على فريسته.

حين وصل إلى هناك، كان "مهاجان" هو أول من رآه. قال مؤنبًا:

ـ آه! أخيرًا؟! ماذا حدث لك؟ هل فقدت عقلك تمامًا يا "رامتشاند"؟ دعني أخبرك إذًا أنه لو استمر الوضع على هذه الحال...

قاطعه "رامتشاند" بنبرات هادئة:

ـ تظن نفسك ذكيًا، أليس كذلك يا "مهاجان"؟

قال "مهاجان" بارتباكٍ واضح، وقد عصفت به الصدمة:

ـ ماذا؟! كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة أصلًا؟

بجهدٍ ملحوظ، ظل "رامتشاند" محتفظًا بقبضتيه المكورتين إلى جانبه، دون أن يرفعهما. أجاب متحديًا:

ـ هكذا! أجرؤ لأنني أجرؤ!. وعلى كل حال أنت لستَ إلهًا.

أوشك "مهاجان" على تعنيفه، لكنه لم يفعل. الموقف بأكمله غير مألوف، لأن "رامتشاند" شاب هادىء بطبعه، ومطيع على الدوام. تراجع قليلًا، شاعرًا بالحيرة. أمرٌ ما ليس على ما يرام. "رامتشاند" في حالة غريبة. فكَّر "مهاجان" في أن يذهب ليأتي بـ"جوكل". علاقة الاثنين ببعضهما طيبة، والشاب يُظهر قدرًا ملحوظًا من الاحترام لزميله الأكبر سنًا، لكن وجود زبائن في الدور العلوي منعه من الإقدام على هذه الخطوة. عليه أن يتعامل مع الموقف بحكمةٍ أكبر. لكن لا مناص من إحضار "جوكل"، فهذا هو الحل الأسلم. لا يمكن فهم الجيل الجديد. يمكن أن يتحولوا إلى كائنات شرسة في بعض الأحيان.

حين تكلم، أخيراً، فعل ذلك بصوت قوي يوحي بالسيطرة المعتادة، ولا ينبىء عن الخوف الذي بداخله:

ـ انتظرني هنا. سأرجع حالًا.

أسرع "مهاجان" بصعود السلم. ما الذي حلّ بـ"رامتشاند"؟

توجَّه إلى حيث يجلس "جوكل". مال عليه ليهمس في أذنه. فتح "رامتشاند" الباب الزجاجي، ودخل. زفر "مهاجان" في انزعاجٍ بالغ. وقف "رامتشاند" في منتصف المكان وهو يحملق في "مهاجان " غاضبًا. تعمَّد أن يطقطق أصابعه بحركات بطيئة للغاية. نظر إليه "مهاجان" في ذهول. ظهر القلق على وجه "جوكل". لم يلحظ الآخرون ما يحدث.

نظر "رامتشاند" حوله، وهو لا يزال يطقطق أصابعه. استقرت نظراته على "تشاندر"، الذي جلس يتبادل حديثًا ضاحكًا مع "هاري". استغرق الاثنان في الضحك، وأشاحا ببصرهما عنه. حوَّل نظره إلى الكرسي الوحيد في القاعة، والمخصص للزبونات المسنات اللواتي تمنعهن آلام المفاصل من الجلوس على الأرض. التقطه "رامتشاند"، ورفعه فوق رأسه، ثم حذفه – بمنتهى القوة – على "هاري" و"تشاندر". صرخا وهبّا واقفين على الفور. توقفت أصوات الثرثرة التي كانت تملأ المكان. استدارت جميع الرؤوس تجاه "رامتشاند". قامت أغلب السيدات من أماكنهن ووقفن خائفات، استعدادًا للمغادرة في اللحظة التي سيندلع فيها القتال المتبادل بين البائعين.

قال "مهاجان" بشيء من اللطف:

ـ "رامتشاند".. اهدأ يا بنيّ.

لم يستطع "رامتشاند" أن يتحمل صوته اللزج. كان كل ما يرغب فيه في تلك اللحظة هو الضرب.

الضرب والتكسير، والتحطيم والتخريب. وقف يوزع عليهم نظرات غاضبة من عينيه الحمراوين.

همس "جوكل" لمديره:

ـ إنه ثمل.

صاح "رامتشاند" بغيظ، محذرًا:

ـ يمكنني سماعك يا "جوكل"!

كلما طال وقوفه هناك، ارتفع صوته وازداد حدة. بدأت بعض السيدات في مغادرة الدكان بهدوء. بقيت أخريات، يتنازعهن الخوف من جهة، والرغبة في اقتناء السواري الجميلة التي اخترنها بالفعل، من جهةٍ أخرى. حين رأى "مهاجان" النساء وهن يخرجن من الأبواب، استبدّ به غضب عارم.. الزبونات يغادرن المحل بهذه الطريقة؟! ما الذي سيقوله "بيمسن ست " حين يسمع بذلك؟

استعاد سطوته المعتادة، وقال بحزم:

ـ "رامتشاند".. اخرج من هنا حالًا، حتى لا تضطرني لاتخاذ إجراءات أخرى.

قام "رامتشاند" بما لم يتوقعه أحد.

فجأة، اندفع للأمام، وأمسك بياقة "مهاجان" وأخذ يهزه في غضب. صدم "مهاجان" وجحظت عيناه، فيما ترنح جسده بين يدي "رامتشاند"، الذي صاح:

ـ أغلق فمك هذا، واخرس، وإلا قطعت لسانك!

في تلك اللحظة، تـدافعت الزبونـات خـارج الـدكان، وقـد نـسين الـسواري البديعـة التـي تعلقت بها أفئدتهن. وخلال دقيقة واحدة، خلا المكان إلا من البائعين فقط. كـان "رامتـشاند" لا يزال يقبض بأصابعه ياقة مديره. تقدّم "هاري" و"تشاندر" للتدخل وتهدئة الموقـف. حمـل وجهاهما سمت الجدّيـة، إلا أن أعينهما لمعت بالإثارة والتشوق. وضـع "هـاري" ذراعـه حـول "رامتشاند". التفت إليه الأخير وحاول أن يطبـق يديـه حـول رقبتـه، وهـو ينـتفض كـالمجنون للتخلص من الذراع المحيطة به. صاح:

ـ وأنت يا "هاري"! لا تضحك. إياك أن تضحك أبـدًا. أبـدًا.. هـل تفهـم؟! أقـسم بكـل إلـه أعرفه لو أنني رأيتك تضحك مرة أخرى لحطمت جميع أسنانك.

مدّ "جوكل"، هذه المرة، ذراعه.. فدفعها بعيدًا عنه. دنا منه "تشاندر" محاولًا الإمساك به. صرخ هـازئًا:

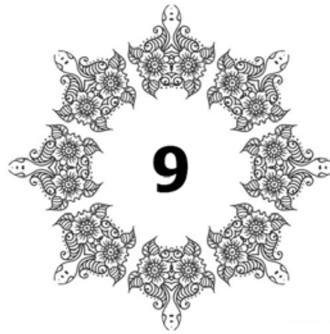
ـ أوه!.. انظروا! "تشاندر" صار قويًا الآن، أليس كذلك؟! لو أنـك تمتلـك قلبًـا، أو شـيئًا مـن الشجاعة، أو حتى بعض الإيمان، لما جلستَ هكذا تتبادل الثرثرة والنميمة مع من حولـك كـما لو كنتَ امرأة عجوزًا.

ثم بصق "رامتشاند".

استقرت البصقة على سطح ساري فـيروزي، بخيـوطٍ مـن الفـضة الخالـصة، كانـت إحـدى السيدات اللواتي لذن بالفرار منذ قليل توشك على شرائه.

لمعت البصقة على التطريز الفضي بالغ الرقة.

حرّر "رامتشاند" ذراعه، وخرج راكضًا من الدكان، دون أن يلتفت وراءه، ولو مرة.



عاد "رامتشاند" إلى حجرته، وقد بدأ يشعر بالقليل من التعقُّل، عقب ذلك المشهد الذي قام به في الدكَّان.

بدأت السماء تمطر. حلّت الأمطار الموسمية أخيرًا.

رفع الناس أبصارهم إلى السماء في سعادة. صعد "رامتشاند" السُلَّم في كآبة، ودلف إلى حجرته. توجَّه إلى الشباك الخلفي على الفور، وفتحه. نظر إلى الحوش. رأى "سودها" وهي تجمع الملابس المنشورة على الحبال، في سرعة. كانت تلبس ثوبًا وسروالًا من اللون الأزرق. زُينت الحواف السفلية للثوب الضيق بالـ"دانتيل". صنعت حبَّات المطر بقعًا صغيرة داكنة على سطح القماش، بدت من بعيد كطلقات رصاص تخترق الفستان. تبلل شعرها. تطايرت أطراف وشاحها في الهواء.

هدأ "رامتشاند" قليلًا عند رؤيتها.

على أي حال، سرعان ما تبين أن قطرات المطر تلك لم تكن سوى إشعارٌ كاذب، فقد سطعت الشمس فجأة، باعثة حرارتها وقسوتها في كل مكان،

واختفت الغيوم القليلة المتناثرة في السماء.

لم تكن هذه بداية الأمطار الموسمية.

عادت "سودها" بكومة الملابس الرطبة، وأعادت نشرها على الحبال، وقد تعكر مزاجها بعض الشيء.

أحس "رامتشاند" أن مخه يوشك على الانفجار داخل جمجمته. مسح بعض المرهم المسكّن على جبينه، واستلقى على فراشه. تصاعدت أبخرة المرهم النفاذة إلى عينيه وأحرقت جفنيه.

أمضى "رامتشاند" الأيام الاثني عشر التالية، على هذا الحال. محبوسًا في حجرته. أيام غريبة، اصطدم خلالها بحالة من الفراغ الأجوف، وتلاشى كل الغضب الذي شعر به سابقًا. لا غضب، لا قلق، لا سعادة، لا طموح، لا ريبة، لا أسى. لا شيء. أحس بالخواء.

لم يخرج ولا مرة. مطلقًا. انقطعت صلته بالعالم الخارجي. لم يهتم بحساب الأيام، ولا معرفة الليل من النهار. أمضى كل وقته مستلقيًا على السرير، أو جالسًا بمحاذاة النافذة دون أن يهتم بفتحها. لم يكن يفكر في أي شيء على الإطلاق.

لم يتناول الكثير من وجباته. يتذكر الأكل حين يقرصه الجوع فقط، وحتى حينها.. لم يكن يطهو الكثير؛ يسلق القليل من الأرز، ويتناوله مع كميات كبيرة من قطع المانجو المخلل، التي صار يأكلها من البرطمان مباشرةً. في بعض الأحيان، كان يمشي الخطوات القليلة التي تفصله عن الموقد، وهو يشعر بدوارٍ شديد، ليعد لنفسه بعض الشاي الثقيل، الذي يشربه دون حليب، عقب تناوله لطعامه مباشرة.

عادةً، بعد هذه الوجبات، يشعر بعدم ارتياح في معدته، أو بالحموضة والمغص.

فقد القدرة على معرفة الأيام والتـواريخ. لم يعـد ينظـف أسـنانه، أو يحلـق ذقنـه. مـرات استحمامه المتباعدة، تمت بواسطة ماء بارد، لم يهتم بتدفئته مـسبقًا. نبتـت في ذقنـه شـعيرات حادة، وأصبح شعره لزجًا و دهـنيًا، والتصق بفروة رأسه التي أصبح يشعر فيهـا بحكـة دائمـة. طالت أظافر قدميه، واخشنّ سطحها. لم يلمس كتبـه أو دفـتره. لم يـأتِ أحـد لزيارتـه. غطّـى الغبـار جميـع الأسـطح في حجرتـه.. الأرض، الطاولـة، الرفـوف، أغطيـة البرطمانـات، المـرآة، الصندوق المعدني، مجموعة الكتب المصفوفة بترتيب.

راقب عنكبوتًا تصنع بيتًا بين المنضدة والجدار. تابعها، بلا أدنى اهتمام، وهـي تغـزل بيتهـا بهمةٍ ونشاط؛ أمَّا هو فقد راقبته سـحلية مـن مكانهـا عـلى الجـدار، بعينـين ثـابتتين. لم تكـن تتحرك، إلا إن رأت حشرة في المكان.

أصبحت الأيام شديدة الحرارة، حتى أن الـصهد كـان ينبعـث مـن أرضـية الحجـرة. تكـرر انقطاع الكهرباء عدّة مرات. لكن "رامتشاند" لم يغادر فراشه ليفتح النافـذة أو يـشعل شـمعة خلال أي من تلك المرات. كان يواصل الاستلقاء حتى بعد عودة الكهرباء، التي عادةً ما تكـون ضعيف، تتحرك معها المروحة بالكاد. في بعض الليالي، ينير المصباح الوحيد، فينبعث في الحجرة ضوء خافت جدًا. أما حين لا يهتم بإضاءته، تغـرق الحجـرة في ظـلام حالـك، وتبـدو كـالكهف. خلال الليالي الهادئة، يمكنه سماع أصوات الفئران في المكان.

أصبح هواء الحجرة عطنًا. وكبطانية ثقيلة، غطت الحـرارة والغبـار أرجـاء الغرفـة. وبقـي "رامتشاند" مستلقيًا، مستسلمًا لثقلها عليه.

في اليوم الثالث عشر، استيقظ من نومه شاعرًا بـبرد ورعـشة في جـسده. تـساءل في حـيرة: "هل أعاني من الحمى؟".

كانت هذه أول جملة منطقية، ذات معنى، تخطر على باله منذ اثني عشر يومًا.

كيف يمكنه أن يشعر بالبرودة في يوليو؟ هذا شهر يوليو، أليس كذلك؟

أحس بالخوف. غادر الفراش.

كم الساعة الآن؟ أي شهر من السنة؟ أين كان خلال الفترة الماضية؟ ما الذي كـان يفعلـه؟ وكم مضى عليه وهو على هذا الحال ؟

لماذا يشعر بالبرد؟ كان الجو حارًا حتى الأمس.

أحس "رامتشاند" بحيرةٍ شديدة وارتباك تام.

قام واقفًا، وسار بحذر تجاه النافذة. فتحها بأصابع متيبسة. شعر بـأن دهـرًا قـد مـرّ منـذ أطلّ منها.

أطل منها الآن..

رأى أن سماء الصباح مغطاة بالكامل بغيوم داكنة منخفضة، وباردة. النـور في الخـارج لـه منظر غير مألوف، به مسحة بنفسجية أحالت المنـاظر المعتـادة والأشـياء المألوفـة إلى أشـكال بالغة الجمال. اندفعت الرياح في كل مكـان. لم يـشهد "رامتـشاند" واحـدة بقوتهـا أبـدًا. ريـح هوجاء، تتحـرك في المدينـة بعنـف، كـشخص مجنـون يـشعر بالـسعادة. راحـت تجلـد أوراق الأشجار، وتطيّر صفحات الجرائد القديمة من على أسـطح المنـازل، وتتخلـل الملابـس المنـشورة التي نسيتها ربات البيوت المهملات معلقة على الحبال.

لهذا الصباح طعم مختلف، محبب، جذاب. انخفـضت درجـة الحـرارة فجـأة، بشكل كبير. تطايرت الأشياء في الـشارع. أكيـاس بلاسـتيكية، قـشور فاكهـة، أوراق

شجر، خصل شعر أزالتها نساء من أمشاطهن صباحًا وألقين بها من النوافذ. تراكض جرو صغير وراء مختلف الأشياء، ثم راح يلاحق كيس أزرق، دون أن ينجح في الإمساك به. جرى الأطفال خلف الجرو، وهم يتصايحون في فرح.

تدثرت البيوت العتيقة بغطاء يمتزج فيه الأزرق مع البنفسجي، وبدت كمشهد في فيلم قديم.

لاحت نصف ابتسامة على وجه "رامتشاند" القذر، غير الحليق. أحس بأنه مسحور بتلك الرياح الجميلة، القوية. وقف وراء الشباك الأمامي لبعض الوقت، ثم استدار ليتمعن في حجرته، وقد غمرته الدهشة. المكان في حالة فوضى فظيعة. كل ما حوله قذر ويغطيه الغبار. أحس بالارتباك والحيرة. ما الذي حدث له؟ كيف وصل إلى هذه الدرجة من الفوضى والقذارة، هو ومسكنه؟

صحيح أنه كان يشعر بانزعاج بالغ، لكن ذلك ليس مبررًا لما آل إليه حاله.

سار باتجاه الباب كأنه مغيب. تفاجأ حين وجد الباب مغلقًا بالقفل. لا يتذكر أنه وضع القفل في الباب. بحث عن المفتاح. أزال القفل ودفع الباب فاتحًا إياه على اتساعه. اندفعت الرياح داخل الحجرة. تطايرت طبقات الغبار، وتحركت ثيابه المهملة. طارت العنكبوت من الزاوية.

ذهب إلى الشباك الخلفي وفتحه. أصدر الخشب أنينًا. تدافعت الرياح بقوة داخل الغرفة، بين الباب والنافذتين المفتوحتين.

في الحوش، جلست "سودها" ترتق ثياب الإجازة الصيفية بهمّة، ممسكةً بين أناملها بإبرة يتدلى منها خيط أسود. كانت تحكم قبضتها حول قميص أزرق، حتى لا يطير.

تطايرت بعض الخصلات حول وجهها الممتلىء. كانت تلبس ثوبًا وسروالًا بـاللونين الأحمـر والأبيض. تراكض أطفالها في الحوش، محاولين أن يطيروا طائرتهم الورقية. شجعتهم الرياح على أن ينزلوها من أعلى خزانة الملابس الخاصـة بـأمهم، حيـث كـانوا يحتفظـون بهـا طـوال أيـام الصيف الحارة. لونها أحمر، ومزينة بالأزرق والأصفر. أمسك بها "مـانوج"، بيـنما حمـل الولـد الأصغر "فيـشنو " بكـرة الخـيط الـضخمة. أخـذت "آلكـا" تتقـافز وتـتراقص حـولهما، وطـرف فستانها الأخضر يضرب ركبتيهـا الـسمراوين. فاضـت وجـوه الـصغار الثلاثـة بالـسعادة، لكـن الرياح كانت أقوى من أن تسمح لهـم بـأن يطـيروا طـائرتهم الورقيـة، فـاكتفوا بالإمـساك بهـا والركض في أنحاء المكان.

نادى "رامتشاند" على الولد الأكبر. توقف الصبي ورفع رأسه في فضول.

سأله "رامتشاند":

ـ ما تاريخ اليوم؟

ظهرت الحيرة على وجه الولد، ثم انهمك في النقاش مع أخوته. سمع "رامتشاند" جـدالهم، الذي استحال إلى خلاف غاضب، إذ سرعان ما ضربـت " آلكـا" شـقيقها "فيـشنو" عـلى ظهـره، فقام بقرصها أعلى ذراعها.

تذكر "رامتشاند" أنهم في منتصف الإجازة الصيفية، ولا شك. ليس من المنطقـي أن يعـرف الأطفال التواريخ حين لا يكونون في أيام الدوام المدرسي.

رفع "مانوج" يده، طالبًا منه الانتظار. اختفى، ثم ظهر بروزنامة صغيرة. تمعن فيهـا بتركيـز للحظات. كان الشبه بينه وأبيه، في تلك اللحظات القصيرة، عجيبًا. صاح بالإنجليزية:

ـ السابع و العشرون من يوليو.

ابتسمت له أمه بفخر. لم تكن تعرف كلمة واحدة بالإنجليزية. لم تبتسم لـ"رامتشاند" كما اعتادت أن تفعل. لا بد أنها لم تنسَ كيف بصق في حوش البيت منذ أيام طويلة.

أحس "رامتشاند" بضعفٍ وصدمة. آخر يوم يتذكره كان الرابع عشر من الشهر، تقريبًا.

الدكّان!

تذكَّر سلوكه وتصرفاته في آخر يوم ذهب فيه إلى العمل. لقد قام بفضيحة. صاح في وجوه الجميع، وضرب واحدًا منهم بكرسي، وإن لم يتذكر مَن بالضبط. تذكَّر أنه أمسك بياقة "مهاجان" وراح يهزه ويهدده. لقد سبّه أيضًا.

خارت قواه.

لا بد أن "مهاجان" غاضبٌ منه. أمرٌ طبيعي، بالتأكيد. لو لم يكن غاضبًا، لأرسل له واحدًا من زملائه ليتفقد أحواله.

لقد خسر وظيفته!

واليوم هو السابع والعشرين من الشهر! آخر الشهر تقريبًا! عليه أن يسدد إيجار المسكن بعد بضعة أيام. في الأول من أغسطس.

لن يسامحه أحد!

ما هذا الذي فعله؟ الناس يتقاتلون، طوال حياتهم، لنيل وظيفة جيدة. يسافرون بعائلاتهم وفرشهم وأوانيهم من مدينة لأخرى، بحثًا عن عمل. يرتضون بأن يكونوا عمالًا في مواقع البناء، ويتعذبون إلى أن ينتهي تشييد العمارات، ثم يجوعون ولا يجدون عملًا آخر إلا بشق الأنفس؛ أو يعملون كالعبيد لساعات متواصلة في المصانع، إلى أن يشيخوا، ثم يطردونهم منها. أو كحرفيين في مصانع النسيج أو ورش المجوهرات، وحين تناهز أعمارهم الأربعين، يكونون قد أوشكوا على فقد أبصارهم.

وها هو يرمي وظيفة جيدة في الهواء.. هكذا.. بمنتهى السهولة! كيف سيعيش الآن؟ كيف فعل ما فعل؟

سار ذاهلًا إلى الحمام. غسل أنبوب معجون الأسنان من الغبار الذي يعلوه، ثم نظف أسنانه بالفرشاة بعناية. وقف بعدها أمام المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط. طالعه وجه هزيل، شاحب، تعلوه لحية خفيفة. غطَّى ذقنه برغوة وفيرة، ثم قام بحلاقتها، تاركًا شاربه.

بحث عن ملابس نظيفة. حين لم يجد قطعة غير متسخة، فتح صندوقه المعدني وفتَّش فيه إلى أن عثر على قميص بني قديم وسروال أبيض.

قام بالاستحمام، وفرك جسمه جيدًا بالصابون، وبخاصة تحت إبطيه. حكّ كعبيه بالحجر، ونظَّف أصابع قدميه بفرشاة أسنان قديمة.

جفف جسمه بالمنشفة، ولبس ثيابه.

كان على وشك تعليق فوطته المخططة الرطبة على ظهر الكرسي، حين انتبه إلى أنه مغطى بالغبار. أحضر خرقة مبللة ومسح بها المقعد، ثم فرد المنشفة عليه لتجف.

بحث عن ساعته. وجدها على الطاولة. كانت عقاربها تـشير إلى العـاشرة صـباحًا. لا يملـك دقيقة واحدة يضيعها. إنه متأخر بالفعل. سينظف الحجرة فيما بعد، حين يعود.

مسح القليل من زيت جوز الهند على شعره. مشطه بطريقة مرتبة، وأسرع إلى الدكان.

عبثت الرياح برقة بشعره النظيف المغسول، وهو يسير في الأزقة المألوفة.



ـ جُحـود! هذا يدعى جُحود! بعد كل هذه الأعوام؟! جحود! لا توجد كلمة أخرى..

اهتز شارب "مهاجان" من فرط الغضب. وقف "رامتشاند" أمامه في ذل وخـضوع، بيـدين مضمومتين.

في البداية، رفض"مهاجان" مجرد الاستماع إليه. ثم انهال عليه بالتأنيب والتقريع لأكثر مـن عشرين دقيقة. وقف "رامتشاند" مـنكَّس الـرأس، صـامتًا، متمنيًـا أن يكـون مظهـره ذلـيلًا بمـا يكفي.

بعد انتهاء الموجة الأولى من الغضب، هدأ "مهاجـان" قلـيلًا، ثـم راح يكـرر مـا قالـه منـذ لحظات بنبرات أقل حدة. واصل "رامتشاند" نظراته البائسة.

انهمرت الأمطار بغزارة في الخارج. أول مطـر حقيقـي في هـذا الموسـم. ارتفعـت المظـلات السوداء في أيدي المارة في الطرقات. ورغم شدة المطر، وامتلاء الطرقات بالمـاء، إلا أن الـسعادة كانت تعم جميع الناس. جلس معظم الباعة في مداخل محلاتهم، يحتسون الشاي.

كـان "رامتـشاند" متأكـدًا مـن أن "مـانوج" و"فيـشنو" و"آلكـا" يلعبـون الآن في البيـت، ويصنعون زوارق ورقية يدفعونها في برك الماء الصغيرة المتجمعة على أطراف الحـوش. اعتـادوا فعل ذلك كلما أمطرت السماء.

كان "مهاجان" لا يزال يوبخه، ثم قال فجأة:

ـ صارحني يا "رامتشاند".. هل كنتَ سكرانًا؟

نظر إليه "رامتشاند" بدهشة. فسَّر "مهاجان" النظرة على نحو خاطىء، فقال بانتصار:

ـ آه! هذا هو الأمر إذًا! وهل كنت تظن أنني لن ألاحظ؟

فكر "رامتشاند" قليلًا، إنه لم يذق الخمر في حياته أبدًا، لكن كيف يمكن تبرير تـصرفاته في ذلك اليوم إن لم يدّعي أنه كان ثملًا بالفعل؟ كيف يمكن تفسير جذبه للرجل من ياقته؟ وحالة الغضب التي كان عليها حينها؟

اكتفى بمواصلة تنكيس رأسه في بؤس وأسى.

كرر "مهاجان" في رضا:

ـ آه! هذا هو الأمر إذًا؟

قرر "رامتشاند" أن الوقت يبدو ملائمًا للحديث، فقال باحترام:

ـ حضرتك.. أرجو أن تسامحني.. أعني أنني لا أدري كيف...

هنا، صمت متعمدًا. قال "مهاجان" وهو يربت على كتفه:

ـ على أي حال، إنها المرة الأولى التي تظهر فيها شيئًا من إساءة الأدب، وأرجو أن تكون الأخيرة. كلنا ارتكبنا بعض الحماقات في شبابنا. يمكنك معاودة العمل في الدكّان، من هذه اللحظة إن أردت.

خرّ "رامتشاند" ساجدًا، على قدميّ "مهاجان".

أحس كل من تابع الموقف بسعادة ورضا، حتى أن "جوكل " مسح دمعة سقطت من عينه. عاد "رامتشاند" إلى وظيفته.



تفرق الجميع، بسبب دخول بعض الزبونات. توجّه "رامتشاند" ليجلس في مكانه المعتاد وهو يشعر ببعض الإرتباك. سرعان ما امتلأ الدكّان بالأصوات المألوفة. خدم "رامتشاند" ثلاث زبونات، وباع ساريين اثنين خلال مدة لا تتجاوز الساعتين.

خرج ليتناول غداءه، وأكل رغيفين من الـ"بوري" في أحد الأكشاك.

في البداية، تعامل معه زملاؤه ببعض الحرج، ولكن مع حلول المساء اشترى "رامتشاند" بعض حبّات الـ"ساموسا" للجميع، ووضع اثنتين في صحن قدمه لـ"مهاجان".

بعد ذك، عادت الأمور لطبيعتها. لم يشر أي منهم في كلامه إلى النهار الذي أتى فيه للدكّان غاضبًا، وهاجم الجميع، وكما قال "مهاجان" فإن كل الشباب يرتكبون بعض الحماقات أحيانًا.

ليلًا، اقترح "هاري" أن يذهبوا لمطعم "لاكان". كان "تشاندر" قد غادر قبل الجميع. اتفق "شيام " و"راجيش" على تناول العشاء سويًا في بيت الأخير.

ابتسم "جوكل" في سعادة وسأل "رامتشاند":

ـ ستأتي معنا، أليس كذلك؟

أومأ برأسه موافقًا، فصاح "هاري":

ـ ماذا ننتظر إذًا؟ هيا بنا! سأموت من الجوع!

توجَّه الثلاثة إلى المطعم، وحين جاء "لاكان" ليدوّن طلباتهم، حوَّل "رامتشاند" نظراته إلى اتجاه آخر، بعيدًا عنه. تناولوا خضراوات مطبوخة مع بعض الأرغفة الساخنة، ثم طلبوا شايًا. حين أمسك "رامتشاند" بالكوب بين يديه وأحس بالدفء المألوف، بذل مجهودًا كبيرًا ليحبس الدموع التي ملأت عينيه.

تناقر "جوكل" و"هاري" وتبادلا تعليقات ساخرة. اكتفى "رامتشاند" بالابتسام، وبضع كلمات متناثرة هنا وهناك.

بعد ذلك، ودّعاه متوجهين إلى بيتيهما. غمز "هاري" بعينه لـ"رامتشاند"، وربّت "جوكل" على كتفه، قبل أن يتركاه. سار في الشوارع المألوفة المؤدية إلى مسكنه. صعد السُلَّم المظلم، وفتح القفل، ثم دفع الباب. رأى الحجرة المغطاة بالغبار. بحث عن الخرقة. بدأ في العمل. مسح، ببطء، جميع الأسطح.. عدا الرف المحتوي على كتبه. تجنبه تمامًا.

بعد ساعة، كانت الغرفة نظيفة ومرتبة، وكان "رامتشاند" مستلقيًا على سريره، يحملق بشرود في البقعة التي سببتها الرطوبة الموجودة في السقف.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.6	لأننا كنا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.7	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
.8	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.9	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.10	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.11	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.12	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.13	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.14	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.15	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.16	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.17	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.19	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.20	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.21	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.22	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.23	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.24	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.25	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.26	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.27	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.28	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.29	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.30	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا

31.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
32.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33.	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
34.	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
35.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
36.	الموت في بابل، الحب في إسطنبول	إسكندر بالا	تركيا
37.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38.	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39.	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43.	الكنائس السبع	ميلوس أوربان	التشيك
44.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
46.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50.	فيل في الحديقة	ميرال قريشي	سويسرا
51.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
52.	بين الجبل والبحيرة	جوو دا شين	الصين
53.	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
54.	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
55.	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56.	رئيس القبيلة الأخير	يي مِاي	الصين
57.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
58.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
59.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
60.	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
61.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
62.	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا

.63 إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.64 صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
.65 دكان الساري	روبا باجوا	الهند
.66 جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.67 العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.68 المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

.69 الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
.70 قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
.71 هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
.72 الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
.73 الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.74 يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
.75 خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
.76 ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
.77 أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
.78 قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
.79 النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
.80 لن أمنحك كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
.81 جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
.82 الجري	ثور جوتاس	النرويج
.83 عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
.84 اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

.85	النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
.86	وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
.87	أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
.88	القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.89	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.90	ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
.91	خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
.92	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.93	دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
.94	التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
.95	لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
.96	هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

.97	بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.98	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا



#كتب_مختلفة #الهند

"رامتشاند" شاب هندي بسيط. يعمل منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره في دكان لبيع الساري بمدينة "آمريتسار" بالهند. يمضي أيامه في فرد الأقمشة والأثواب ويعرضهم على سيدات الطبقة الراقية والعرائس الشابات. لكن حياته برتابتها تلك لا تعجبه، تؤرقه دومًا، ويضايقه شعوره الدائم بقلة الحيلة والنقص، لا يريد أن يكون مجرد بائع صغير وتافه في دكان للساري، لذا يضع لنفسه هدفًا، ويقرر تحسين لغته الإنجليزية، فيشتري الكتب المستعملة وقاموس ويداوم على قراءتهم وحفظ الكلمات المختلفة، لكن حياته لا تسير على هذا المنوال طويلًا، حوادث بعيدة عنه يعاني منها أناس ليسوا بهذا القرب منه. عجوز وزوجته يفقدا ابنيهما في انفجار مرعب، ورجل يعاني من زوجة لم تعد تهتم بالحياة، لكن كيف سيسمح "رامتشاد" لهؤلاء ومآسيهم بالتأثير عليه. "دكان الساري" رواية اجتماعية تغوص بنا في هند مختلفة تمامًا عن الهند التي نشاهدها في التليفزيون. رواية واقعية عن أناسٍ يحاولون الحياة في مجتمع طبقي تختفي منه الرحمة رويدًا رويدًا.



روبا باجوا

كاتبة هندية، ولدت في "أمريستار" بالهند عام 1976، وتعيش بها رغم سفرها الدائم لغيرها من البلدان. "دكان الساري" هي روايتها الأولى، وكتبتها باللغة الإنجليزية "The Sari Shop"، ورُشح العمل لجائزة "أورانج" للرواية عام 2004. فازت الرواية بجائزة "الكومونويلث" عام 2005، وجائزة "ساهيتيا أكاديمي" الهندية في 2006. نالت الكاتبة جائزة "جرينزين كافور" الإيطالية كأفضل روائية شابة عام 2005. تُرجمت "دكان الساري" إلى الفرنسية، والهولندية، والصربية، والآن إلى العربية. لـ"روبا باجوا" عمل أدبي آخر يحمل عنوان "Tell Me a Story" - "أخبرني قصة" - صدر عام 2012.

العربي للنشر والتوزيع

40 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-357-7





تصميم الغلاف: آلاء هيكل